مدن الملح

«٤»

المنبت

عبد الرحمن منيف



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

مدن الملح

المُنبَتّ

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً «موكيالي»
بيروت ـ ص.ب : ٥٤٦٠/١١ بيروت
تلكس: LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧

الطبعة الأولى ١٩٨٩

عبد الرحمن منيف

رواية

مدن الملح

«٤»

المُنْبَتّ

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

«... فإن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»

حديث شريف

هبطت الطائرة في شتوتغارت بعد رحلة طويلة ، اطول مما توقعها السلطان . ولقد تخللها الكثير من الاسئلة ومراقبة الاماكن ومحاولة النوم ، وحين لم تكف هذه الأمور طلب جلالته أن يوافيه إلى مقصوراته شايع السحيمي لكي يحدثه ويؤنسه .

كان شايع يروي له قصة نبي الله يوسف ، حين جاءه كبير المضيفين يبلغه أن الطائرة تقترب من شتوتغارت . تحرك شايع ليغادر المقصورة ، قال له السلطان :

ـ قلت لي اربع لا يشبعن من اربعة . . . ما هو كذا ؟

ـ أي نعم ، يا طويل العمر . اربع لا يشبعن من اربعة : عين من نظر ، واذن من خبر ، وارض من مطر ، وانثى من ذكر .

مـطّ الكلمة الأخيرة وهو ينهض . ابتسم السلطان . مسّد لحيته عدة مرات، وبدأ وجهه يكتسب الحزم تدريجياً.

في شتوتغارت كان الاستقبال مليئاً بالحفاوة والمرح . بدا السفير متهيباً اقرب إلى الخوف أو الارتباك ، لكن بمرور الوقت اصبح واثقاً ومتألقاً .

في السيارة التي أقلّت السلطان، ورافقه ممثل عن بلدية المدينة والسفير، جرت احاديث سريعة، عن الطقس والخضرة والمسافة إلى بادن بادن . أما عند القصر فقد كانت فرقة موسيقى بافارية تنتظر ، وقد أدت لجلالته التحية ، ثم عزفت الحاناً مرحة ، واستمرت حتى بعد أن تجاوز الجميع البوابة . أما في

حديقة القصر فقد نصبت عدة طاولات ، وضعت فوقها الازهار والفواكه والحلويات .

بعد استراحة قصيرة غادر الضيوف والفرقة الموسيقية . وبطريقة لا تخلو من مكر ، هيأ رجال السلطان احتفالاً على طريقتهم الخاصة ، تعبيراً عن الفرح ، ورداً على موسيقى الالمان . وقد شارك الجميع ، وفي لحظة معينة كاد السلطان يشارك ، لكنه تردد ثم صرف النظر ، رغم أنه لم يتوقف عن هز رأسه دلالة الفرح. وبدرت من النسوة جرأة غير معتادة، إذ وقفن على أكثر من شرفة وتابعن الرقص.

كان السلطان مأخوذاً بالجمال الذي يطوقه من كل ناحية . ولفت نظره أن ضوء النهار باهر ، والشمس لا تغيب. استغرب ذلك، نظر إلى ساعته أكثر من مرة . لاحظ ناصر السحيمان ، السفير ، استغراب السلطان ، قال بمداعبة :

- هذي الديرة غير ديرتنا، يا طويل العمر . صيفهم غير صيفنا ، وشتاهم غير شتانا . . .

التفت إلى أكثر من ناحية، ابتسم ابتسامة الواثق وأضاف:

- وبعض الأيام ، يا طويل العمر ، الشمس تغيب من الغرب ، وبعد ساعتين أو ثلاث تناظرها من الشرق .

قال السلطان وهو يقهقه :

- هذي هي الجنة التي وعد الله بها المتقين .

قال زيد الهريدي بافتتان:

- لعن الله والدين الالمان، منين جابوا هذي الخضرة كلها؟

ولم يهدأ السفير ، ولم يتعب ، وهو يحدث السلطان عن الحقول والغابات والانهار . وكيف أن الانسان لا يستطيع اجتياز الغابة السوداء القريبة ، وأن الحكومة تدفع للمزارعين مبالغ طائلة من أجل دفع الغابات قليلاً إلى الوراء ! تظاهر السلطان بالاهتمام والمتابعة ، لكنه بدا مشغولاً بأمر آخر . في احدى اللحظات سأل بمرح :

ـ والناس ، بهذي الديرة ، ما ينامون ؟

وحين نهض ليأوي إلى فراشه ، خاطب الموجودين بمداعبة :

ـ هذي الديرة ، يا جماعة الخير ، ما لها رباط ، ليلها مثل نهارها ، ورجالها مثل نساها ، والأخير أن البني آدم يتوقى !

حتى ظهر اليوم التالي ، انشغل السفير ورجال السفارة باعادة ترتيب اقامة الحاشية والمرافقين ، إذ جرت مشاورات عديدة ، تدخل فيها الكثيرون ، من أجل توزيع الحرس ، وتغيير الغرف ، وتأمين المترجمين والسيارات . ورغم أن ترتيباً مبكراً قد أعد ، وتم الاتفاق عليه مع ادارة الفندقين اللذين خصصا لنزول الحاشية ، إلا أن المراجعات والصخب ، إضافة إلى التغيير المستمر ، خلق ارباكات عديدة . أما موضوع الطعام فقد ظل مشكلة غير قابلة لاي نوع من الحل ، لأن الاكل الذي اعده الفندقان لمائة وسبعين شخصاً ، لم يتناول شيئاً منه سوى المرضى وعدد محدود من الذين بقوا في الفندقين .

ما كاد يعود السفير عند الظهر ، ويعرض على جلالته رغبة وجهاء الجالية العربية بزيارته والسلام عليه ، حتى رد السلطان بطريقة لا تخلو من ضيق :

ـ خلنا نشوف الدنيا يا ابن سحيمان ، وجماعتنا نلحق عليهم .

والتفت وواصل الحديث ، وكأنه يخاطب زيده وحده :

ـ وهذول ، جماعتنا ، ما عندهم إلا سوالف الحريمات : قلنا وقالوا ، والأخير نخليهم للتالي !

في فترة بعد الظهر ، أثناء قيلولة السلطان ، وصل من بون السكرتير الأول للسفارة . اختلى بالسفير فترة ، وما كاد يغادر ، حتى اهتزت غرفة زيد الهريدي ، إذ دخلها السفير مضطرباً اصفر الوجه ، وقد تصبب منه العرق . ومن خلال الاصوات العمياء والاشارات نقل لزيد الخبر .

لفترة غير قصيرة ساد الذهول والصمت ، وحين تمالك زيد نفسه سأل :

ـ وأنت متأكد يا ابن الحلال ؟

يهز السفير رأسه مؤكداً ، ولا يقوى على أن تلتقي عيناه بعيني زيد إلا للحظة خاطفة ، لحظة مليئة بالخوف والتوسل . يتابع زيد :

ـ ما هو معقول ، يا ابن الحلال !

ـ هذا ما حصل يا شيخ . يلهث ويضيف : والحكومة الالمانية بعثت تريد اقابلها اليوم بعد الظهر

ـ وشنهو اللي نقوله لطويل العمر ؟ ومن هو اللي يقوله ؟

وحين يصمت السفير ، لا يقوى على الرد أو النظر إلى عيني زيد ، يتابع زيد محدثاً نفسه :

ـ ابد ما هو معقول ، يا جماعة الخير . وفنر ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله .

وبعد فترة صمت يضرب زيد على ساقه ، ويسأل من جديد بلهجة مختلفة :

ـ خاف تكون السالفة من أولها إلى تاليها : قيل عن قال؟

يرد السفير بيأس :

ـ خلنا نشوف الحكومة الالمانية ، وبعدها الله كريم !

ـ والحكومة الالمانية ويش اللي درّاها ؟ ومن علمها ؟

ـ هذي حكومة يا ابن الحلال .

ـ وحنا شنهو حنا ؟ زق ؟ فزاعة خضرة ؟

ـ حاشاك يا شيخنا ، بس هذي حكومة وعندها علوم كثيرة .

ـ وإذا رحت ، متى ترد ؟

ـ من ساعتي ماشي ، يا مبارك ، وباكر ارد.

ـ ولباكر تخلينا نضرب اخماس باسداس ؟

ـ بعد المقابلة اتصل بكم ، وما اترك احد إلا وانشده ، وباكر ، انشاء الله .

اجيكم بالعلوم ، وعسى تكون علوم زينة .

ـ وطويل العمر ؟

ـ خل طويل العمر بعرسه ، وباكر نشوف .

ـ وإذا سمع من غيرنا ؟ إذا علّمه احد ؟

ـ انت موجود ، يا شيخنا ، وما اظن يصله احد .

ـ وانت . . . اريدك تعلمني بكل شيء ، بالتلفون ، بطارش، شلون ما كان ، واريدك ما تبطي .

ويعد قليل :

ـ متى ترجع ؟

ـ ما ابطي عليك يا شيخ زيد ، وإذا قدرت ارجع اليوم.

ـ ترى إذا غيبتك طالت امورنا حارت .

ـ وكِّل الله يا شيخنا .

ـ اعتمادنا على الله وعليك ، وانشاء الله بعودتك تجي البشاير ونخلص من هذي المصايب .

بعد العصر كان مزاج السلطان رائقاً وجليلاً :

ـ « . . . واول رجعتنا ، يازيد ، بالخير والسلامة ، يلزم تذكرني : العجيزّة ، الشيخة ، لا بد ونزورها ونحب راسها. تعبت الحريمة ، يلزم نطيّب خاطرها ، وهي ما تريد أكثر .

«ويلزم، يا زيد، نروح لجماعتنا. نزورهم ببيوتهم. نشوفهم ونسألهم : شلونكم يا جماعة الخير ؟ انشاء الله مرتاحين وراضين علينا ؟ وإذا نسيناكم ، يا جماعة ، فسبحان من لا ينسى . لكنها الدولة وهمومها ، ويلزم تسامحونا ، وعسى الأيام اللي تجي احسن من الأيام اللي راحت . ويلزم نسمع منهم يا زيد . خل كل واحد يسولف . يقول اللي يريده . وحنا لازم نسمع . نقول

لهم : الحق حق ، وما ينزعل منه ، واللي تقولونه صحيح ، لكن البني آدم عقله ما هو دفتر ، ينسى ، تغره الحياة الدنيا أو تشغله ، لكن بعد هذا اليوم ابد ، ذاك يوم وهذا يوم . وإذا زعلنا يا زيد نكون مخطئين .

« ويلزم نسأل عن كل واحد ، يازيد . لأن جماعتنا ارواحهم عزيزة ، والواحد منهم يموت وما يقول آخ . وانت تعرف : اولاد الحرام سدوا علينا كل باب . كل يوم بوجوهنا ، وسوالف واخبار . وقالوا وقلنا . وبعدها : الله اكبر . وبعد الصلاة : تفضلوا يا جماعة الخير . وكُلّهم لقّامة ، وابد ما يقولون لا . ياكلون ويتسوكون . وإذا قمنا قاموا . وثاني يوم سروة يجون . وإذا سألنا : وين فلان يا جماعة الخير؟ يسكتون ، يناظرون بوجوه بعضهم ويسكتون . وإذا سألناهم نوبة ثانية يقولون : ما ندري .

«أمس يا زيد تذكرت شداد، وتذكرت شمران. صار سنين وأيام ما شفنا شمران . قال لي حماد : شمران ما عنده سالفة إلا سوق الحلال . قلت لحماد : اتركوا سوق الحلال بمكانه . قال لي : سوق الحلال صار اثر بعد عين ، ومكانه ما هو مناسب . قلت له : اتركوا الناس يترزقون . قال لي : العوالي أَخْيَر لهم واوسع .

« يلزم تذكرني ، يا زيد، إذا رجعنا بالخير والسلامة حتى نزور شمران ، فإذا شفناه كلمة منا وكلمة منه وتصفى القلوب ، لأن الناس إذا ناظروا وجوه بعضهم ، إذا قالوا اللي بقلوبهم تصفى . أما إذا قيل عن قال خاست ، واولاد الحرام يحصدونها .

« ويلزم ، يازيد ، أن الواحد يقول اللي له واللي عليه . وموران اليوم ما هي مثل أمس. أمس كنا ندوّر ونقول: عطونا يا جماعة الخير: دين، قرضة حسنة . اليوم ، وبعد ما افاض الله علينا يلزم نقول : خذوا . وما نترك احد يجوع أو يحتاج . لاني بين يوم والثاني اسمع من الحريمات : فلان ذابحه الجوع . وفلان محتاج وما يلقى . ويمجالسنا، يا زيد، كلهم يحمدون ويشكرون. لكن الناس ما هم بس اللي يجونا.

«بعد اليوم، يا زيد لا تترك الشيبان، اللي ما عندهم إلا: قال الله وقال

الرسول، يملون مجالسنا ويسدون بيبابنا. خلنا نروح للناس، خلهم يجونا. ويعدها نسوي اللي الله يقدرنا عليه، لأنه بعد اليوم مالنا عذر، وما لنا شفاعة عند أحد».

يستريح السلطان قليلاً ، يتذكر وجوهاً واموراً كثيرة ، لأن الاطياف القديمة تعاوده من جديد ، فتتغير لهجته :

« ـ وحماد ، الله يصلحه ، ما عنده إلا سالفة : احذر وتوقّ يا طويل العمر . اولاد الحرام كثر وقلوبهم ماليها الطمع . واقول له : يا ابن الحلال ، جماعتنا وحنا ادرى بهم . عطهم . خلهم يشبعون ، لأنهم إذا شبعوا ارتخو وفترت حركتهم ، وما يهمهم فلاني وتركاني . ويقول : المؤامرة الفلانية . الجماعة الفلانية . الشخص الفلاني ، كلهم طامعين ويتآمرون . واقول له : سوالف يا حماد ، وأخاف جماعتك هم اللي ينقشون ويكتبون ، وتراهم واهمين . يقول : حنا متأكدين ، يا طويل العمر ، وعندنا الدليل . » .

يهزّ السلطان رأسه. يحاول أن يضحك ، فلا تخرج من فمه الاهمهمات ساخرة . يتابع :

« ـ ولو قدر حماد كان سد بيبابنا ، وما خلى حتى الطير يمر فوقنا أو احد يتقرب منا » .

وتغيرت اللهجة ، اصبحت آمرة واقرب إلى الحدة :

« ـ لكن منْ رجعتنا ، يا زيد، نقول لهم : اتركونا . افتحو بيبابنا وخلوا الناس يجونا، ومثل ما سوى المرحوم أبوي نسوي. لا نخاف ولا نجفل. وما تاخذنا كلمة وتردنا الثانية . ونقول لحماد : وانت يا حماد إنسَ هذي السوالف ولا تخف ، واولها وتاليها : المقدر لازم يصير . »

ويضيف مخاطباً نفسه :

« ـ اي نعم ، أي نعم هذا اللازم ، وهذا اللي يصير . »

وبعد أن يخيم الصمت ، وكل من الرجلين يفكر بامور مختلفة تماماً عن الآخر ، يقول السلطان وهو يتلفت حواليه :

« ـ وبعد ما انعم الله علينا يلزم نسوي موران جنة ، يا زيد. البيوت ، الشوارع ، الحدايق ، المدارس . ومثل ما قال لي الجماعة قبل شهر أو شهرين ، قالوا : مشكلة موران : الماء . إذا توفر الماء كل شيء يتغير . وما دام الله اعطانا وتفضل ، وما دامت الفلوس واجدة ، نقدر نجر الماء من كل مكان ، نحفر البيار ، ونحفر القاع . . . » .

وتتغير اللهجة مرة اخرى ، تصبح تعليمية :

« ـ الماء يجر الماء ، يا زيد، مثل الفلوس تجر الفلوس . فإذا ربّعت قاعنا ، وإذا زاد زرعنا ، وصار الشجر والثمر ، ترى ديرتنا تتغير . تصير موران مثل البستان . »

وتصبح اللهجة آمرة من جديد :

« ـ برجعتنا ، يا زيد، لا تنس تذكرني : كل من يحفر بير الحكومة تساعده . كل من يزرع شجرة الحكومة تساعده . وما يروح يوم ويجي الثاني إلا والسلطنة كلها ، من حران إلى البقعة ، من المطالع إلى عين موسى ارض خضرا مثل هذي الديرة واحسن .

« وتذكرني ، يا زيد : المدارس على حسابنا . الاجزخانات على حسابنا . وتعالوا يا ناس ، تعالوا يا أولاد الحلال : كل من يريد يعلم اولاده : ولا قرش. كل من يطب الاجزخانه ما يدفع ولا قرش. وما هو بس كذا، كل واحد يخرج من الاجزخانة معافى اكرامية: دشداشة وعباية، وفي أمان الله. واللي يموت يدفن على حسابنا !

« الناس ، من قبل، يا زيد ، جواعا . الخبز ما يحصل . تذكر ذيك الأيام . هالحين لازم ياكلون ويشبعون . وكل واحد بموران عنده عيال ، عنده اكثر من اربعة يلزم الحكومة تعاونه . الفلوس من فضل الله واجدة . وخذوا يا اولاد الحلال ، انتم النشامة وتستاهلون، وما ننسى احد ابد .

« والمحابيس يازيد . الله يرحمه خريبط، كان بكل عيد يطلق قسم منهم . كل واحد جرمه خفّيف ، كل واحد بقى له مدة قصيّرة ، تعال يا فلان ، ترى

هالمرة سامحناك ، وأنت من اليوم طليق ، لكن إذا جيتنا نوبة ثانية ترى ما تخلص منا . تسمع ؟ وبعد ما يسمع ويطيع : اعطوه قرشين يا جماعة ، وخله يدوّر أهله .

« حنا يا زيد نسينا هذي العادة ، سويناها نوبة ، وبعدها الشيطان ، الله يخزيه ، نسّانا . هالحين من رجعتنا ، أول شيء تذكرني به هالمساكين . ذكرني ولا تمل ، وما يهم عيد أو ما هو بعيد ، يلزم هالمساكين يرجعون لاهلهم . » .

ويهز رأسه اسفاً لهذه الاخطاء التي وقعت دون أن يفطن لها ، ودون أن يذكّره بها احد . يضيف بحزن :

« ـ واللي ذبحوهم جماعتنا هنا وهنا ، يا زيد ، لا تتركوا اهلهم إلا وترضوهم . حطوا بجيب كل واحد منهم قرشين ، وقولوا لهم : عفا الله عما مضى ، وحنا اولاد اليوم » .

وتتغير النبرة .

« ـ لأن هذول إذا ما كانوا راضين تراهم يسوون كل شيء . يلزم ترضوهم ، يا زيد . واريد منك انت وحماد أن تحضروا لايحة بكل اللي ذبحهم الجماعة من يوم استلامي العرش. وتعالوا يا اخوانهم ، يا اهلهم ، وتبلغونهم : ترى يا جماعة الخير طويل العمر ما يدري . لا عرف ولا سمع . وتعرفون : براسه الف شغلة وشغلة ، لكن لما جا من قال له ، قال : أبد ما يصير . وهالحين هو اللي امرنا . قال : شوفوهم ، طيبوا خاطرهم، واللي يريدونه يصير . وحنا ، يا جماعة الخير ما نقدر إلا ننفذ أوامر جلالة السلطان . تسمع يا زيد ؟ لا تتركوا احد ابد ، لأن من هذا الباب تجي الريح ، فإذا خلصنا منهم تخلص الطلايب ، ونخلص من سوالف حماد . » .

وبعد أن قدم الشاي والقهوة مرتين ، طلب جلالته ، خلافاً لليوم السابق ، أن يعد له الطعام في جناحه الخاص . ولما خيم الصمت وطال ، قال السلطان يواصل حديثه:

« ـ هذي الديرة تعجب ، يا زيد . من ساعة ما حطينا رجلنا بالمطار ،

وإلى هنا ، والخضرة ما فارقتنا . وبيوتهم زينة ، والناس شبعانين ، ويلزم موران ، وعموم السلطنة ، تصير مثل هذي الديرة . ويلزم الامراء كلهم يجون ويناظرون . إذا شافوا الغيرة تاكل قلوبهم ، وبعدها : يا الله يا جماعة . ازرعوا وعمّروا ، وما تمر كم سنة إلا وموران مثل الجنة . ومثل ما قلت ، يا زيد : الماء نلقاه . توصله المواسير ، ينجرّ ما دامت الفلوس واجدة . المهم أن الواحد ينوي . » .

وربما خطر للسلطان خاطر وهو يتكلم ، إذ فجأة سأل :

- وينه ناصر ؟ ما شفناه المسويات ؟ .

ارتبك زيد الهريدي الذي ظل صامتاً طوال الوقت . رد بصوت بدا حزيناً :

- نسيت اعلّمك ، يا طويل العمر ، الحكومة الالمانية طلبت مقابلته ، فاستأذن وسافر .

- الحكومة الالمانية طلبت مقابلته ؟

- وقال انه ما يبطي .

قال السلطان بزهو :

- الله اعلم انهم يريدون يشوفونا ، وهذا اللي قاله صاحبهم بالمطار .

ويعد قليل :

- ومثل جماعتنا ، بعد اليوم الثالث يسألون ويتقصّون .

مرت نسمة خفيفة فارتجف زيد . تراءت له موران بعيدة مستحيلة . سأله السلطان :

- ومتى يرجع ؟

- ما ادري ، يا طويل العمر ، لكنه قال انه ما يتأخر .

هز السلطان رأسه دلالة الفهم والموافقة ، واضاف :

ـ اريدك ما تنسى ابد اللي علمتك به يا زيد ، واريدك تذكرني بكل شيء . . .

وتغيرت لهجته ، اصبحت حزينة :

ـ لأن الناس إذا تحملوا وسكتوا ، تراهم ما يحتملون اكثر ، وإذا ما قالوا بوجوهنا ، يقولون إذا قفينا ، إذا مشينا ، وعندها الله يستر .

وظلت انوار القصر تتلألأ ، واصوات الضحكات تسمع بعد مضي ساعات على مغادرة السلطان للحديقة . كما شوهد اكثر من مرة يخرج إلى الشرفة ، وكانت معه عروسه ، وكانت معهما أم العروس في احدى المرات .

وزيد الذي دخل إلى البناء الجانبي ، عند بوابة القصر ، ابلغ آمر الحرس أن لا يسمح بدخول احد ، ايا كان ، عدا السفير ، حتى صباح اليوم التالي . وظل يتقلب في فراشه وينتظر ، ولم يستطع أن يغفو لحظة واحدة .

ـ . . . والله ، والله لو ظل بعمري ساعة واحدة ما اتركهم ولا اخليهم يفرحون .

ويهز السلطان رأسه بسرعة وبطريقة آلية تشبه اهتزاز رأس الحرذون. يغيب . يحاول أن يتخيل ما حصل ، ثم فجأة يصرخ بحقد :

ـ قالوا لارواحهم : ابو مشعل طيب . طيب ويده مبسوطة وصدره واسع ، ويحمل مثل بعير ؟ وقالوا : كم يوم وينسى ؟ لا مخطين . هالحين يلزمهم يعرفون من هو ابو مشعل . لأن أبو مشعل مع الكريم اكرم ، ومع اللئيم العصا، وماله بقلبي رحمة. ويلزمهم يعرفون: ما هو كل من ركب الفرس فارس، ولا كل من حمل السيف صار عنتر بن شداد.

يتنفس بعمق وحسرة ، وكأنه يريد أن يمتص الهواء كله ، ويتابع بلهجة مختلفة :

ـ قالوا لارواحهم : غاب البس العب يا فار ؟ قالوا : بعيد ونقدر نسوي كل شيء ؟ تراهم مخطين وواهمين ، وراح ياكلون اصابعهم ندامة ، لأن بعد كل ليل صباح ، وبعد كل نشوة صحوة . . . ونشوف .

ويضرب على الطاولة ، التي جلس وحده في جانب ، وجلس السفير وزيد الهريدي في الجانب الآخر ، ويهدر صوته :

ـ من هذا اليوم ، من هذي الساعة ، أنا كوم وهم كوم ، وما عاد بقلبي رحمة ، ولا لاحد منهم شفاعة . . .

ويضرب الطاولة مرة اخرى :

ـ والله . . والله لاخلي الدم يصل للركب ، وبيدي هذي لاقص رأس كل من خان ، وكل واحد اشترك ، وتشوفون .

ويخيم الصمت ، صمت ثقيل مدوٍ ، فتبدو الانفاس ثقيلة ، وكانها خارجة من اعماق بعيدة. لا يقوى احد أن ينظر إلى وجه الآخر ، إلى عينيه؛ لأن في تلك النظرة النهاية .

تحرك السلطان قليلاً ، وقال بلهجة آمرة قاسية :

ـ إذا قالوا لك يا ناصر انهم ما يريدوني ، وإذا قالوا انهم يرمون طيارتي إذا وصلت موران ، فقل لهم : تعالوا لهنا. قل لفنر: ابو مشعل يريدك ، يلزمك تجي فوراً ، ومن رأسك لرأسه تتفاهمون . يا الله ، قم وقل هذا الشيء .

ويحاول ناصر السحيمان أن يشرح من جديد أنه حاول مرات كثيرة الاتصال مع موران ، لكن موران لا تجيب . لا تستقبل اية نداءات تلفونية . وكل ما وصله عن طريق البرقيات ، والبرقيات واضحة لا تحتمل التأويل ، ويختم كلامه برجاء :

ـ وانت ، يا طويل العمر ، أب للجميع . ورأيي أن نصبر يوم او اثنين ، ولا بد أن يندموا ويتراجعوا .

وحين يحاول أن يضيف كلمات اخرى تفزعه صرخة السلطان :

ـ قم واتصل بهم قبل كل شي.

ويتصل ناصر السحيمان بالسفارة «ببون» ويسأل بصوت عالٍ ما إذا عادت الاتصالات مع موران، وحين يتلقى جواباً بالنفي، يحاول أن يشرك زيداً في سماع الجواب ، فيصرخ السلطان :

ـ لكن وين يروحون مني هالكلاب؟

ويزفر وتتغير اللهجة :

ـ يا عباد الله انا اللي سويتهم . أنا اللي عطيتهم . قلت لهم : خذوا . قلت

لهم : صيروا مثل الناس والعالم . وسكت على فضايحهم وسرقاتهم ، سويت روحي لا شفت ولا سمعت ، وبعدها اليد اللي ربتهم وعطتهم يعضونها ؟ الصدر اللي حماهم يسوون به كذا ؟ هذا وين صار ، ومتى صار يا عباد الله ؟

يزفر بحرقة ثم يتابع :

- اسمع يا ابن سحيمان : تبرق لهم هالحين ، نعم هالحين : إما يجوني ، وخاصة فنر، يجي ويحب يدي ويقول أخطيت واطلب السماح، أو اركب طيارتي وامشي ، وهناك إذا تواجهنا نتحاسب ، ولكل حادث حديث .

وحين يهز ناصر السحيمان رأسه دلالة الموافقة ، ويحاول أن يجمع نفسه لكي ينهض وينفذ الامر ، يسأله السلطان :

- والالمان ، الخنازير ، قالوا لك : نقبله ، وتوافق على اقامته ، لكن بشرط : ما يشتغل بالسياسة ؟

ويهز ناصر رأسه للتأكيد ، فيهدر صوت السلطان :

- يخسون ، ما نريدهم ولا نريد ديرتهم .

وبعد قليل :

- لا هـم ولا غيرهم يقولون لنا شنهو اللي يلزم نسويه . حنا شورنا من راسنا ، ما هو مثل غيرنا . ونسوي اللي نريده .

ويخيم الصمت من جديد ، يصبح ثقيلاً مرهقاً ، فيحاول زيد أن يجد مخرجاً :

- نزوة شباب ، يا طويل العمر ، وتنقضي .

- فنر ما هو صغيّر يا زيد. فنر بعمري . وهذا اللي سواه ما هو بنزوة. جا من شار عليه ، وقال له تسوي كذا وكذا ، ولا بد يكون مستشاره ابو العيون الزرق والسنون الفرق ، ذاك الابليس الانكريزي . لكن ما يخالف ، إذا تواجهنا ، إذا بحّرت به لا بد واعرف كل شي . شنهو اللي قاله الاميركان

والانكريز، وشنهو الليل قالته الحريمات، ومن وزّه، ومن معه. بسيطة ، نتواجه ونشوف .

ـ ظني يا طويل العمر أن الندامة راح تاكل قلوبهم ، وباكر يزحفون طالبين التوبة والعفو .

ـ ما اريدهم ولا اريد توبتهم ، لأنّا من هذه الساعة قوم ، وغلطة مثل هذي ما تنصلح يا زيد ، يلزم يندفع عليها مخاضة دم وتتعلق روس ، حتى ما يعاودوها نوبة ثانية .

ويهز السلطان رأسه هزات طويلة متصلة ، وهو يستعرض كل شيء ، وحين يصل إلى نقطة يعتبرها حاسمة يصرخ :

ـ اتصل بالحكومة الالمانية يا ابن سحيمان ، وقل لها السلطان يريد يكلّم موران ، ولا بد أن يوصلونا بموران .

ـ حاولت ، يا طويل العمر ، حاولت بكل الوسائل . والغريب أن الحكومة الالمانية نفسها حاولت الاتصال بسفيرها بموران ، لكن ما حصّلوا جواب . الخطوط كلها مقطوعة ، وموران معزولة عن العالم الخارجي .

قال زيد ، وخرجت الكلمات من بين اسنانه :

ـ الله العليم أن الجماعة ابد ما سيطروا ، ولا بد تكون المقاومة مستمرة ، والناس حملوا سلاحهم ضد الفئة الباغية ودفاعاً عن العرش.

ـ الحق اللي تقوله يا زيد ، لأن القوي ما يخاف ، ولا يقطع التلفونات . . .

هكذا قال السلطان ، واضاف بعد قليل بنزق :

ـ وهذا الزق راديو أو تابوت ؟ ما به إلا يفحّ ويشخر ، وما ينفهم منه شي !

والتفت إلى ناصر السحيمان :

ـ ومتى اتصلت بموران آخر مرة ؟

ـ يوم وصولك ، يا طويل العمر . بعد اقلاع الطائرة اتصلوا وابلغوني أن طويل

العمر غادر موران ، متوجهاً إلى هنا .

- وكانوا يريدون امشي ؟

- ما ادري ، يا طويل العمر ، بس هم اتصلوا وقالوا : غادرت الطائرة .

- كانوا يريدون امشي ، أن اغيب عن وجوههم ، لأنهم جبناء ورعاديد ما يقدرون على شي وأنا موجود .

وساد الصمت من جديد .

سُمعت حركة خارج الغرفة . تنبهت الحواس . بدت عينا السلطان حمراوين وكبيرتين ، وكانت شفته العليا ترتجف . حين رأى أن العيون تعلقت به ، صرخ بوجه زيد :

- قم ، شف من .

قام زيد متعثراً . فتح الباب . وجد كبير الخدم ، الألماني ، ومعه اثنتان من الخادمات ، وبدا من الاشارات والحركات ان وقت تنظيف هذه الغرفة قد حان . عاد زيد . قال كلمات متعثرة ، فهمت أن لا شيء .

قال السلطان ليعيد الجو إلى ما كان عليه :

- دز برقية هالحين يا ابن سحيمان ، تقول : السلطان يطلب مجيء فنر فوراً ، وعليه التنفيذ .

وبعد قليل :

- وإذا تأخر ردهم ، تدز برقية ثانية ، تقول : السلطان راكب وماشي ، وهو واصلكم بين ساعة والثانية . وما يشوفوني الا فوق روسهم ، وإذا كان بهم خير أو بهم مرجلة ، خلهم يرمون الطيارة .

قال زيد في محاولة لأن يخفف من الهياج :

- الصباح رباح يا طويل العمر ، وظني انهم راح يندمون ويتوبون .

رد السلطان بحدة :

ـ اسمع يا زيد ، الجماعة ركبهم ابليس . قالوا لأرواحهم : راح وما يقدر يسوي شي . وحنا نقدر نسوي اللي نريده ما دام بعيد وغير موجود ، لكن إذا شافوني فوق روسهم، إذا عرفوا أن السلطان طبّ ووصل ، يصيرون مثل الارانب ، يسلحون على هدومهم ، وكل واحدمنهم يدوّر السلامة ويختبي بحجره.

والتفت إلى ناصر السحيمان ، وبلهجة آمرة :

ـ حضروا الطيارة من الفجر ، نعم ، حضروا الطيارة، لأن البني آدم يعيش بالدنيا نوبة واحدة ، وأريد اشوفهم إذا وصلت الطيارة، وإذا رموها بينّا حساب بالدنيا وبالآخرة .

بعد الكثير من الجهد والمشقة امكن اقناع السلطان أن الافضل والاقرب إلى الحكمة تأجيل الرحلة يوماً أو اثنين . وقد تعهد السفير أن يبرق إلى موران بالسرعة الكلية ليخبرها بكامل الأوامر، ويطلب مجيء فنر فوراً. وعلى ضوء الجواب يمكن أن يتصرف السلطان. أن يبقى هنا أو أن يعود إلى موران مباشرة.

لقد حصل الاتفاق على هذا الحل بعد الكثير من الجهد وفترات التفكير والصمت ، إضافة إلى محاولات اتصال مجددة مع موران . ثم مع السفارة . وقد طلب السفير من عنصر المناوبة في السفارة أن يبلغه بأي اتصال ، وفوراً ، خاصة إذا كان من موران ، وإلى قصر صاحب الجلالة في بادن بادن ، وفي أية ساعة من ساعات الليل والنهار ، وأن يطلب التحدث مباشرة مع السفير أو مع الشيخ زيد الهريدي.

في اليوم السابع وصل الدكتور صبحي المحملجي إلى بادن بادن . وصل قبل الظهر بقليل . بدا متعباً مريضاً ، حتى أن الذين فتحوا له بوابة القصر لم يعرفوه لأول وهلة . أما بعد ذلك ، وخلال فترة قصيرة ، فقد انتشر خبر وصوله بسرعة ، وترافق ذلك مع الكثير من الاخبار والتوقعات ، الامر الذي حمل اغلب الذين رافقوا السلطان ، وكانوا ينزلون في فندقين وسط المدينة ، على أن يتوجهوا إلى القصر ، انتظاراً لسماع الاخبار الجديدة ، بعد أن امتلأوا خوفاً وحيرة خلال الأيام السابقة ، لكن زيد الهريدي لم يسمح إلا لعدد محدود بالبقاء ، وطلب من الآخرين العودة .

وللمرة الثانية يأمر السلطان بتأجيل الزيارة التي كان يفترض أن يقوم بها أحد موظفي الخارجية الالمانية « لأن السلطان لن يكون قادراً على استقبال أحد ، نظراً لانحراف صحته » . أما موظفو السفارة الثلاثة الذين بقوا في بادن بادن ، وتحت تصرف صاحب الجلالة ، بعد أن اضطر السفير لمغادرة المدينة عائداً إلى بون « لاعمال طارئة ، ومن اجل إجراء مزيد من الاتصالات لاستجلاء الموقف » ، فقد طلب منهم ، بعد وصول الحكيم ، « أن يكونوا في حالة الجاهزية الكاملة ، لأن أوامر هامة سيصدرها السلطان ، وعليهم أن يقوموا بنقلها فوراً » . لكن ذلك اليوم انقضى ، وجاء بعده الليل ، وظلت انوار القصر مشعة حتى ساعة متأخرة ، دون أن يتغير شيء ، أو يظهر احد ، ولم تصدر الأوامر التي ظلت متوقعة في كل لحظة .

ضحى اليوم التالي ، شوهد السلطان والحكيم يتمشيان في الحديقة الخلفية للقصر . لأول مرة يشاهد السلطان بعد تلك الليلة . بدا هرماً متعباً،

وكأنه خارج لتوه من المرض . كان لا يتوقف عن هز رأسه ، دلالة أنه يسمع ويتابع . وبدا الحكيم منفعلاً حاداً وهو يتحدث . ظلا كذلك ساعة من الزمن ، ثم دخلا القصر . ولم تمض دقائق حتى استدعي زيد ، وطلب منه الاتصال بالسفير واستدعاؤه فوراً . وبعد اتصالات عديدة ، تخللها الانتظار والتشاور ، أوضح السفير أنه «لن يستطيع مغادرة بون بناء لتعليمات من موران ، وانه سيوفد نيابة عنه السكرتير الأول للسفارة . وسوف يحمله رسالة هامة» ورغم الاتصالات العديدة التي جرت لاحقاً، اشترك في أحدها الحكيم، فقد ظل جواب السفير واضحاً وقاطعاً :

- تعليمات موران ، يا جماعة الخير ، واضحة جداً . تقول التعليمات : لا تغادر بون إلى أي مكان ، حتى تصلك تعليمات جديدة.

واشار السفير ، بشكل غامض ، إلى أن من الافضل للجميع ، وأكد على الكلمة الأخيرة بالذات ، بقاءه في بون . وقد فهمت هذه الكلمة ، وفسرت ، بشكل متفائل ، الامر الذي جعل الحكيم يفكر ثم يقترح أن يسافر بنفسه إلى بون لاستقصاء المعلومات ، وليحمل بنفسه الاخبار الطيبة والهامة التي اشار إليها السفير بغموض .

بعد امعان تفكير وتردد ، قال السلطان بأسى وحدة :

- توكل على الله يا أبو غزوان ، بس لا تبطي .

استغرقت الرحلة يوماً وليلة . وحين عاد الحكيم قبل عصر اليوم التالي ، وقد رفض السلطان تناول الغداء مبكراً ، خلافاً لعادته ، « «لأن الحكيم بين لحظة والثانية يصل ونتغدى جميع » فلم يفكر السلطان، بعد عودة الحكيم بالغداء ، ولم يقترح عليه ذلك سوى مرة واحدة ، لكن بدا للجميع أن الامور تسير عكس التوقعات ، وإن كل شيء منتهٍ .

فالحكيم الذي قرر ، بينه وبين نفسه ، أن يطلب من السفير تقديم احتجاج ، والطلب من الحكومة الالمانية الاعتذار رسمياً ، لأنها تأخرت في منحه تأشيرة الدخول ، رغم أنه أوضح للسفارة الالمانية في بيروت صفته ،

والسبب الذي يسافر من أجله ، فقد اصرت السفارة انها لا تستطيع منحه التأشيرة قبل أن تحصل على موافقة بون ، مما اضطره للبقاء اسبوعاً كاملاً ينتظر . هكذا فكر الحكيم أن يبدأ . وقرر ايضاً أن يتصل بموران من السفارة مباشرة والتحدث الى الأمير فنر شخصياً. وقرر أن يكون واضحاً وحازماً معاً، وأن يبلغ السلطان بالأخبار والنتائج دون تأخير.

الآن ، وهو يعود ، دون أن يفعل أياً من هذه الامور ، كما لم يستطع أن يرد على استفسارات زيد الذي كان ينتظره عند البوابة الخارجية للقصر ، ولم يرفع عينيه إلى الحرس ، أو إلى الذين كانوا عند المحرس الداخلي يدخنون ويثرثرون ، وقد نهضوا بسرعة وارتباك حين رأوه ، وهم يرفعون ايديهم بحيوية ومعها اصواتهم : « الله يقويك ، يا ابو غزوان . القوة يا ابو غزوان » ، وكانوا يتطلعون إليه بإمعان في محاولة لاكتشاف النتائج حتى دون كلمات .

رد الحكيم على تحياتهم بسرعة ، بأن هز يده ، دون أن ترتفع إليهم نظراته . كان متأكداً ، تلك اللحظات ، أن قواه تخونه ، وأن وجهه يفضحه . أكثر من ذلك ، ظن أن الدموع لا بدأن تنفرمن عينيه . آثر أن يردّ هكذا ، وأن يهرول .

السلطان ، وهو يرى الحكيم داخلاً بذلك الشكل وبتلك الملامح ، ولأنه لم يتصل من بون، ادرك كل شيء . قال له بصوت تخنقه العبرة :

ـ تعال . . تعال استرح هنا ، يا ابو غزوان .

لم يكن يريده أن يتكلم ، أن يتحدث أمام سلمى وامها . كان يشعر بالحزن والضعف في آن واحد . وكان يحاول تغليف حزنه وضعفه بالصمت ، أو بتلك الثورات المفاجئة ، وهو يأمر بالقهوة ، بالماء ، أو بمجيء أحد من رجاله .

كانت الأيام الأولى قاسية إلى درجة الألم ، وكانت حزينة وطويلة ، وأن ظل يشوبها التوقع والامل . أما بعد أن جاء الحكيم ، وبعد أن سافر إلى بون وعاد ، فقد اصبح الألم قهراً والحزن يأساً . ومما زاد الخوف والتشاؤم أن سرى الهمس ، ولا يعرف كيف تسرب ، إن كل من هو مع السلطان سينال من

العقاب اقله السجن مدى الحياة ، وإلى أن يعود سيكون اهله واقاربه رهائن في موران .

ورغم أن مراهنات كثيرة ، وبأموال طائلة ، جرت بين نزلاء الفندقين ، حول احتمالات أو أخرى ، واضطر عدد من هؤلاء إلى « استئجار » مترجمين ، غير الذين خصصوا من السفارة ، لمعرفة آخر الاخبار ، سواء بترجمة اخبار الصحف والاذاعات ، أو باعطائهم ارقام الهواتف في موران لكي يتصلوا ويعرفوا من الاهل والاقارب ، وليتأكدوا فقط انهم لا يزالون احياء وفي بيوتهم ، فإن الاشاعات والدسائس والاخبار التي انتشرت بين نزلاء الفندقين ، ما لبثت أن انتقلت إلى القصر، فخلقت تشويشاً إضافياً ، وزادت الحيرة والترقب والخوف .

حاولت أم غزوان، بمكر واضح، أن تحمل الحكيم على الكلام، لكن محاولاتها انتهت إلى الفشل، لأن السلطان كان يقرأ في الصمت، وفي الملامح، ما لا يمكن أن تقوله الكلمات، ولذلك كان فظّاً قاسياً حين طلب مغادرة النساء. قال بحزم:

ـ اتركوه يا جماعة الخير . خلوا عرقه ينشف .

وبعد قليل :

ـ ضاقت ارواحنا من السوالف ، ومن القيل والقال ، فاتركونا يرحم والديكم .

حين خرجت أم غزوان ، وكانت الأخيرة التي تخرج ، قال الحكيم :

ـ . . . ومثل ما قلت لك، يا طويل العمر: الجماعة راكبين روسهم وما هم مصلين على النبي، حاولت معهم، لكن لا حياة لمن تنادي. فنر رفض الكلام. حماد لما عرف صوتي ارتبك. أما مطيع فقال: بعدين بعدين يا خالي.

وبعد قليل :

ـ هذي الشغلة ما هي شغلتهم ، لاْ بد من قال لهم .

- هذا اللي قلته من أول ساعة ، يا أبو غزوان . لا بد أحد وزهم . وهذا الانكريزي اللي حميناه وعطيناه ، مثل ذنب الكلب ، نجس واعوج ، والحق عليّ ، بدل ما اقصّبه واخليه عبرة ، قلت له : انطح فالك يا ولد ، دور لك ديرة غير هذي الديرة ، وما نسيها ، ظل يداور ويحاول ، حتى اقنعهم ، وسووا اللي صار .

- يا ابو مشعل ، يا طويل العمر ، المسألة ما عادت تحتمل ، ولا يمكن السكوت . . . .

- بس علمنا باللي صار واللي جرى ، يا ابو غزوان .

- العلوم كلها ما عاد منها فايدة يا صاحب الجلالة . الآن ، المطلوب الموقف ، الحزم . وإذا بدأنا نحلل ونتفلسف تراها راحت علينا .

- يا أبو غزوان ، يا ابن الحلال ، علمنا شنهو اللي صار معك . وبعدما نسمع نتداش شنهو اللي يلزم نسويه .

- يا صاحب الجلالة : حنا بواد والدنيا بواد ثاني . . .

وبعد قليل :

- السفير محرج وخائف ، صحيح أن عواطفه معنا ، ويريد أن يساعد ، لكن الجماعة هناك ما هي فارقة معهم ، وقد حرقوا كل الجسور ، ولذلك يجب أن لا نتوقع نتائج من أي نوع عن طريقهم . لن يسمعوا ولن يفهموا ، وليس بيننا وبينهم سوى السيف !

قال السلطان بعصبية :

- ما يخالف ، اللي تقوله صحيح ، يا أبو غزوان ، بس يلزمنا نعرف شنهو اللي جرى بينك وبين ابن سحيمان .

- اطلعني السفير ، يا صاحب الجلالة ، على برقية . البرقية تقول : بلغ السلطان السابق أنه إذا اراد أن يبقى اخاً وموضع تقدير ، وأن يعيش ، فيجب أن ينسى الماضي ، وأن الاجراءات التي اتخذت كانت ضرورية

للحفاظ على السلطنة وعلينا جميعاً . يجب عليه أن يفهم هذا الشيء ، وإذا اخطأ أو اغتر فلا بد أن تنعكس النتائج على الجميع ، وإلى اضرار لا تترك شيئاً ولا ترحم احداً .

تنفس الحكيم ملء رئتيه وتابع :

ـ وتقول البرقية : ابلغوا السلطان السابق أن مصاريف اقامته ، واية مبالغ يحتاجها ، يمكن تأمينها بشرط : أن يصمت ، وينسى أنه كان السلطان . . .

وزفر وهو يهز رأسه بلوعة ثم اضاف :

ـ وقالت البرقية ، وقد خبأ السفير بعض الفقرات : إذا كان له رأي آخر فلنا رأي آخر ،ولا بد أن يعرف .

مع الكلمات الأخيرة اخذت دموع السلطان تنحدر على خديه ولحيته . كان يبكي بصمت . لم يحاول أن يخفي دموعه . والحكيم الذي فوجىء، للحظة، وجد نفسه ، دون ارادة ، يجهش بالبكاء ايضاً . بدأ صوته اقرب إلى المواء ، ثم تحول إلى نحيب ، وكأنه يختزن ، منذ وقت طويل ، دموعاً تفوق طاقته على الاحتمال .

لم تصدق وداد اذنيها ، دهمتها المفاجأة فارتبكت . أما حين شقت الباب قليلاً ، ورأت الحكيم يضرب رأسه ويبكي ، وكان يجلس قبالة السلطان ، فقد خافت . اغلقت الباب بسرعة، وهربت .

واخذ القصر يغرق في الصمت والعزلة ، وكثيراً ما غرق في الظلام ايضاً . فالانوار لا توقد إلا في وقت متأخر ، ولا تطفأ حتى بعد أن تملأ اضواء الشمس الكون كله ، لأن لا أحد يفطن إلى ذلك ، أو لديه الرغبة في أن يفعل .

واكثر الناس حيرة وعذاباً ، فلا يعرف كيف يتصرف أو كيف يرد على الاسئلة والنظرات ، هو زيد الهريدي . فالمرافقون والاقرباء والحرس يتدفقون على القصر، وبدل أن يستفسروا يحملون الأخبار والتعليقات والخوف، حتى اصبح من الصعب التحكم بهم أو ضبطهم . أكثر من ذلك بدأت تعليقاتهم تتجاوز التساؤل إلى السخرية والتعريض .

زيد الذي كان قوياً مرهوباً ، وتكفي نظرة منه ، أو اشارة ، لأن تحمل أي انسان على السكوت ، لم يعد قادراً على وضع حد للهرج والفوضى اللذين يزيدان كل يوم .

مقابل الصمت الذي خيم على القصر ، بلغ الاضطراب في الفندقين حداً زاد على كل تصور. فالنزاعات بين النزلاء أنفسهم لا تتوقف ولا تهدأ. والنزاعات بين هؤلاء والادارتين تزداد وتتعقد يوماً بعد آخر . والمترجمون الذين كانوا يسهلون الحركة والتفاهم بين الطرفين تواروا ، أو لم يعودوا قادرين على القيام بمهمتهم ، لأنهم اصبحوا عاجزين عن التفاهم مع أي من الطرفين . أما موظفو السفارة الثلاثة، فقد جاءوا إلى القصر وأبلغوا زيداً الهريدي أن اثنين منهم سوف يغادران إلى بون، تلبيةً لتعليمات من السفارة ، وأن الثالث سيبقى .

وإذا كان السفير، ثم الثلاثة، قد عجزوا عن تقديم المساعدة المطلوبة خلال الأيام الماضية، فقد رد زيد على الطلب الجديد بكثير من السخرية :

- بعون الله وبعونكم شفنا كل خير، وتأمن لنا كل شي . وهالحين يلزم أن الواحد منكم يستريح مثل ما استراح السفير!

وضحك وهو يهز رأسه، ثم اضاف :

- أنتم ناس شوركم ما هو من روسكم، أنتم عبيد مأمورين، ومثل ما قالوا: اللي ياكل من تمرهم يقوم بأمرهم، فيلزم، هالحين تدّورون أهلكم!

موظف الخارجية الذي اجّلت زيارته إلى القصر للمرة الثالثة، بحجة انحراف صحة السلطان، وصل فجأة في اليوم الرابع لعودة الحكيم من بون . استمرت زيارته عشرين دقيقة، ولم يعرف ما إذا قابل السلطان أم لا، كما لم يتسرب أي خبر عما دار اثناء هذه الزيارة، ومع ذلك لم يبق أحد إلا ورأى الحكيم يودعه عند بوابة القصر الخارجية، كان يهز رأسه دلالة الفهم ومتابعة ما يقوله . وحين غادر قفل الحكيم عائداً إلى القصر دون أن يكلم احداً، حتى زيد الذي وقف عند بوابة الحرس وحياه اثناء عودته، فقد رد عليه الحكيم باختصار وسرعة . قال زيد لنفسه : « إذا كان الغراب دليل قوم . . . » ومرت في مخيلته صور الحكيم منذ لحظة التعارف الأولى في حران وحتى هذه اللحظة، قال بهمس، وهو يبتسم : « إذا ظل ورانا ما راح تطول خطانا، لأن من ورا شوره ما جاتنا إلا المصايب » .

دبت الحركة مبكراً، وبشكل مفاجىء، في القصر، صباح اليوم التالي . تمشى الحكيم في الحديقة الامامية . توقف عند بعض الشجيرات، تمعن بها، ثم فجأة، وكأن الفكرة واتته في اللحظة، توجه الى المبنى الجانبي الذي يقيم فيه زيد الهريدي، ولم يمكث أكثر من دقائق، خرج الاثنان بعدها وتجولا في الحديقة. كان الحكيم يتحدث ويستعين بيديه، وزيد يهز رأسه دلالة الفهم والموافقة. ولم تمض نصف ساعة حتى افترقا. توجه الحكيم إلى داخل القصر، وزيد إلى المبنى الجانبي، وبعد دقائق انطلقت إحدى السيارات لاحضار بدري المدلل من الفندق.

من يعرف بدري المدلل، ويمعن إليه النظر الآن ، لا يتصور أن عشرة أيام يمكن أن تغير انساناً بهذا القدر . فالبدلة الطحينية التي يرتديها تبدو واسعة جداً ، وكأنها لشخص آخر ، أكبر واضخم ، والحقيبة اليدوية التي يحملها تجعل كتفه الايسر يميل تحت ثقلها ، أما تعابير وجهه ولون بشرته فانهما يدلان على التعب والهم ، أو مثل انسان خرج لتوه من مرض.

هذا التغير حلّ ببدري منذ لحظة وصوله إلى المانيا . فالثقة التي ملأته أن يكون اقرب الناس إلى السلطان ، وأن ينزل معه في نفس القصر ، ما لبثت أن تبددت، إذ طلب منه أن يصعد إلى الباص مع آخرين لكي يتوجه إلى الفندق. وعندما تردد وابدى ممانعة ، أبلغ أن كل شيء معدّ سلفاً ، حسب القوائم ، ولا مجال لاي تغيير . تـرافق هذا مع غمزات وتعليقات من بعض المرافقين الذين سمعوه في الطائرة يؤكد بصوت عالٍ أن غرفته ستكون إلى جانب غرفة السلطان مباشرة !

وزاد في هذا التغير العارض الصحي الذي اتعبه وأقعده، وعندما ابلّ قليلاً جاءت الاخبار الغامضة والمشوشة لتجعله اقرب إلى الانهيار . فقد أصبح على يقين أنه لن تتاح له فرصة العودة الى موران، وأن زوجته وابنه مصباح لن يستطيعا شيئاً أثناء غيابه أو بدونه . أما الأموال التي جمعها، فقد اصبحت في الارض والحجارة ، إذ اشترى أكثر من ارض ، واقام أكثر من بناء ، وتراكمت عليه الديون ، فلا يعرف كيف يعالج الموضوع بعد أن اصبح بعيداً ، وبعد أن كان مقدراً الحصول على عطايا كثيرة في هذه الرحلة . الآن ، وهو يصل القصر ، يبدو مرتبكاً ، اقرب إلى الخوف . تطلع بإمعان إلى كل شيء لعله يفهم ما لم يستطع فهمه من ثرثرة الذين حوله في الفندق ، وسخريتهم ومخاوفهم . تخيل السلطان حزيناً مهموماً ، كما كان في فترات سابقة . انقبض صدره وامتلأ بالحزن فقرأ آية الكرسي .

انفتح الباب فجأة ودخل الحكيم . تطلع إليه للحظة خاطفة ، ثم هجم عليه . عانقه بكثير من المودة. دفن رأسه في صدره ، عند الكتف واطال ، وكأنه لا يريد أن تلتقي نظراته بنظرات بدري . ارتجف قلب بدري واحس

بمودة حقيقية تجاه الحكيم. لام نفسه أنه أساء الظن به إلى هذه الدرجة. قال في نفسه: «لا تعرف حقيقة الناس إلا في الغربة، أو عند المصائب».

قال له الحكيم ، وخرج صوته مرتجفاً :

ـ ما غبت عن بالي لحظة واحدة ، يا ابو مصباح .

تمتم بدري بكلمات مرتبكة ليعبر عن شكره . لم يمهله الحكيم :

ـ وفي الأول والأخير الناس لبعضها ، يا أبو مصباح ، والبني آدم ما ينعرف إلا بالتجربة .

وليداري أبو مصباح خجله، ويخلص من هذا المديح الفضفاض، سأل بهمس :

ـ شو آخر الاخبار يا ابو غزوان ؟

عدل الحكيم جلسته ، تلفت ، ثم قال بصوت اراده صلباً :

ـ غيمة صيف ، يا ابو مصباح ، لا تطول ولا تمطر .

وضحك بمرح ، وهز رأسه اكثر من مرة ، ثم تابع :

ـ طيش شباب ، ولازم حدا لعب بعقولهم وقال لهم : استغلوا غيبة السلطان ، لكنها كم يوم وتنتهي على خير .

ـ الله يبشرك بالخير يا ابو غزوان .

ـ لا . . اطمئن من هذي الناحية ، يا ابو مصباح .

ـ وانشاء الله ما راح تطول اقامتنا هون ، يا ابو غزوان ؟

ـ بس يأمر صاحب الجلالة نركب ونمشي ، لأننا دائماً جاهزين وحسب اوامره .

ابتسم الحكيم وهز رأسه عدة مرات ، تطلع إلى بدري المدلل ليقرأ على وجهه مدى الاقتناع ، فلما رأه اقرب إلى الاطمئنان ، قال بلهجة متآمرة :

ـ تتذكر أول وصولك لموران يا ابو مصباح . . . .

وبعد قليل :

- انت اللي أعطيت للسلطان الشخصية والوجه ، وانت اللي غيّرت منظره من خلال لمساتك الفنية وعنايتك، لأنه قبل وصولك تعرف كيف كانت الامور . . .

هز بدري المدلل رأسه بكبرياء وقد تذكر . تابع الحكيم :

- المطلوب منك ، يا ابو مصباح ، اليوم ، اكثر مما كان مطلوب من قبل !

وتغيرت اللهجة ، اصبحت اكثر تآمراً :

- لازم نخلق منه صورة لا تغيب عن البال ابداً : القوة ، الشباب ، الحيوية . ولازم ، بمجرد النظر إلى صورته ، يولد في القلب الخوف والاحترام والهيبة .

بعد هذا التوضيح ، والذي تخلله ايضاً بعض الذكريات ، واهمية أن تظهر هذه الصورة بسرعة وقوة ، ادخل بدري المدلل إلى غرفة السلطان .

لم يتخيل بدري الاختلاف إلى حدّ الانكار إلا وهو يرى السلطان : بدا مسناً متعباً ، بل اقرب إلى المرض . ولما حاول الابتسام ظهر وجهه قبيحاً إلى درجة لا يمكن معها اجراء أي اصلاح . وحين هجم ليقبل يده سحبها السلطان بجفلة اقرب إلى الخوف .

كان الصمت موجعاً ، ولم تكن أية كلمة قادرة على تبديده . وعندما فتح بدري حقيبته ، وبدأ يعد ادواته ، كانت الاصوات الصادرة عنها تشبه اصطدام الاواني الفارغة .

بالاضافة إلى رخاوة الجلد ، وقد اصبح مثل كيس اللبن ، فقد انتابت السلطان ارتجافات عصبية في الوجنة اليسرى، قريباً من العين، الامر الذي جعل الحلاقة صعبة إلى اقصى حد ، وجعل بدري المدلل في حالة من الخوف اقرب إلى الهلع . فهذه الحركات العصبية ، وهي على شكل تشنجات مفاجئة ، كادت تؤدي إلى اخطاء لا يمكن تداركها .

قال الحكيم ، في محاولة لكي يسيطر على الموقف ويطمئن الاثنين :

ـ هذه التقلصات في الوجه تشبه حزقة البلعوم أو المري ، انها طارئة ، وغالباً ما تكون نتيجة اضطرابات هضمية ، أو بسبب الطقس .

وبكثير من الجهد حاول أن يضفي جوّاً من المرح ، فأكد أن الحلاقة والحمام والنوم تجدد الانسان وتنشطه ، وأنه يحس بولادة جديدة بعد كل حلاقة ، وبعد كل حمام !

حين انتهى بدري المدلل ، وتطلع إلى السلطان مواجهة ، ثم تطلع إليه في المرآة، بدا له كالدمية : فالبقع الحمراء في رقبته ظاهرة، وشارباه أصبحا دقيقيـن رفيعين بشكل غير مألوف ، بل ويثيران الضحك ، قياسا إلى ما كانا عليه . أما الشعرات البيض في لحيته فلم يستطع أن يمد يده إليها ، لأن وضع السلطان النفسي ، وارتجافات الوجنة ، لم يساعداه !

قال الحكيم بطريقة تقريرية صلبة :

ـ المساج اليومي ضروري لوجه صاحب الجلالة .

لم تنقض ساعة حتى امتلأ الصالون الكبير للقصر ، في الطابق السفلي ، بابرز الشخصيات التي رافقت صاحب الجلالة في رحلته. وصل حوالى عشرين من هؤلاء . وخلال فترة انتظارهم للسلطان كانوا ، بصمت ، يقلبون أنظارهم في أنحاء القصر، وفي وجوه بعضهم بعضاً، يقرأون ويتساءلون عن سر هذه الدعوة، وماذا يمكن أن يقال أو أن يحصل.

حين دخل السلطان ، وكان وراءه الحكيم وزيد الهرَيدي، حاول أن يتصرف بمرح : رسم على شفتيه ابتسامة كبيرة ، لكنها بدت اقرب إلى التكشير . أما وهو يتطلع إلى الوجوه ، ويسأل عن الرأي بالزيارة والمانيا ، فكان مظهره يثير الاستغراب والحزن ، فقد تغير تغيراً كبيراً ، وبدا للجميع مريضاً ومتعباً . أما الوصايا التي اكد عليها الحكيم عدة مرات ، بأن يتصرف تماماً كما كان يفعل في عيد الجلوس ، فقد نسيها ، إذ ما كادت دقائق قليلة تمضي حتى خيم صمت قاس اقرب إلى صمت المآتم .

تنحنح الحكيم أكثر من مرة لينبه السلطان ، فلما انتبه ارتجفت وجنته

ارتجافة عصبية زادته ارتباكاً، وأثار خوف الذين نظروا إليه وتساؤلهم.

تطلع إلى الارض بامعان ، وكأنه يبحث عن شيء ، وخرج صوته مرتجفاً :

- لا بد وانكم سمعتم أن اشياء واشياء صارت بموران بعد ما تركناها . وهذا الحكيم ، أبو غزوان ، كان هناك ، وراح يسولف لكم عن اللي صار واللي جرى .

عدل الحكيم جلسته ، تنحنح ، ثم اخرج ورقة من جيبه وبدأ يقرأ :

- «لم يكد صاحب الجلالة يغادر موران حتى سوّلت للبعض نفوسهم المريضة الاصطياد في الماء العكر والتآمر تحت جنح الظلام ، فاستغلت هذه الفئة القليلة جهل عدد محدود جداً من العسكريين واغرتهم بالوعود الكاذبة والامال الموهومة لكي يقفوا معها ، لكن يقظه الشعب وتماسك الاسرة السلطانية والتفاف الجيش حول صاحب الجلالة لا بد وان يفوت على الغادرين غدرهم وعلى الحاقدين حقدهم ، ولا بد أن ترتد السهام إلى نحور الذين أطلقوها.

« ايها الاخوة الكرام : تعرفون أن صاحب الجلالة السلطان خزعل تمت تسميته من قبل المغفور له السلطان خريبط ، وانا على ذلك شهيد ، ثم تمت مبايعته من قبل الامراء جميعاً ، وهذه التسمية والبيعة دين في رقبة كل مسلم ، لا يمكن أن تنقض ولا يمكن أن تخان كما لا يمكن أن تسحب إلا عن طريق الشرع . أما إذا تصور البعض انه بغياب السلطان توضع اليد فلا بد أن يحارب ويقهر . وإذا تصور غيرهم أن التراجع عن البيعة سهل ميسور فإن دمه مباح مهدور لانه مرتد ومغرور . وإذا تصور البعض أن الدول تبنى بالرغبات والشهوات فلا بد أن يلقم حجراً ، لأن الدول لا تعترف إلا بالشرع والشرعية ، ولا تتعامل إلا حسب الاعراف والتقاليد . وعليه فإن جميع ما حصل ، من قيام هذه الفئة القليلة الباغية ، وادعاءاتها ومزاعمها ، لا يعتد به ، ولا يساوي قلامة ظفر ، كما لا يغير شيئاً . فما دام السلطان حياً وقادراً ، فإن البيعة باقية ، والسلطة ، بعد الله ، له وحده ، وكل تصرف يخالف ذلك ، ومن أي شخص ، يؤدي إلى هدر دمه . وصاحب الجلالة ، بما عرف عنه من أبوّة

وصبر وبعد نظر ، والذي رعى الجميع أمام الله وضميره ، إذا لم يتحرك ، ولم يلجأ إلى القوة ، حقناً للدماء ، فإن للصبر حدوداً ، وللتسامح حدوداً ، وللرحمة حدوداً . وقد أعذر من أنذر ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . » .

كان هذا أقصى ما يستطيع الحكيم أن يقوله . ورغم أن ما قيل لا يرضي احدا ، ولا يشفي غلا ، فقد كان كل من في القاعة مرتبكاً . لكن ذلك لم يستمر طويلاً ، إذ اندفع الموجودون ، واحداً بعد آخر إلى الوعيد والتهديد ، مع التأكيد أن ما حصل لا يمكن السكوت عليه أو التساهل فيه ، « وإذا أمر صاحب الجلالة نمشي من ساعتنا ، وما تأخذنا في الحق رحمة أو لومة لائم ، نحاربهم ونعلق روسهم » . والحكيم الذي انفعل بهذا الجو تولى الرد نيابة عن السلطان ، قال ، وخرج صوته مرتجفاً :

ـ كنتم دايما ، أيها الاخوة ، عند حسن ظن صاحب الجلالة وموضع ثقته ، ووجودكم هنا أكبر دليل على ذلك . وأنتم تعرفون أن للظلم جولة وللحق جولات ، وعلى الباغي تدور الدوائر .

تنفس ملء رئتيه ، تطلع إلى السلطان يستأذنه أن يواصل في هذا المنحى ، هز السلطان رأسه بالموافقة والرضا ، تابع الحكيم :

ـ نعم ، لا يمكن السكوت عما حصل ، لكن من رأي صاحب الجلالة ، وفي هذه الفترة بالذات ، أن ننتظر قليلاً ، وأن نعطيهم الفرصة الأخيرة ، خاصة وأن الاتصالات جارية حالياً ، لعلهم يعودون إلى رشدهم ، ويتراجعون عن غيهم . أما إذا ركبوا رؤوسهم ، واستمروا على عنادهم فليس بيننا وبينهم سوى السيف حكم .

قال السلطان بانفعال :

ـ الحق اللي تقوله يا ابو غزوان .

وحين بدأت التهديدات تتوالى من جديد ، تبادل والحكيم النظرات ، وكأنها اشعار بانتهاء الاجتماع . تحرك السلطان في مقعده ، كما لو انه باب

حجري يدور ، وما كاد ينهض حتى ارتجفت عضلة الوجنة ، ارتبك ، وبعد قليل ، وخرج صوته من بين اسنانه :

ـ تهون يا جماعة الخير ، ولا بد تشوفونهم شلون راح يندمون .

قال زيد الهريدي للضيوف بعد أن انسحب السلطان :

ـ يا جماعة الخير . . . طويل العمر ما والمته هذي الديرة . من يوم وصولنا انحرفت صحته ، ولولا هذا السبب كنتم تشوفون غير اللي شفتوه هالحين .

ولما التفت الرجال بعضهم إلى بعض ، وكانت عيونهم مليئة بالتساؤل والخوف والهم ، قال الحكيم ، وكان صوته أقرب إلى النشيد :

ـ وان غداً لناظره قريب .

قال زيد بسخرية :

ـ مثل ما قال الحكيم ، يا جماعة الخير ، لازم نطول بالنا ، ومن اليوم لباكر الله كريم .

كإلهام مفـاجىء رنت الكلمة التي قـالها غـزوان قبل فتـرة طويلة في أذني الحكيم من جديد : «الحرب أخطر من أن يقرر أمرها العسكريون ».

وتراءت للحكيم الحرب التي يمكن أن تدور اكبر واخطر مما قد تبدو في الظاهر ، إذ لا تقتصر على عدد من الدبابات أو على مجموعة من المهووسين ، كما لا يمكن أن تحسم في يوم أو اثنين ، فهي تتطلب الاستعداد وتتطلب اساليب جديدة « اساليب غير مطروقة . » .

هكذا قال لنفسه وقد شعر ببعض الراحة ، واضاف وهو يتنهد : « صحيح اننا خسرنا معركة لكننا لم نخسر الحرب » . رفع يديه إلى اعلى ، مثلما يفعل عادة ، وجـرّ نفسين عميقين . حاول أن يبتسم ، لم يطاوعه فكاه ، بل وشعر بمرارة في حلقه .

قال لنفسه بحدة : « الوقت كالسيف » وقرر أن يتحرك :

ـ اسمع يا سمير ، انت مثل ابني غزوان ، ونحن عملنا معاً واصبحنا نعرف بعضنا جيداً . والآن نواجه نفس الصعوبات والتحديات. . .

نظر إليه بحزن ، هز رأسه اكثر من مرة وتابع بنفس اللهجة :

ـ لقد تشاورت مطولاً مع جلالته، وبعد المشاورات أعطاني الضوء الأخضر وفوضني أن نفعل كل ما نراه مناسباً لصالح القضية.

وتغيرت اللهجة :

ـ اريدك ، يا سمير ، أن تعطيني نفسك ، أن تكون ساعدي ومساعدي ، لأن

الامر ، في النهاية ، يعتمد على ما سنفعله . . .

وعاد إلى اللهجة الأولى :

- وانت تعرف أن القضية الآن ، وفي مراحل كثيرة لاحقة ، تعتمد على الفكر : كيف يمكن أن نقنع الناس بصحة وعدالة موقفنا ، وكيف نخرج من هذا الموقف . ومن هنا أهميتنا وضرورة تعاوننا .

لم يكن سمير بحاجة إلى هذه الديباجة ، ولم يكن بحاجة إلى تذكيره بأهميته وصعوبة الظرف الذي يواجه الجميع . قال بطريقة اختبارية ماكرة :

- المسألة ، يا ابو غزوان ، بين اخوة . وانا وانت غرباء ، مجرد ضيوف في موران ، والانسب أن نبقى بعيدين !

- لا . . لا يا سمير ، المسألة مسألة مبدأ ، مسألة حق وعدالة ، ونحن اصحاب القضية . . ونخطىء إذا ترددنا أو تخلينا .

- لكن هم اسرة يا حكيم .

- ونحن من الاسرة !

هكذا رد الحكيم بانفعال وسرعة ، لم يكن ليقصد المعنى المباشر للكلمة ، وحين رأى ابتسامة سمير تابع ببعض الحرج :

- قصدي أن القضية أكبر من الأسرة وأخطر، ومطلوب من كل انسان أن يحدد موقفه.

- وأيه فائدة موقف واحد مثلي يا حكيم ؟ .

- نحن الاساس يا سمير ، لأنه إذا صَفَت قلوبنا ، وإذا تضامنا وفكرنا بما يجب أن يُعمل فنحن أقوى من الدبابات وأكثر تأثيراً من الجيوش !

- انت متفائل قوي يا حكيم!

- وبعد قليل وهو يضحك :

- في هذا العصر يا حكيم الذي يملك اموالاً أكثر ودبابات أكثر هو الاقوى ،

وكل قوة اخرى في مواجهة المال والسلاح مجرد وهم ، فلا تغلط .

ـ يا ابني ، يا سمير ، مسألة المال لا تخف ولا تسل ، خير الله كثير ، والدبابات بدون عقل ، بدون فكر يوجهها تنقلب على اصحابها .

تنفس بهّم وكأنه يبحث عن طريقة جديدة لإقناعه:

ـ مثلما قلت لك يا سمير : اعطني نفسك ، ووظف الفسفور الموجود في دماغك للقضية وسوف ترى النتائج وتفاجأ بها .

ابتسم سمير وسأل بدعابة :

ـ « ونسر موران » اللي بقى لنا مدة نشتغل فيه ؟

ـ يمكن تأجيله لفترة ، لأن لدينا واجبات عاجلة .

لم تطل المناقشة . اتفقا على أن يجريا مناقشات عميقة وواسعة ، بعد أن يعدّ الحكيم ورقة عمل تكون أساساً لهـذه المناقشـات، وأن يفكر كـل منهما بالطريقة المناسبة والفعالة لمواجهة الموقف الجديد.

قال سمير وكأنه يخاطب نفسه ، ولكن يريد الحكيم أن يسمع :

ـ نحن اخطأنا في قضية اساسية : لو أن الجهود كلها انصبت وتركزت خلال الفترة الماضية على انجاز نظرية المربع لما حصل ما حصل .

هز الحكيم رأسه بلوعة ، ونظر بطرف عينه إلى سمير ليقرأ في وجهه ما إذا كان يعني الكلمات التي قالها أم لا . لما وجده جاداً حازماً ، قال بصوت مرتجف :

ـ اولاد الحرام ما تركوا لنا فرصة حتى نحكّ روسنا . كل يوم فتنة ، وكل يوم مؤامرة ، وتعال في مثل تلك الظروف فكر واشتغل.

وضحك بسخرية ثم اضاف :

ـ عند أهل موران مثل يقول : إذا جن قومك عقلك ما ينفعك ، وهذا اللي صار معنا يا سمير . . قلنا لحالنا الأيام تعلمهم وتهديهم ، فتركناهم شوية وصار اللي صار !

الاجتماعات لا تهدأ ولا تتوقف ، في الليل والنهار. وزيد الهريدي الذي يرتب ويتصل ويشرف يحضر بعض هذه الاجتماعات ، ولا يحضر الاخرى ، لأن لديه دائماً ما يفعله . أما السلطان الذي يتفجر غضباً في بعض الساعات ، ويقرر أن « يركب ويمشي فوراً » ، فلا يلبث أن يصاب بالهبوط ، إذ يطلب الغاء الاجتماع أو تأجيله ، ودائماً الحجة موجودة لدى زيد : « انحرفت صحة طويل العمر » ثم فجأة يعود ويطلب مجيء فلان وفلان من الذين رافقوه للتشاور . والحكيم الذي لا يقيم وزناً لهذه « العراضات » كما سمى الاجتماعات ، « لأن مركز الثقل انتقل من الداخل إلى الخارج ، ولان الذي سيحسم الموقف القوى الكبرى وليست سوالف هؤلاء المفاليس الكسالى والعاجزين». ويعجب الحكيم كيف أنه لم يتوقف عند هذه الفكرة الذكية التي قالها غزوان من قبل، وكيف أنه انشغل بقضايا صغيرة وثانوية، مثل غرفة التجارة والعجرمي واشباهه !

وحين تتبدى له من جديد صور هؤلاء الذين خدعوه أو تخلوا عنه ، يخرج صوته كالصرير من بين اسنانه :

اعلّمه الرماية كل يوم   فلما اشتد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي   فلما قال قافية هجاني

وتتمطى صورة حماد. تملأ مخيلته تماماً. يقول في نفسه: «ابن الزانية من نكرة لا يعرفه أحد إلى وزير داخلية عدو . من مجرد صعلوك ورجل ليل ، وصاحب المهمات القذرة ، ومعروف أن اذنه في يد النّخّاس دامية، إلى إنسان خلقناه وناسبناه ، وبعدين هذا جزاك يا ابو غزوان ؟ «خلال اربع وعشرين ساعة يجب أن تغادر موران . صارت موران مورانه ، وطلعنا نحن الغرباء . أي والله الحق معك يا حماد ، والله يكثر خيرك ويكثر من امثالك ، لأنك رددت الجميل بأحسن منه . كانت المياه جارية تحتنا ، ونحن يا غافل لك الله ، والبهايم اللي حوالينا لا من تمهم ولا من كمهم . ولا ابن حلال جاء وقال : انتبه يا ابو غزوان ، الجماعة حواليك مالهم شغلة الا يتآمروا عليك . وأنا من طيبة قلبي ، من ثقتي بالناس، شغلتني أمور ثانية، لكن بسيطة، المؤمن لا يلدغ من جُحر مرتين، والله، والله لأصير معهم أقسى من الحجاج

مع أهل العراق، ولأجعلهم عبرة للأحياء والأموات، بس الأول لازم اركب. إذا ركبت الله كريم، ونشوف».

ولا يقطع عليه افكاره الا هؤلاء البدو الذين يتدفقون على القصر ، وإذا كان قد استأذن السلطان أن لا يحضر بعض الاجتماعات ، لانه سينصرف إلى اعداد بيان قوي يـذاع على العالم حول الاحداث الأخيرة في موران، فإن السلطان لم يلحّ عليه ، إذ ترك له الحرية وبعض الاحيان كان يفضل الا يكون موجوداً!

وتتوالى الاجتماعـات في القصر وتتـزايد معهـا الخلافـات والتهديـدات في الفندقين ، وتعزل ادارة الفندقين ، الواحدة بعد الأخرى ، لكن بالتشاور والاتفاق بينهما بكل تأكيد «هؤلاء الرعاع القذرين» في المقهى الخلفي ، القريب من البار ، بدل الصالات الامامية ، «لأن الزبائن الآخرين ضاقوا من الاصوات العالية ومن اشارات المجانين ، إضافة إلى القذارة» ويضيف المترجم الذي يرافق مندوب السفارة ، وهما يحدثان زيد الهريدي:

- وإذا استمرت الامور بهذا الشكل باكر يرمون هدوم الجماعة في الشوارع وتصير مشكلة.

فيرد زيد بحنق :

- يا عباد الله الواحد منهم بعمر أبوي فشنهو بلاهم يتصايحون ويتعاركون؟

- جماعتكم وانتم ادرى بهم !

هكذا رد مندوب السفارة، وكان في كلامه تعريض لا يخفى. ابتسم زيد وقال:

- الحق حق، يا وليدي، جماعتنا وحنـا أدرى بهم، وانشاء الله مـا يصير إلا الخير!

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته، اصبحت ساخرة تماماً :

- وانت يا وليدي ، جماعتك ما يبوك ؟ ما دزوا وراك ؟

- تقصد السفارة ؟

- كل واحد يدري بجماعته !

قال المترجم ليغير الجو :

ـ ومن رأيي أن تتدخلوا، أن تنبهوا عليهم ، لأن الالمان ما لهم امان ولا لهم صاحب !

ضحك زيد وقال :

ـ بهذي الأيام ما عاد ، يا ابن أخي ، امان لا للالمان ولا للعربان !

وحين قلب المترجم شفته وهز كتفيه دلالة عدم الاهتمام ، تابع زيد :

ـ بسيطة يا وليدي . . . نشوفهم ونوصيهم !

حين عرض زيد على الحكيم أن يزور الفندقين وان يعمل على تهدئة الموقف ، كان رد فعل الحكيم عصبياً وسريعاً :

ـ الله يخليك يا ابو راشد هذه الشغلة ما هي شغلتي . شوفهم انت أو شوف واحد غيري ، وتفاهموا معهم !

ـ ولكنك ادرى بالالمان يا ابو غزوان.

ـ المسألة مسألة جماعتنا ، إذا جماعتنا تربوا وتأدبوا الالمان مالهم معهم شغل ولا في مشكلة .

ضحك زيد بغيظ ، وبعد قليل قال، وكأنه يحدث نفسه :

ـ بسيطة ، على خيرة الله ، حنا نشوفهم ونقول لهم صيروا عاقلين ومؤدبين يا جماعة الخير ، ولا بد أن يفهموا ويسمعوا!

ويصل في اليوم التالي السكرتير الاول للسفارة حاملاً رسالة شفوية من السفير ينقلها إلى زيد الهريدي والحكيم معاً : « سعادة السفير يبلغكم تحياته واحترامه ، وكان بوده أن يقوم بهذه الزيارة بنفسه ، لكن تعليمات موران بهذا الخصوص واضحة ، إذ يجب أن يبقى في بون ، وقد كلفني أن اقوم نيابة عنه بزيارتكم واطلاعكم على بعض الامور، ويبدأ يقرأ :

ـ « موران قلقة بل منزعجة من النشاطات المعادية والتحريضية التي تتم في

بادن بادن ، وتعتبر هذه النشاطات غير الودية بمثابة موقف عدائي تجاهها ، الامر الذي يضطرها إلى اتخاذ موقف مقابل ، وقد أبلغت السفارة بضرورة موافاتها بجميع التحركات لكي تحدد الموقف على ضوئها . وسعادة السفير الذي بلغته اخبار الاجتماعات التي تعقد هنا ، والاتصالات التي تجري ، شديد الحرج ولا يعرف كيف يتصرف ، فهو من ناحية لا يمكن أن يتغاضى، لأن لديه قناعة أن هناك من يبلغ موران مباشرة ، ولا يمكن السكوت، لأنه مضطر لابلاغ موران بكل شيء، ولذلك يرجو أن تتوقف هذه النشاطات، وأن يسود التفاهم والاخاء بين الأطراف المعنيّة » .

بهذه الطريقة المتقنة الموجزة ، والمليئة بالاشارات ايضاً ، نقل السكرتير الأول الرسالة ، وإذا فاتت زيد دلالة بعض الاشارات أو العبارات ، فإنها لم تفت الحكيم ، سأل الحكيم بمودّة مصطنعة:

ـ ـ هل تلقت السفارة رسائل اخرى من موران ؟

ـ لا ادري !

ـ وهل يطلب تبليغ السلطان برسائل اخرى غير هذه ؟

ـ هذا ما ابلغني به السفير وطلب اليّ نقله .

ـ ومعلومات السفارة حول النشاطات المعادية . . من اين ؟

ـ لا ادري .

قال زيد بسخرية مخاطباً الحكيم :

ـ عندهم واحد من جماعتهم يا ابو غزوان ، وهذا يناظر ويرّسل !

وهز رأسه بأسف ثم اضاف :

ـ وهذول التراجمة ، يا ابو غزوان ، يترجمون على الوجهين !

عندما قام الحكيم وزيد الهريدي بابلاغ السلطان ، في المساء ذاته، برسالة موران والسفارة ، وقد تعمد الاثنان أن يمهدا لذلك ، وان يخلقا جواً يجعل الأمر عادياً، استبدت بالسلطان ثورة عارمة، لم يماثلها إلا ثورة الليلة

الأولى ، حين ابلغه السفير بما حدث في موران . خرج عن طوره واخذ يشتم ويتوعد ، ولام الاثنين ، وان كان يوجه كلامه في الغالب إلى زيد الهريدي ، أن تركا الرجل يأتي ويذهب دون أن يبلغاه ، « إذ لو مسكناه وبعد سطرتين والثالثة يطلع كل اللي ببطنه وما يقول ادري وما ادري » . وزيد الذي نظر إلى الحكيم بسرعة ، لا يعرف كيف فاته هذا الامر ، إذ لو قبض على هذا الرسول وحبس يوماً أو اثنين فلا بد أن تؤخذ منه معلومات كاملة ، ولا بد أن تتردد السفارة في القيام بأعمال التجسس. قال زيد في محاولة لتخفيف غضب السلطان :

- هذا ما هو اول أو آخر رسول، يا طويل العمر.

- ولكنه كان بأيدينا يا زيد!

- إذا أمرت يا طويل العمر حتى السفير نجرّه مثل الخروف !

قال الحكيم بلهجة فخمة :

- يا جماعة الخير . . نحن في المانيا . . .

وبعد قليل وبصوت منخفض :

- كل فرد في السفارة له حصانة ، والحكومة الالمانية مسؤولة عن حمايته ، ولسنا بحاجة إلى عداوة الدولة الالمانية ، أو أن ندخل بمشاكل معها .

- حنا ما علينا بحكومة الـزق ، بالحكومة الالمانية أو غيرها، حنا علينا جماعتنا !

هكذا رد السلطان بغضب وهو يدور نصف دورة دلالة التعب أو الاحتجاج .

قال زيد ليغير الجو:

- ثارنا عند الجماعة هناك يا طويل العمر ، والرسول مبلغ ما هو ملوم .

- صحيح يا ابن الحلال لكن البقرة تدل على البعير !

وانتهى الأمر بان تحول الحديث إلى امور اخرى .

تحديان اثنان يواجهان الحكيم ويثقلان عليه: الأمير فنر ووداد. وإذا كان يواجه تحدي الأمير مع الآخرين، ويجوّ من الحماس والاصرار، ويمتلىء ثقة، في لحظات معينة، بامكانية النصر، فإنه وحده يواجه وداد، أو بالاحرى لا يعرف كيف يواجهها. وإذا كانت هناك انواع من المعارك يمكن كسبها مع الزمن، فإن الزمن لا يعمل لمصلحته، ولا يترك له فرصة للتفكير الهادىء المتوازن.

ووداد تلك الدجاجة الخائفة في السنوات الأولى من الزواج، والتي لم تكن تجرؤ على مواجهة نظرات الحكيم أو تعليقاته اللاذعة، وتغرق في صمتها كما تغرق السلحفاة في قوقعتها، أخذت بالتغير ولداً بعد آخر. فغزوان انبت لها جذوراً، وحامد وكمال انبتا لها جناحين، أما حين جاءت سلمى، خاتمة العنقود، فقد أصبحت ترفرف بالفرح، وكان يمتلىء البيت بضحكاتها الرنانة، ولما سافر الحكيم بدأت تطير وتحلّق، وعندما تدفقت الاموال اصبحت امرأة من نوع مختلف.

لم يلتفت الحكيم إلى التغير الذي كان يحصل ويتراكم سنة بعد اخرى، إذ كان مشغولاً، أكثر من ذلك، بمشاريعه ثم بأفكاره، ولأنه لم يكن يقضي إلا اوقاتاً قصيرة، وغالباً ما تمتلىء بالدعوات والبهجة وتوزيع الهدايا والوصايا، فلم يلاحظ، إلا متأخراً، المزاج الحاد المترافق مع الصداع والمرض، الذي يستبد بوداود بين فترة وأخرى. عزاه إلى الغربة، وكان على يقين أن الزمن وحده كفيل بمعالجته. وغرق مرة اخرى بهموم الحياة وركضها المجنون، فلم يفطن لوداد إلا كما يفطن الانسان لنبتة بدأت تذوي، فيلجأ إلى ادويته أو

إلى ذلك الدلال المبالغ فيه ، فيغدق عليها من الهدايا الكثير ، ويقدم الوعود أن يكون صيف هذه السنة أفضل من كل الأصياف الماضية. وحين ترضى وداد وتؤخذ بالهدايا ، أو حين يترافقان في سفرة ، مثل تلك التي ذهبا خلالها إلى الولايات المتحدة لزيارة غزوان ، فإنهما يتحولان من جديد إلى عاشقين لا يملّ الواحد منهما الآخر في الليل والنهار، بل أكثر من ذلك تتحول وداد إلى امرأة من نمط مختلف، فتعطي الكثير، وتصبح أكثر حناناً، وأقل عرضة للمرض أو لتعكر المزاج.

حتى في الفترة الأخيرة ، سواء عندما دعا السلطان أول مرة إلى بيته ، أو عندما دعاه للمليحة ، وما تخلل الاستعداد للدعوتين من بكاء وداد ومرضها ، فقد اعتبره نتيجة التعب أو القلق. وأثناء الاستعداد لزواج سلمى وما رافق ذلك من الحدة والمخاوف، فقد اعتبره نتيجة الرهبة ومداهمة الوقت، خاصة وأن شبح السلطان كان يخيّم مثل ظل كثيف لا يعرف احد كيف يداريه أو يسترضيه. وكان الحكيم على ثقة اكيدة أن الراحة بعد التعب والانتظار ، وفي المانيا بالذات ، سوف تجعل ما سبقها ذكرى بعيدة ، خاصة حين ينضم إليهم ، ويقضي اسابيع طويلة في حالة من الاستجمام الكامل بعيداً عن موران ومتاعبها !

الخلافات الماضية كلها لا تعني شيئاً ، ولا تستوقف الذاكرة الا لحظات قليلة ثم تتوارى ، ازاء ما بدأ يحصل في بادن بادن . فالسلطان الذي بدا انيساً ودوداً خلال الأيام الأولى، وقدم لوداد وسلمى هدايا تفوق التصور والخيال، جعلتها تصرفاته تغبط نفسها على هذا الزواج ، لكن ما لبث أن غرق في جو غامض ، إذ سيطر عليه الصمت وتحول ليله إلى نهار ونهاره إلى ليل ، كما عافت نفسه الأكل فجأة ، وإذ استغربت وداد وسألت نفسها ثم تساءلت ، فلم تستطع الوصول إلى اية اجابة . حتى وهي تحرّض سلمى على أن تسأله ، أن تستغل لحظات الاشراق ، وفي الفراش بالذات ، فلم تجرؤ أي منهما على السؤال ، وظلتا كذلك إلى أن جاء الحكيم !

لم تكد وداد ترى الحكيم حتى خافت . وعندما سمعت بعض ما حصل لم

تفهم ، أما حين فهمت فقد اصيبت بالذهول والصمت ، ولما استوعبت تماماً ما وقع غرقت في البكاء خلال اليوم الأول واليوم الثاني ، ثم أصبحت بعد ذلك امرأة لا يعرف أحد كيف يعاملها أو كيف يتعامل معها ، أكثر من ذلك تغير شكلها، خاصة العينين، اصبحت شاحبة، معادية، واتسع بياض العين مع تقلص البؤبؤين وبروزهما .

قالت للحكيم بعد أن خلّفت البكاء وراءها وقررت أن لا تبكي أكثر مما فعلت :

ـ هالدربكة كلها ما كانت لازمتنا !

وحين نظر إليها بتساؤل واصلت الهجوم :

ـ ونحن ما جينا لهون حتى ننحبس أو نموت طقيق .

ودون أن يفارقه هدوؤه تساءل :

ـ خير . . خير يا ام غزوان ؟

ـ لا تسوي حالك ما بتعرف .

رد بحدّة وكأنه يدافع عن نفسه :

ـ فهمينا اولاً ليش لابسة وجهك على المقلوب ، وشو اللي صار في الدنيا ؟

ـ مية مرة قلت لك : هالجيزة مابتناسبنا وما هي إلْنا ، لكن حضرتك اذن من طين واذن من عجين ، ولازم تصاهر الملوك والسلاطين.

قالت الكلمات الأخيرة بسخرية لا تخفى ، بل كانت اقرب إلى التعريض . ردّ بحدّة:

ـ اسمعي يا وداد: احنا ربنا طاير، فألله يخليك لا تزيدي مصايبنا.

ـ أي والله الك حق تحكي!

ـ أي نعم يا ستي ، الي حق ونص . . .

وبعد قليل :

ـ لحد امبارح كنت طايرة من الفرح ، وما اعترضت بكلمة واحدة !

ـ انا ؟

ـ اي نعم ، انت يا ستي !

ـ غلطان .

ضحك بسخرية في محاولة للدفاع ، تابعت :

ـ لو سمعت كلامي كان ظلينا بعيدين ، ولا كان شفنا ملوك وسلاطين !

ضحكت بتحدٍّ وقالت برخاوة:

ـ ولا كان صاهرناهم ولا ناسبونا .

ـ انت غلطانة يا وداد .

وتغيرت لهجته :

ـ لان كل شيء كان بشورك وبالاتفاق معك .

وتغيرت اللهجة ، اصبحت ساخرة متحدية :

ـ وكانت ضحكتك للسما، وما كنتِ عاطية فرحتك لحدا .

ـ دمعتي كانت قنطار وما كنت انام لا في الليل ولا في النهار . . .

وبعد قليل :

ـ حاطة ايدي على خدي واسأل حالي : منين الله جاب لنا هالمصيبة ؟ شو جابنا على الملوك والسلاطين ؟ وشو بدنا بها الشغلة ؟

ـ الحق معك يا ام غزوان ، انا الغلطان والحق عليّ !

ـ قول انا اللي غلطانة ؟

ـ ابداً . . استغفر الله ، انت ما غلطت أبداً!

ـ عم تتمألس؟ بدك تضحك عليّ!

ـ اعوذ بالله.

وانتهت الجولة الأولى دون انتصار لأحد الطرفين، لكن خيمت الكآبة على الجناح الغربي من القصر، حيث كان ينزل الحكيم وزوجته، أو حيث كانت تنزل وداد ثم جاء هو، واصبح واضحاً تماماً للحكيم ان المعركة مع وداد لن تقل ضراوة وصعوبة عن المعركة مع فنرا

ما كادت ايام تمضي، وهي تحارب الجميع بنظراتها وصمتها، حتى انفجرت مرة اخرى، وكانت رغبتها عارمة هذه المرة لأن تغادر فوراً القصر. اكثر منْ ذلك فكرت أن تغادر بادن بادن عائدة إلى موران.

إذ ما كادت احدى السهرات تنقضي مع السلطان، بعد اجتماع طويل بعدد من المرافقين، تقرر نتيجته أن يعود هؤلاء إلى موران لكي يبدأوا اتصالاتهم، وكي ينقلوا رسائل شفوية إلى آخرين، وان يطلبوا منهم الاستعداد، «لأن المعركة الفاصلة ستكون قريبة»، بعد هذه السهرة، وما كاد الحكيم ينسل إلى الفراش، دون ان يحدث ضجة، ودون أن يشعل النور، مستعيناً بضوء الممر، ما كاد ينسل كقط إلى جانب وداد، وقبل أن يستقر في فراشه، حتى جاءه صوتها في الظلمة، ويبدو أنها راقبت هدوءه وحركاته واكتشفت رغبته في النوم:

ـ ضميرك مرتاح وجاي حتى تنام، ولا كأنه فيّ مشكلة!

نظر إليها في الظلام وقد فوجىء بهذا الصوت الصافي الواضح، وكأنها كانت تنتظره لكي تقول له ما قالته.

هز رأسه في الظلمة اكثر من مرة بنوع من الأسف الحزين، وكأنه كان يتمنى أن يجدها نائمة أو منشغلة بقضية أخرى. تابعت دون أن تقيم وزناً لأفكاره وعواطفه:

ـ راح اقتل نفسي واسوي لك فضيحة.

ـ خير انشاء الله، قالها بسخرية، كل يوم لك قصة؟

ـ حضرتك سويتنا قصة ، وما ضـلّ احد الا وحامل قصتنا ودابر ، وتعالوا تحملوا وداروا .

ـ طيب ، طيب ، اجّلي كل شيء للصبح ، والله كريم !

وجر اللحاف بقوة وغطى رأسه ، في محاولة لأن يجبرها على النوم . وللحظة ظن أنه نجح في ذلك ، لكن حركتها في الظلمة جعلته يتوجس ، واشعال النور جعله يتوجس اكثر ، أما حين سحبت اللحاف بتلك الشراسة ، وتلك الوقفة المتحفزة ، وقد امتلأت عيناها بالشر ، فقد اصبح على يقين أن الامور لن تنتهي على خير . ولذلك حاول أن يذيب غضبه بابتسامة حزينة ، تكوم وسط السرير وسألها بطريقة ابوية :

ـ فهميني ، يا حبيبتي ، ليش معصّبة ومنرفزة ؟

ـ وتسأل ؟

ـ ما لي حق اسأل ؟

ـ اي والله لك حق ، تقتل القتيل وتمشي بجنازته !

ـ بس نوريني يا حبيبتي ، يا عيني .

ـ لا تطولها ولا تقصّرها ، هذي الساعة لازم اترك ، لازم تلقى لي مكان غير هذا المكان .

ـ يا وداد ، يا حبيبتي ، نامي ، اجلي الموضوع للصبح ، وما بيصير الا اللي يرضيك .

ـ ابدا ، روحي طقت وراح اموت .

انزل رجليه ، اقترب منها كثيراً ، جذبها فقاومت ، جذبها أكثر واجلسها إلى جانبه ، جلست بتثاقل واخذت تبكي . بكت بحرقة وبصوت عالٍ . ضمها إلى صدره ليهدئها وليخفف من صوتها فلا يصل إلى الجناح الآخر من القصر . احس أنه حزين كما لم يكن هكذا من قبل . ماذا يفعل من اجلها وكيف يتصرف ؟ وهي ، لماذا اصبحت بهذا الشكل ؟ كان حائراً لا يعرف

كيف يفسر ما يرى ولا يجد له سبباً . وكانت كلما هدأت قليلاً أو كلما تراجع صوتها ، تجدد بكاءها وتجعل له جرْساً حاداً وكأنها تتعمد أن يصل إلى الجناح الآخر ، الشرقي ، من القصر.

بكثير من الصعوبة ، ومع حركات المداعبة ، والوعود الكثيرة أن يفعل ما يرضيها ، اخذت تهدأ تدريجياً ، اصبح بكاؤها شهقات تعلو وتتراجع بين لحظة وأخرى ، الدموع الصغيرة المنحدرة من العينين تمتزج بالكحل ، بالعطر ، وهو يحاول كقطة ويمسكنة أن يجفف الدموع ، أن يلعقها ، كانت مالحة ولزجة ، وكانت تثير فيه رغبة التقيؤ.

لأول مرة ، منذ وقت طويل ، يشعر أن حياته منذ البداية وحتى هذه اللحظة تافهة ، عديمة المعنى ، وان ما فعله طوال عمره لا قيمة له ابداً ، بل ويثير اشمئزازه وكراهيته . أكثر من ذلك يشعر أن خلافه مع وداد ، أو اختلاف وداد عنه ، وحده الشيء الصحيح . إنها امرأة شقية ، وهو سبب شقائها . لم يمنحها الحياة التي تستحقها ، لم يمنحها الحب الذي ملأ قلبه. كان يؤجل ذلك باستمرار ، وكان يخاف أن يبوح بما يعتمل في قلبه . الآن يبدو له كل ما فعله ، وكل ما عاشه مجرد خطأ كبير ، وكان يكابر ويواصل الخطأ ، كأنه سيجد الصواب في نهاية هذه السلسلة من الاخطاء .

حين تعبت ومالت عليه ، شعر فجأة انه يحبها أكثر مما يعترف لنفسه ، وانه يريد أن يكفّر عن اخطائه كلها .

مددها بهدوء في السرير ، سحب اللحاف عن الارض ووضعه فوقها ، اطفأ النور وانزلق إلى جانبها .

كانت دافئة أكثر من اية مرة سابقة. للحظة ظن انها مريضة ، وان المرض سبّب ارتفاع حرارتها. استبعد الفكرة وجعل يده تنزلق تحت ظهرها ، احتضنها برقة ، تنبهت وتحركت قليلاً . اقترب منها ودفن وجهه في عنقها وزفر ، تحركت اكثر من قبل ، وكأنها بطريقة اختبارية تحاول الابتعاد . زفر مرة أخرى في اذنها مباشرة ، أنّت وارتعشت ، تأكد أنها تستجيب له. اقترب اكثر واحتضنها بقوة ، تحركت لتعطي لجسدها وضعاً ملائماً. عضّ شحمة

الاذن ، هزّت رأسها وتلوّت . عضها مرة أخرى ، قالت وهي تستدير نحوه :

ـ وجعتني ، اخس عليك !

ـ راح آكلك ، لسّه ما شفت شي !

ـ ما فيك ، ما بتقدر !

ـ راح تشوفي بعينك

حاولت أن تبتعد وتقترب، تحرّك، طوّقها، قالت بطريقة مغرية:

ـ الوقت متأخر ، خليها لبكرة !

ـ اليوم وبكرة . . ضحك : وكل ليلة وكل يوم!

ولا يعرف هو كيف تعرّى وكيف عرّاها ، فعل ذلك بطريقة اقرب إلى السحر ؛ وكانت استجاباتها خجولة بطيئة أول الامر ، لكن ما ان دب الدفء ، وما ان احتك الجسدان حتى تحولت بسرعة إلى جنون . كانت تنهشه ، تعض كتفه ، تنزلق ثم ترتفع كالدرفيل . كانت تبكي وتضحك كل لحظة ، ولا تعرف كيف تعبر عن فرحها وغضبها . والحكيم الذي يصهل ويهمهم ويحرّض بوعي حاد خلاياه كلها لكي تستجيب ، يجد نفسه كقط عجوز يقفز ، يرتفع وينخفض ، حتى إذا حانت تلك اللحظات المجنونة كانت وداد تموء وتتشبث بكتفيه مثل الغريق الموشك على الهلاك.

ويمتد صمت آخر الليل ليعمّ الجناح الغربي من القصر اليوم التالي كله، وينصرف الحيكم الى الخصم الأخر. يقول لمناور المزعل الذي سيكون طليعة المسافرين العائدين :

« ومن يوم وصولك ، يا شيخ مناور ، تتصل بمطيع ، ويجب أن يكون الحديث بينك وبينه على انفراد ومواجهة ، وتبلغه رسالة قصيرة : الحكيم يريدك ، ولازم تجي ، والافضل أن لا تكون وجهته المانيا مباشرة، يمكن أن يأتي إلى سويسرا ومنها إلى هنا . وقل له ان كل حجة غير مقبولة ، وللاهمية » .

ويهز مناور المزعل رأسه دلالة على فهم الرسالة واستعداده للقيام بإبلاغها فوراً . يلتفت الحكيم إلى السلطان الذي كان ساهماً وبعيداً ، ويقول له :

- إذا جاء مطيع ، يا صاحب الجلالة ، يمكن أن نأخذ صورة كاملة ودقيقة عن الوضع ، وعلى ضوئها نضع الخطة المناسبة .

وتخرج همهمة من فم السلطان ، همهمة غير واضحة ، أقرب ما تكون إلى صوت الحيوان ، فيؤكد الحكيم بنبرة مختلفة :

- المهم ، في المرحلة الأولى ، ان نجمع المعلومات ، لأن المعلومات الدقيقة تساعدنا في وضع الخطة . . .

يقول زيد بحزم :

- الحق اللي تقوله يا ابو غزوان . . .

يتطلع إليه السلطان ليكتشف مدى جديته ، يضيف زيد :

- وإذا جا ، بالخير والسلامة ، نشوف ويش يلزم وشنهو اللي نسوي !

يهز السلطان رأسه حزناً ، لأنه وحده يعرف ماذا تعني كلمات زيد . يتابع الحكيم محذّراً مناور المزعل :

- ويلزم يا شيخ مناور أن حماد ما يدري !

يهدر صوت السلطان :

- اه على اللي يجيب لي حماد . . .

وتتغير اللهجة ، تخرج من اعماق الصدر :

- والله . . . والله إذا ظفرت به ، إذا مسكته يدي لاخليه يشتهي الموت ويتمناه ، ويقول : ليتني لم أولد أو لو كنت نسياً منسياً .

ويخيم الصمت، تسيطر صورة حماد . تملأ مخيلة الجميع ، يتذكر السلطان هذه الصورة ، يقول لزيد ، لكنه يعني الحكيم :

ـ تذكر ، يا زيد ، أول ايامه في القصر « يا وليدي انت واحد منا ، نعرف ابوك ونعرف عمك ، اجاويد وما مثلهم ، وانت اللي الله يقدّرك عليه » ، وراح يوم والثاني وخذ يا حماد ، وموافقين على شورك يا حماد ، واللي تقوله يا حماد ، وبعدين هذا اللي طلع من حماد !

ويزفر بحرقة ، يغلف وجهه حزن قاتم ، يود لو يرى حماداً لحظة واحدة ، لو رآه لشقه بنظرة إلى نصفين ، لجعله يذوب كما يذوب الملح في الماء . قال يواصل تعريضه :

ـ وانت ، يا ابو غزوان ، تذكر شلون كان حماد !

ـ اي والله اذكر يا طويل العمر .

ـ دنيا ما بها امان !

ـ بس يجي يوم يتحاسب كل واحد عن افعاله يا طويل العمر .

هكذا يرد زيد ، فيفهم كل واحد أكثر من معنى . وحين يهمّ السلطان بالنهوض يقول لمناور ، ويريد أن يفهم ما يعنيه :

ـ تعال معي يا مناور ، عندي وياك كلمتين .

وحين يبتعد الجميع ، تاركين للسلطان ان يتحدث مع مناور ، يتطلع كل واحد إلى الآخر ، ولا تفهم هذه النظرات ابداً ، هل هي نظرات تساؤل ؟ اتهام ؟ انتظار ؟ يقول زيد ليعطي للنظرات مساراً لا يخطىء :

ـ يجيء يوم يا جماعة وكل واحد وما قدّمت يداه .

وبعد قليل ، وفي جو الصمت ، يضيف بتحدٍّ ساخر :

ـ ويا ما روس راح تطير !

في اوائل حزيران ، ولثلاثة ايام متوالية ، بدأت تصل إلى القصر سلال ورد كبيرة ، ومع كل سلة بطاقة صغيرة : « مع تحيات هانس أورلخت».

السلة الأولى لم تلفت النظر . أكثر من ذلك اعتبر زيد وصولها صدفة أو بطريق الخطأ. السلة الثانية تحدث زيد بشأنها مع السلطان ، لانها وصلت بنفس الطريقة وبنفس الساعة : سيارة سوداء كبيرة تقف في العاشرة ، يهبط منها اثنان بملابس سوداء ، اقرب ما تكون إلى ملابس الجنود ، يتعاونان على انزال سلة الورود ، يقدمانها مع التحيات ، ويغادران .

السلة الثالثة كان الجميع بانتظارها ، ولم يبق احد في القصر الا توقع وانتظر ، وحين وصلت في العاشرة تماماً قال الحكيم يحدث السلطان :

ـ المسألة اكثر من مجرد هدية !

قلب السلطان شفته دلالة عدم المعرفة ، وظل ساهماً مفكراً. قال الحكيم :

ـ إذا كان للرجل علاقة بالحكومة أو الأجهزة، فلا بد أن تكون الحكومة الالمانية قد غيّرت موقفها مما حصل في موران ، وتريد أن تشعرنا بذلك بطريقة غير مباشرة .

وتغيرت لهجته :

ـ في أوروبا، يا طويل العمر ، يحمّلون الورود والازهار معاني كثيرة ، ويعتبرونها رسلاً بين الناس ، ولكل مناسبة ، ولكل حالة ، وورود تعبر

عنها ، سواء بالوانها أو طريقة تقديمها أو . . . :

سأل السلطان بفرح وسخرية معاً :

ـ وصاحبنا هذا ما عساه يريد يقول ؟

ـ إذا لم اخطىء في فهم الرسالة ، فإنه يعبّر عن المودة !

ـ ومنين عرفنا ؟ ويش درّاه بنا ؟

ـ يا صاحب الجلالة . . .

وضحك الحكيم قبل أن يضيف :

ـ انكم ، يا صاحب الجلالة ، معروفون في جميع انحاء العالم . . .

قاطعه السلطان وهو يبتسم :

ـ وما تذكّرنا هو أو غيره الا اليوم ؟

ـ مثل ما ذكرت لك يا صاحب الجلالة : إذا كانت للرجل علاقة بالحكومة ، فإن هذا هو موقف الحكومة ، تريد أن تعبّر عنه قبل اجراء اية إتصالات ، وربما للاعتذار ايضاً عن الموقف الذي بدر منها خلال الفترة السابقة .

وبعد قليل وبنبرة جديدة :

ـ ربما كانت المعلومات السابقة عند الحكومة الالمانية ناقصة أو خاطئة ، وجاء من يقول لها كيف تتصرف لئلا يستمر الخطأ .

لأول مرة يمتلىء القصر بتوقع مرتاب، أن شيئاً ما على وشك الحصول، لا أحد يدري ما هو وما إذا كان إلى الأحسن أو إلى الأسوأ. أما اسم هانس أورلخت فقد أصبح مألوفاً جداً بالنسبة للحكيم. للحظات تصور أنه عرف هذا الشخص، أو بالأحرى عرف واحداً بهذا الاسم. حاول أن يتذكر متى كان ذلك، وما هي ملامح ذلك الشخص، لكنه لم يستطع أن يواصل، إذ اختلطت الأشياء والملامح والأسماء، اختلطت وتداخلت. قال في نفسه: «يبقى العالم صغيراً، وتبقى الأفعال الطيبة تذكر بأصحابها حتى لو مرّ الزمن!».

عصر اليوم الثالث رّن الهاتف . كان المتكلم هانس اورلخت ، وكان الحكيم على الطرف الآخر . لأول وهلة بدا الصوت للحكيم مألوفاً ، انه يعرف صاحبه تماماً ، ولولا تلك اللهجة الشمالية المترفعة ، رغم الود ، لتصرف بشكل آخر ، لكن في لحظة معينة تريث وفضل الانتظار .

بعد أن قدم هانس اورلخت تحياته واحتراماته ، صمت قليلاً ثم طلب أن يحدّد له موعد للقاء السلطان . كاد الحكيم أن يطلب منه المجيء فوراً ، لكنه تردد، ثم فكر أن يطلب منه المجيء في أي وقت يشاء، لكنه تردد أيضاً، فسأله عن صفته والغاية من الزيارة. كان السؤال شديد التهذيب، ومع ذلك أحسّ أنه يضع أمامه مجموعة من الحواجز، وللحظة ندم ولام نفسه أنه فعل ذلك. أما حين أجاب هانس أنه سيوضح أسبابه في اللقاء نفسه، فقد اعتبر الحكيم سؤاله حكيماً وضرورياً، وحين ألحّ يسأله من جديد ما إذا كان الأمر مهمًّا وعاجلاً أم أنه يحتمل التأجيل، فكان جواب هانس مع ضحكة لا تخلو من مغزى :

- حين نلتقي ستتوضح كل الامور !

حدد له الحكيم ، بعد تشاور قصير مع السلطان ، الخامسة من عصر اليوم التالي .

اربع وعشرون ساعة من الانتظار والتقدير والقلق والاتصال مع السفارة في بون ، ومع موران، دون أن تتضح اشارة يمكن أن تقود إلى فهم ما يحصل ، ودون أن تعطي فكرة عن شخصية هانس اورلخت ، أو الغاية من الزيارة . وإذا كانت العاشرة من صباح اليوم التالي جعلت جميع من في القصر ينتظر ويتوقع ، فقد مرت دون أن يصل الورد ، ودون أن يحدث خلالها شيء ، ولقد ولد ذلك لدى الكثيرين القلق وجعلهم يتساءلون ، ومع ذلك لم يقلق الحكيم ولم يتساءل ، لان الرجل ذاته سيكون هنا ، امامه ، بعد بضع ساعات. وما لم يستطع فهمه من خلال سلال الورد سيفهمه من فم الرجل مباشرة ، وسيعرف الاسباب التي دعته لأن يكون كريماً هكذا ولان يتصرف بهذا الشكل .

قال السلطان ، وهو يتناول الغداء مع الحكيم وزيد :

- جيّة صاحبنا اليوم ، يا جماعة الخير ، ما هي لله ، لا بد يكون وراها شي .

رد زيد بسرعة وهو ينظر إلى الحكيم :

- حتى ورده ورياحينه ما هي لله يا طويل العمر !

ابتلع الحكيم اللقمة بسرعة ورد :

- اكيد المسألة ما هي طبيعية ، ولازم يكون وراها شيء ، واعتقد أن وراها الحكومة الالمانية ، خاصة بعد الاخطاء التي ارتكبتها .

كاد يذكر ، مرة اخرى ، تأخرها في اعطائه سمة الدخول ، وكاد يذكر زيارة ممثل وزارة الخارجية ، لكنه آثر هذه الصيغة العامة : قال زيد وهو يهز رأسه بسخرية :

- لو كان عنده سالفة زينة كان جماعتنا خبرونا قبل ما يخبرنا الغريب !

قال السلطان في محاولة لان يستبقي بعض الأمل :

- الغايب سالفته معه ، يا زيد ، إلى أن يحضر .

- ننتظر ونشوف !

هكذا رد زيد وهو يتطلع إلى الحكيم ، ثم سأله :

- وشنهو قولك يا ابو غزوان ؟

- مثل ما قال طويل العمر ، الغايب سالفته معه .

وبين انتظار هانس اورلخت والاستعداد لهذه الزيارة ، وتقدير ما يحتمل أن يترتب عليها ، انقضت ، الساعات المتبقية ، وكانت طويلة ، مشحونة بالقلق والترقب .

في الخامسة تماماً وصلت سيارتان : سيارة هانس اورلخت وسيارة الورد ، ومثلما انزلت سلال الورد في الأيام الماضية ، انزلت عصر هذا اليوم ، ولم

يعرف الحرس هل يتسلمون الورد قبل أن يدخلوا الضيف أم العكس ، لان لا احد في القصر ، ذلك اليوم ، لم ينتظر ولم يتوقع .

حين ادخل هانس اورلخت إلى القصر ، إلى غرفة الاستقبال في الطابق السفلي ، كان السلطان وزيد والحكيم في غرفة مجاورة . كاد السلطان يعتذر عن لقائه في آخر لحظة ، لانه لن يفهم منه شيئاً ، لكن اصرار الحكيم على أن يتم اللقاء ، ويمكن أن ينتقل هانس إلى حيث يجلس جلالته ، على أن يلتقي به الحكيم قبل ذلك ، جعله يوافق .

خلال الدقائق العشر ، وهي الفترة التي بقي فيها الحكيم مع هانس على انفراد ، لم يستطع أن يفهم بوضوح دوافع الاتصال ثم الزيارة ، لكنه ، بالمقابل ، ارتاح للرجل : كان ودوداً مهذباً ، ولم تفارق الابتسامة وجهه . وكان لبقا حين سأله مجدداً عن هدف الزيارة . رد وقد اتسعت ابتسامته:

- لن أخفي عنك : قضايا تهم جلالته.

وبعد قليل وبمودة:

- وسوف تسمع كل شيء بنفسك !

بعد قليل ، وهانس اورلخت بين يدي السلطان ، وبعد كلمات المجاملة ، وقد سَرّ الحكيم أنه لم ينس الالمانية ، إذ كان يترجم بين الطرفين براحة ، قال هانس اورلخت :

- عرفت بزيارتكم ، يا صاحب الجلالة ، قبل وصولكم باسابيع ، وقد كان هذا مصدر سرور شخصي بالنسبة اليّ . ورأيت جلالتكم لحظة وصولكم إلى بادن بادن ، وقد سررت بذلك اكثر من قبل ، وكدت اطلب موعداً لزيارة جلالتكم خلال الأيام الأولى ، لكن الاحداث التي وقعت في مملكتكُم جعلتني أؤجل ذلك .

صمت قليلاً تعبيراً عن الحزن أو الحرج ، ثم تابع :

- وقد يكون من المناسب أن اذكر لجلالتكم أن اجدادي ، من ناحية والدتي ، كانوا ملوكاً لبروسيا، ثم بعد الاحداث التي عصفت بالمانيا في

القرن الماضي ، وتغير الاوضاع والنظام في هذه البلاد ، جعلت العائلة تتفرق ، ولم يبق سواي في هذه المنطقة .

للحظة بدا للحكيم أن الحديث غير مناسب ، إذ صدرت عنه اشارة ادركها هانش . تابع الرجل، بعد أن ابتسم استعداداً للدخول في الموضوع :

- في مثل الظروف التي تواجهون ، يا صاحب الجلالة ، اقدّر وافهم انكم قد تحتاجون إلى اشياء كثيرة ، ولقد جئت لكي اضع نفسي بتصرف جلالتكم ، ويمكن أن افيد جلالتكم في عدة أمور.

تطلع السلطان إلى الحكيم وتطلع إلى زيد . كانت نظراته بين الارتياب والتساؤل . ماذا يريد الرجل ؟ ولماذا جاء ؟

خيم الصمت فترة غير قصيرة . لم يكن احد يعرف ماذا يجب أن يقال . أكثر من ذلك شعر هانس بالحرج، إذ قدّر انه لم يُفهم. تبادل مع الحكيم ، بصوت منخفض ، بضع كلمات ، سأله ما إذا كان واضحاً ومفهوماً ، أم يتطلب أن يشرح ويوضح أكثر . التفت الحكيم إلى السلطان وإلى زيد ، سأل بحرج :

- هل ترغبون بتوضيح أي امر يا صاحب الجلالة ؟

- حنا ما رحنا يمّه ولا سألناه، هو اللي جا ، وما فهمنا مقصده او شنهو اللي يريده .

قال زيد بخبث :

- اللي يبيه بعد ما سولف به يا طويل العمر !

قال السلطان بارتياب :

- منهو اللي دزه علينا ؟ وشنهي علاقته بالحكومة؟

- ومن هو اللي يثبت لنا أن اجداده ملوك وسلاطين ؟

ومع كل كلمة جديدة يقولها واحد من الثلاثة ولا تترجم يزداد حرج هانس وارتباكه ، ينقل عينيه في الوجوه ، يستقرئها، يتابع انفعالاتها .

قال السلطان وهو يدق الارض بعصاه :

ـ قل له ، يا ابو غزوان ، خله يعلمنا بمراده، وبعدها نشوف !

حين بدأ هانس اورلخت يشرح مرة اخرى ، كان اكثر وضوحاً : اشار إلى ان لديه شركة كبرى ، وهذه الشركة تتولى العلاقات العامة ، وبيع وشراء العقارات ، إضافة إلى فرع اساسي للاعلان وآخر للمجوهرات ، كما اشار إلى أن لشركته علاقات واسعة وقوية مع شركات في المانيا وخارجها ، وهذه الشركات تتولى اعمالاً كثيرة ، ويمكن أن تقدم خدمات لا حدود لها في المانيا وفي الخارج . كما أن لديه مجموعة مصارف تكفل اعماله وتغطيها، وأنه مستعد ، عند الضرورة ، وحين يتطلب الامر ذلك ، أن يقدم كفالات مصرفية ، تضمن حسن تنفيذ الاعمال ، وبالمواعيد اللازمة .

رغم أن الشرح الذي قدمه هانس اكثر وضوحاً ، إلا انه زاد الموقف غموضاً . قال زيد بسخرية :

ـ رأي تنشده يا ابو غزوان أخاف يريد غيرنا وتوهم وجانا .

قال السلطان بطريقة متآمرة :

ـ اثاري الرجال بياع شرا ، وحنا ما عندنا اللي نبيعه أو اللي نشريه .

ـ وإذا كان لكل من يبيعه أو يشتري منه يدزّ ورد وريحان ظني ان ربحه يروح بخسارته ، ويطلع مثل معايد القريتين!

هكذا علق زيد ولم يستطع أن يخفي ابتسامته.

قال الحكيم مخاطباً السلطان :

ـ مثل هذه الشركات موجود بكثرة في أوروبا يا طويل العمر، وهذه الشركات تعرض خدماتها على الحكومات والجمهور، ولا تلزم أحداً بشيء . . .

قال السلطان بسخرية ونفاد صبر.

ـ حنا بديريتنا يا أبو غزوان ما بعنا ولا شرينا، فخله يدوّر غيرنا!

رد الحكيم بطريقة فخمة:

ـ من رأيي يا طويل العمر أن نسأله إذا كانت لشركته علاقات بالصحف، لأن الاعلام أساسي جداً، ويمكن أن يساعدنا كثيراً.

كانت هزات رأس السلطان بين الحزن والموافقة. وحين تحدث الحكيم مع هانس أورلخت يسأله ما إذا كانت لشركته علاقات بالصحافة والنشر، ويمكن أن تساعد في نشر بعض البيانات السياسية، أجاب هانس أن لشركته علاقات مثل هذه، ورغم صعوبة نشر بيانات سياسية، إلا بموافقة الحكومة، إلا أنه سيبذل جهده، وسوف يحصل على أفضل العروض.

رغم السخرية وخيبة الأمل فقد استطاع هانس أورلخت أن يبيع للسلطان خمس ساعات يدوية ، اثنتين منها نسائية ، وعقداً من الألماس، وعرض على السلطان أن يشتري له قصراً كان لاحد الملوك السابقين، كما ابدى استعداده لترتيب رحلة لجلالته يتجول خلالها فى المانيا من اقصاها إلى اقصاها . واكد اخيراً انه سيكون حاضراً لتقديم خدماته لصاحب الجلالة حين يطلب منه ذلك ، ولم ينس أن يلتقط لجلالته عدة صور ، كانت احداها على الشرفة ، وكان يقف إلى جانبه !

عند الباب الخارجي كان وداع هانس اورلخت لزيد والحكيم حاراً ، واكد مجدداً انه سيقوم بزيارة القصر وتقديم الاحترام لصاحب الجلالة بين فترة واخرى .

قال زيد للحكيم وهما يسيران في الحديقة باتجاه الشرفة التي يقف عليها السلطان :

ـ ظني يا ابو غزوان أن الرجال حصّل ثمن ورده وزود!

وضحك بسخرية واضاف :

ـ وبعد اليوم ما راح يدز ورد وريحان !

عندما كانت سيارة هانس اورلخت تنعطف لتدخل إلى الشارع العريض ، وكانت تُرى من شرفة القصر الامامية ، حيث وقف السلطان وإلى جانبه الحكيم وزيد ، قال السلطان موجهاً الكلام إلى الحكيم ، وبسخرية اقرب إلى المداعبة :

ـ اتاري صاحبك ، يا ابو غزوان ، بياع شرا ، وما عنده سالفة غير البيع والشرا !

قال زيد وهو يقهقه :

ـ عمي يا بياع الورد .

شاركهما الحكيم الضحك ، لكن بغيظ . وفي تلك الليلة ، والأيام التالية ، أصبح هانس اورلخت مادة للسخرية والتندر . فزيد لا يشير إليه إلا بعمي يا بياع الورد ، والسلطان الذي سمع محاضرة الحكيم عن مغزى الورود ومعانيها ، وفي اللحظات التي تمتلىء روحه بالاسى ، لا يتردد في أن يشير إلى بعض ورود الحديقة ويقول : « هذا ورد الحكومة . . وهذا ورد القصابين » أو يقول : «هذا ورد الحكومة الالمانية وهذا ورد الانكريز» . والحكيم الذي يضحك ، ويبالغ بعض الاحيان ، لكلمات السلطان ومداعباته ، يبدو شديد الحنق ، اقرب إلى الغيظ حين يسمع تعليقات زيد أو تعريضه ، لكن مع ذلك يعض على جرحه ، لا يريد أن تفلت منه كلمة تكون سبباً لخلاف امام السلطان .

ما كادت بضعة ايام تنقضي حتى اصبح هانز اورلخت نفسه الشخص المطلوب ، لأنه الوحيد القادر على المساعدة وحل المشاكل !

فقبل أن ينقضي الشهر على اقامة السلطان ، وقعت احداث عديدة : جاء صاحب القصر ، وجاء مندوب عن بلدية بادن بادن . وجاء ايضاً عدد من الشرطة ، اضافة إلى حصول مظاهرة امام القصر .

فصاحب القصر اجرّ قصره « لملك وعروسه ولم يؤجره إلى قبيلة من

الغجر». هكذا قال، واظهر، للحظة، عقد الايجار. هزه في الهواء اكثر من مرة، واعاده إلى جيبه، دون الاشارة إلى اية فقرة، كما لم يشر أن السفارة هي التي ابرمت العقد، وبالتالي عليه مراجعتها. كان يهدّد أن يقيم دعوى عاجلة لاخلاء القصر والتعويض عن الاضرار الجسيمة التي لحقت به.

لما حاول الحكيم الاستفسار عن اسباب غضبه، أو ماذا يريد، اجاب انه لم يتصور أن يتحول القصر إلى هذا الشكل، وانه، حتى هذه اللحظة، لا يفهم شيئاً مما يجري حوله، كما لا يقبل أن تستمر الامور هكذا. وان المسألة تتجاوز كثيراً الجانب المادي لتطال سمعة القصر والمنطقة، وانه محرج وحائر فيما يجب أن يفعله لانقاذ الموقف أو وضع حد لشكاوى الجوار.

ويبذل الحكيم كل براعته ودهائه في ان يفهم المطالب أو الشكاوى، وصاحب القصر يهدأ لحظة ليثور في اللحظة الثانية. يرفض الاجابة عن الاسئلة الدقيقة التي يوجهها الحكيم. لا يطلب، بوضوح، زيادة الاجرة. لا يطلب اخلاء القصر تماماً. وبعد الكثير من الصخب والحدة يتلخص الامر: بشراء القصر، أو اخلائه فوراً.

بعد جهد كبير، ويومين من المناقشات، تم الوصول إلى حل وسط: يعتبر عقد الايجار مستمراً لشهر أو اثنين، على أن يرفع السعر من خمسة عشر الف مارك شهرياً إلى مائة الف، وينظر في وضع الاثاث بعد انتهاء العقد.

لقد اعتبر الحكيم هذا الحل المؤقت مقبولاً ومرضياً في الظروف الراهنة، لانه الحل الوحيد الممكن عملياً، ولانه من الصعب أو المستحيل الوصول إلى حلول اخرى في ظل الحصار والمصاعب، اضافة إلى الانشغال بامور اكثر اهمية!

ما كادت هذه المشكلة تجد حلاً، حتى جاء مندوب البلدية، مع قائمة لا نهاية لها من الممنوعات، تحت طائلة العقوبة: يمنع بصورة قاطعة ذبح اية حيوانات في القصر. يمنع ايقاد النار. يمنع الجلوس في الشارع. يعاقب على الضجيج واقلاق الراحة، كما يعاقب على التلصص وازعاج الجوار.

والحكيم بكثير من الصبر والتهذيب ، وهدوء الاعصاب مع الابتسامة ، يحاول الاستفسار من مندوب البلدية فيما إذا بدرت من احد مخالفات من هذا النوع ، ويسأل ما إذا كان من الضروري التوقيع على الاستمارة التي قدمها إليه المندوب ، فيكون الرد : ابتسامة ساخرة اقرب إلىَ الاهانة ، مع كلمة قصيرة :

ـ انتم الآن في المانيا وتخضعون للقوانين الالمانية .

وحين اراد الحكيم أن يعرف اكثر من ذلك كان الرد اقسى من قبل :

ـ دائماً انتم الشرقيون تتظاهرون بالبساطة أو الغباء ، لكي تتهربوا من القوانين .

وفجأة خطرت للحكيم العجوز فكرة، وتراءى له احتمال ترحيله مرة أخرى، وهذه المرة ليس وحده، وإنما معه السلطان والآخرون، عندها ستحدث فضيحة لا يعرف مداها أو نتائجها. تناول الورقة لكي يوقع. قال له مندوب البلدية :

ـ لا يمكن التسامح مرة اخرى ، ولا يمكن السكوت !

وحين نظر إليه الحكيم مستوضحاً اضاف بحدة :

ـ لدينا من الشكاوي والوقائع ما يكفي لاحالتكم جميعاً إلى المحكمة ، وهذه وحدها تجعلكم تقضون بقية حياتكم في المانيا ، لكن نفضل لكم العودة إلى اوطانكم !

قال الكلمة الأخيرة بنوع من السخرية ، وكأنها تعريض واضح يشير إلى معرفته بعزل السلطان وعدم إمكانية عودته . رد الحكيم بخشونة :

ـ يجب أن تعرف انك امام رجال يعرفون القوانين ويحترمون الانظمة .

ـ المهم أن توقع الآن . . .

بنظرة خاطفة تطلع الحكيم ، ووقع ، وبعد أن سحب مندوب البلدية الورقة وطواها قال له وهو يبتسم :

ـ والمهم ايضاً أن تحترموا توقيعكم وأن تحترموا القوانين الألمانية!

.وعصر اليوم ذاته تظاهر الجوار :

عشرات السيارات المليئة بالشبان والشابات ، تمر امام القصر ، وكل من فيها يرتدي طرطوراً أو قناعاً ، وقد خطط عدد منهم وجوههم بالوان سوداء أو حمراء ، ومع ابواق السيارات يصرخ الشباب ويقومون باداء اشارات الاستهزاء ، ولم يتردد بعضهم في القاء زجاجات فارغة . لقد فعلوا ذلك مرات عديدة ، بين العصر والغروب .

وإذا استطاع الحكيم وزيد أن يخفيا عن السلطان مجيء صاحب القصر ، قبل يوم او اثنين ، ولم ينتبه احد لوصول مندوب البلدية ، وما دار من نقاش بينه وبين الحكيم ، لأن الحديث كله جرى بالالمانية ، وزيد الذي حضر جزءاً من الحديث ما لبث أن غادر الغرفة دون اهتمام ، أو حتى رغبة المعرفة . لم يستطع أحد إخفاء أمر المظاهرة التي جرت كما لم يستطع الحكيم أن يموهها أو أن يعطيها تفسيراً آخر.

في ذلك المساء قال الحكيم كل شيء :

ـ . . . يا طويل العمر هذه الديرة ليست ديرتنا ، نحن هنا ضيوف ، ومن شروط الضيافة أن يكون الضيف مؤدباً. . .

وهذه الديرة ، يا طويل العمر ، لها قوانين ، ومن شروط الاقامة فيها أن يلتزم الانسان بقوانينها. . .

وهذه الديرة ، يا طويل العمر ، لها اخلاقها ، ومن شروط قبول الاجنبي أن يتخلق باخلاق اهلها . . .

وكاد يستمر بهذه الطريقة ، لكن السلطان قاطعه بنزق :

ـ لكنا ما سرقنا ولا نهبنا يا ابو غزوان !

وضحك بسخرية واضاف :

ـ وما تعدينا على احد !

كاد الحكيم أن يتكلم ، لكن السلطان قاطعه مرة اخرى :

- لكن إذا طاح كبير القوم ، يا ابو غزوان ، طفيت نارهم ، وعلم الله أن نارنا طفيت ، والجماعة هنا يجربون سلاحهم بروسنا .

ضحك بسخرية اقرب إلى الحزن ، وقال بحدة :

- لكن يا أولاد الحلال، يا عباد الله الواحد، الواحد ما يجرِّب سلاحه بميت، ولا يمد يده إلى مال اليتيم.

وهز رأسه بلوعة واضاف كأنه ينتقم من نفسه :

- صحيح اننا طحنا ، لكن مثل ما قالوا جماعتنا : لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة ، وهذه الدنيا مالها امان ولا لها صاحب ، مثل ما كانت لنا صارت علينا ، وباكر ما احد يعرف ويش يصير!

حاول الحكيم أن يشرح ، من جديد ، الامور . قال ان الاخطاء ، فيما إذا كانت هناك اخطاء ، من الحرس والمرافقين ، ولذلك يجب أن يراقب زيد الامور ، وان يحرص على عدم مخالفة القوانين والتعليمات ، وذكر أن مندوب البلدية أشار إلى مجموعة من المخالفات التي وقعت، بما في ذلك نقف الحرس لبعض النساء بالحصى، أو التعرض لهن.

بعد الكثير من الحديث المتنوع والمتشعب طلب السلطان من زيد أن يكون حازماً ، وانه ينبّه على الحرس والمرافقين ، وان يعاقب المعتدين فيما إذا حصلت اعتداءات من اي نوع ، ووافق السلطان على استدعاء هانس اورلخت ، لكي يستعان به من اجل شراء القصر ، أو من اجل البحث عن مكان آخر للسكن .

وتم الاتفاق ايضاً على الاستعانة بالمحامي الذي اقترحه هانس، لمعرفة حقوق صاحب الجلالة ، مقابل الالتزامات والواجبات التي ترتبت عليه ، ولتحديد إمكانية التحرك في المانيا والاستفادة من الرأي العام. ورغم أن زيداً بدا مغيظاً اقرب إلى الحنق ، فقد اعترف انه سمح لرجاله بحرية كبيرة ، الامر الذي خلق بعض الاعتراضات وردود الفعل . لكن اعتبر ان الاستعانة « بعمي

يا بياع الورد وربعه » كما درجت التسمية ، « كمن يتقي الرمضاء بالنار » وطالب أن يذهب الحكيم إلى بون، وان يأتي بالسفير ، أو بأحد المسؤولين في السفارة ، من اجل ترتيب الموضوع . أما أن نكون « مطبّة للطالع والنازل ، للي يسوى واللي ما يسوى ، وان نسكت ، فالجماعة ياكلون وما يستوكلون ، يحللون وما يحرمون ، وإذا جماعتنا اخطوا فخطاهم اكبر ، وباكر تشوفون » .

لم تُجْدِ اعتراضات زيد ، إذ لم تمض بضعة ايام ، حتى اصبح هانس اورلخت شخصاً لا يفارق القصر ، وإليه يرجع في الكبيرة والصغيرة ، فقد عُيّن وكيلاً عاماً لصاحب الجلالة ، مقابل راتب شهري تم الاتفاق عليه ، تضاف إليه نسبة عن كل عملية يتولى القيام بها !

كـل يوم جديد ينقضي دون أن تظهر نتائج يتعكر مزاج السلطان اكثر من اليوم الذي سبقه . لا احد يعرف كيف يتعامل معه ، أو كيف يتصرف . والسلطان نفسه شديد التقلب والتغير : يسهر في بعض الليالي إلى أن يرى شمس النهار تبزغ . ويـأوي إلى فراشه ، في ليالٍ اخرى ، عند الغروب . يبدو في بعض اللحظات راغباً أن يكون الجميع حوله . وفي حالات غيرها لا يطيق حتى زيد الهريدي ، وينطبق الامر ذاته على الاكل والحديث ، عدا رغبة المضاجعة ، فقد تحوّل خلال هذه الفترة إلى « حصان شبابه » كما قال زيد ، إذ كثيراً ما ترك الآخرين وصعد إلى الطابق العلوي ، وكثيراً ما سمعت وداد الصهيل والصخب. كانت تشعر أن جسدها يضطرب ، فتحاول اشغال نفسها أو الابتعاد ، لكن مشاعر اللذة لا تفارقها ، وبمرور الأيام اصبحت تخاف على سلمى ، بعد أن اصبحت مثل خرقة مبلولة ، إذ علاها الشحوب ، وبدت متعبة ، والهالات الزرق حول عينيها . أما السلطان ، رغم الهرم والتعب ، فقد ظل مثل دب مسّن ، ولم يتردد في أن يطلب من الحكيم المقـويات ، كما لم يتردد في أن يطلب من شايع السحيمي استخراج كتبه لكي يقرأ له فيها أخبار النساء!

ومع هذا المزاج المتقلب تتغير الحياة ايضاً . فبعد ايام دافئة منعشة في اواخر مايس ، جاءت في نهاية حزيران ايام المطر . فجأة تتلبد السماء بالغيوم السوداء ، وتبدأ عربدة الطبيعة بالبروق والرعود الصاخبة ، ثم ينهمر المطر غزيراً سريعاً ، ومع انهماره تتولد في الصدور مشاعر الضيق والحزن ، فيصبح كل واحد من مرافقي السلطان في حالة من التوتر اقرب إلى النزق .

ويتعكر امزجة الرجال يصبحون اكثر استعداداً للحدة أو للصخب . فنزلاء الفندقين ، الذين كانوا يكتفون بالأسئلة أول الأمر ، ثم بدءوا يتساءلون ويتناقشون ، ولا يفعلون اكثر من الانتظار ، تحولوا إلى نوع آخر من البشر : عيون مليئة بالتحدي والسخرية ، خلافات لا تنتهي مع إدارتي الفندقين ، ثم تبدأ المعارك فيما بينهم . وحين نقل الجميع إلى القسم الخلفي من المقهى قريباً من البار ، تجرأ عدد منهم وشارك المترجمين بشرب البيرة أول الأمر ، ثم أصبح بعضهم لا يفيق من حالة السكر

وعندما سافرت الافواج الأولى عائدة إلى موران ، بدا وكأن الامور اخذت مساراً يمكن التحكم به ، إذ بالإضافة إلى جمع من تبقى من المرافقين في فندق واحد ، ونقل عدد منهم إلى القصر ، بناء لمشورة الحكيم ، بعد أن سحبت الحكومة الالمانية عدداً من الحرس الذين وضعتهم في البداية ، فإن حالة الترقب سيطرت على الجميع ، إذ لا بد أن تصل الاخبار التي طالما انتظرها الجميع ، خاصة وأنه اشيع عن قرب وصول عدد من الموفدين ، بمن فيهم مطيع . أما الذين تسببوا بمتاعب نتيجة السكر ، فقد نُبّه عليهم بشدة بلغت حد القسوة ، أن من يقبض عليه سكران فسوف يؤتى به إلى القصر ويجلد ، الامر الذي حدا بهؤلاء ، أو ببعضهم ، لان يشتروا المشروبات من البار ، أو من المخازن الكبرى ، ويحملوها إلى غرفهم ، وهناك يشربون ويسمرون ، بحيث اصبحت غرف كثيرة بارات ، أو حانات .

أما الحكيم الذي بدا متفائلاً ، أو هكذا تظاهر ، خلال الأيام الأولى ، فقد تغير . حصل ذلك ، أول الأمر ، بسبب وداد ، فحين « روضها » كما يقول لنفسه ، أو حين استرضاها مع وعود كثيرة ، كما تقول هي ، فإن سميراً « عنفص وتغير » . فبعد أن طلب مبلغاً من المال ، لكي يرسله إلى القاهرة ، لأن لديه التزامات ، كما قال ، ودفع إليه الحكيم بسرعة مع ابتسامة متفهمة ، ما لبث أن بدأ يعترض على الكثير من الافكار والاقتراحات التي يتقدم بها الحكيم ، اضافة إلى التلكؤ في انجاز الاعمال التي تم الاتفاق عليها ، واخيراً ، وقبل أن ينقضي شهر حزيران اختفى ، ولم يعرف ما إذا عاد إلى موران ، أو رجع إلى القاهرة !

حتى بدري المدلل ، الذي وُجد له مكان في المحرس ، وافردت له غرفة خاصة ، بدأ يتذمر ، ويرفض ، في حالات كثيرة ، أن يقص شعر الحرس والمرافقين ، بحجة أن ادوات الحلاقة مخصصة لجلالته ، «وانه حلاق السلطان، وما هو حلاق التنكة أو السحّارة في سوق الحلال». وبدا أيضاً شديد السهوم واضح القلق، إلى أن اتصل به موظف من السفارة، عن طريق احد المترجمين، وطلب منه أن يستعد للعودة إلى موران!

وإذا كان الحكيم افترض منذ البداية أن الزمن سيتولى حل بعض المشاكل، فإن مشاكل أخرى أخذت تظهر، وأخرى تتعقد بمرور الزمن. فالاعتراض العابر الذي بدر منه في معالجة مشاكل المرافقين مع إدارتي الفندقين ، «لان همنا اكبر من هذي الولدنات ، يا زيد» ، ما كان يتصور أن هذا الاعتذار بداية حرب بينه وبين زيد الهريدي. فالعلاقات بين الرجلين ، أو بالاحرى مواقف زيد ، بدأت تأخذ منحى جديداً . اصبح يتجنب الحكيم ، او يغرق في الصمت إذا جمعهما مجلس واحد . وبدأ يشير امام السلطان بطريقة واضحة إلى دور حماد فيما حصل ، وكيف اصبح شخصاً مهماً في موران ، واسمه يتردد على كل شفة ولسان . وهو حين يذكر حماداً بالذات فلكي يحمل الحكيم مسؤولية اختياره وتعيينه. أما عندما اخذت تصل جرائد موران ، وقد تعمدت السفارة ايصالها ، وكانت تمتلىء بالاشادة والتقدير للعهد الجديد ، وكانت صور رجال العهد وتحركاتهم تملأ هذه الجرائد ، فقد توافرت مادة جديدة للتعريض بالحكيم، خاصة من قبل زيد وشايع السحيمي ثم للتحريض عليه.

ولم يكن السلطان بحاجة إلى التحريض ، لان كل شيء حوله يثيره ويحرضه . فتأخر وصول الاخبار ، مثلاً ، أو مجرد نشر صورة لمطيع إلى جانب فنر ، بعد أن عُيّن مستشاراً في القصر ، أو صورة حماد ، وهو يمنح الاوسمة لدفعة جديدة من ضباط الشرطة ، تقديراً للخدمات الجليلة التي قدموها للسلطنة والحفاظ على الامن إن اياً من هذه الامور كفيل بان يجعل ذلك اليوم جحيماً لكل من في القصر . فإذا جاءت تعريضات زيد أو سخرية شايع ، فعندئذٍ يضطر الحكيم للانسحاب ، متذرعاً بالمرض ، أو ضرورة

تناول الدواء ، أو بحجة مواصلة العمل على البيان الذي يعده « لينشر في جميع انحاء العالم » كما كان يقول! وحين تبدو مثل هذه الذرائع واهية ، أو تتكرر مرة بعد أخرى، يخفض رأسه، ويزرع عينيه في مكان، أو ينشغل بسبحته، في محاولة لأن يهرب من كل ما حوله. فيهمس زيد في اذن شايع، وهو لا يخفي ابتسامته: «سبت ابن الحرام».

الاتصالات بين بادن بادن وموران صعبة ، ويتخللها الكثير من المنغصات ، فهي مع القصر غير ممكنة ، أو تنقطع خلال اللحظات الأولى . ومع الآخرين مشوشة ومراقبة ، وكثيراً ما تدخل الرقيب مشعراً أو منبهاً الطرفين انه ينصت ويسجل كل كلمة . والسلطان الذي افترض ، أول الامر ، أن مجرد امكانية الاتصال مع موران سيحل المشاكل وينهي هذا الكابوس ، ما لبث أن تأكد من خطأ هذا الافتراض . وحين تجنب الاتصال بنفسه ، طالباً من الآخرين أن يتصلوا ، كان مجرد انتظار مثل هذه الاتصالات عذاباً لا يطاق ، إذ بعد ساعات من الانتظار ، والتأكيد مرة بعد اخرى على الطلبات ، كان يأتي الجواب : « الخطوط مقطوعة « أو « الرقم الذي تطلبونه لا يجيب » .

والسفير الذي كان يردّ بعض المرات على اتصالات زيد أو الحكيم، ويبدو، في حالات كثيرة، مهذباً وراغباً في التفهم والمساعدة، ما لبث أن أخذ يتهرب، فيجيب مرة ولا يجيب أخرى، أو يرفع صوته مدعياً أنه لا يسمع، ثم فجأة يتقطع الاتصال! وفي وقت لم يتأخر أصبحت اجابة عامل المقسم تتكرر: «سعادة السفير غير موجود» دون رغبة في أن يضيف كلمة أخرى، حول ساعة عودته. وحين سافر بعض الذين رافقوا السلطان، عائدين إلى موران، سافر هو أيضاً للتشاور، وطال بقاؤه في موران، دون أن يعرف أحد متى يعود، ودون أن يكون أحد مسؤولاً في السفارة اثناء غيابه !

وعشرات المنغصات اليومية تحدث في حدود هذه المساحة المسورة من بادن بادن ، فلا يعرف احد كيف يواجهها .أو كيف يتغلب عليها .

قبل أن ينقضي الشهر ، وفي هذا الجو من الانقطاع والارتباك والحيرة

والمرض ، جمع السلطان عدداً من الرجال لكي يتشاور معهم ، ويتخذ قراراً .

كان في حالة من الضعف اقرب إلى الانهيار . لم يخف ذلك ، وما كان ليستطيع حتى لو اراد . كان بادي المرض ، وقد اضطر إلى حمل عصا ، اشتريت له على عجل، «لأن الادراج تتعب والركب ما تحمل». وترك لحيته تطول اكثر من السابق، دون رغبة في ان تقصّ او تهذب ، كما فعل في المرة الأولى . أما وجنته فاصبحت ترتجف بوتيرة اسرع ، ومن يـرها لا يتمالك نفسه من الضحك لهذا الرقص الرتيب المنتظم .

في هذا الاجتماع الذي خيم عليه الحزن ، تكلم السلطان ، عكس المرة السابقة. تحدث عن الزمان وخياناته؛ عن الأصحاب وتخليهم ؛ عن الاخوة وكيف تغيروا . وتحدث عن الناس ، قال انهم يقفـون مع القوي الذي يخافونه، ومع مصالحهم. كما أشار بحزن، بلغ درجة المرارة، إلى أن الحياة تغيرت كثيراً عن السابق ، ويعتبر نفسه احد الذين تسببوا في هذا التغير ، نتيجة التساهل والسماح بوصول الاجانب . وقال اخيراً :

- وإذا الوجدان ما صحي ، والناس ما رجعوا إلى حليبهم ، فالأيام الجاية اصعب من اللي راحت .

وقال اشياء اخرى ايضاً . وفي لحظة معينة سقطت دموعه دون ارادة ، وخيّر كل واحد من الذين رافقوه بين البقاء أو الرحيل ، « لان الله لا يكلف نفساً الاّ وسعها » واقسم انه لن يلوم احداً على اي قرار يتخذه .

حاول اكثر من واحد أن يتدخل ، أن يهدد. دق السلطان الارض بعصاه ، ورفع يده وهو يقول بحزن :

- يا جماعة الخير . . . حنا اليوم بديار غريبة ، بعيدين ومقطوعين ، ولو كنا بديرتنا ، بين اهلنا وعشيرتنا ، كانت الامور اختلفت . ومثل ما قلت لكم : ان الله لا يكلف النفس الا وسعها . وشوري عليكم أن تكونوا هناك ، لانكم هناك تفيدون ، وعسى أن الله يقدّرنا ويرجعنا ، وعندها الله كريم ، ما ننسى لاحد افضاله .

قال الحكيم ، في محاولة لان يعطي المناقشة عمقاً إضافياً :

- يجب أن يتم العمل على خطين ، يا طويل العمر ، خط الداخل وخط الخارج ، واقتراحكم أن يعود معظم الاخوة اقتراح صائب ، وارى تنفيذه دون ابطاء ، لان الموجودين في الداخل سيكونون عدة لنا وذخراً ، وسوف يقومون بالاتصالات التي تكلفونهم بها ، كما أن مجرد وجودهم هناك سوف يؤثر نفسياً .

تلفت اكثر من مرة ليرى اثر كلماته ، فلما وجدهم صامتين تابع :

- والزمن الذي نعيش فيه ، يا طويل العمر ، اوجد ارتباطاً وثيقاً بين العلاقات الداخلية والعلاقات الخارجية ، بين موران والدول الأخرى ، خاصة الولايات المتحدة ، ولذلك يجب أن نعمل على هذا الخط ، وانا واثق أن النتائج ستكون ايجابية وقريبة .

رد السلطان ، وكأنه يكلم نفسه :

- اي بالله ، والواحد معهم كأنه بحضن امه وأبوه!

قال زيد الهريري :

- امّن البزّون شحمة . . .

والتفت إلى شايع السحيمي ، وقال له بسخرية :

- ترى حقنا وصلنا يا ابو عاهد!

لكي يخفف الحكيم من وقع خيبة الأمل بعد تأخر مطيع ثم اعتذاره عن المجيء ، تذكر الكلمات التي قالها غزوان في احدى المناقشات : « تزايد أهمية السلطنة للاقتصاد العالمي يترافق مع انتقال القرار من الداخل إلى الخارج، إذ كلما اصبحت موران أكثر أهمية أصبحت أقل قدرة على اتخاذ القرار». ويتذكر أن غزوان لامه على انشغاله بالموضوعات الصغيرة، كانتخاب غرفة التجارة أو انصرافه إلى الكتابة وما شابه ذلك.

الآن تتكشف امامه الحلول المناسبة : يطلب من غزوان المجيء إلى بادن ـ بادن ، يفهم منه رأي الدوائر المسؤولة ، يتفق معه على ترتيب زيارة لصاحب الجلالة إلى الولايات المتحدة ، والالتقاء فيها بالمسؤولين ، ويتفق مع هؤلاء على كيفية العودة . هذه المرة يجب أن يكون الشخص الاساسي ، كل شيء ، في المفاوضات ، في الاتفاقات . يجب أن يبحث الصغيرة والكبيرة، أن يدقق في تقرير صيغة السلطنة التي يجب أن تكون . لم يعد يثق بالآخرين ، أو أن يكلفهم بمهام كبيرة ، عليه أن يتولى الامور بنفسه ، لانه لا يريد أن يكرر الاخطاء السابقة .

احسَّ بالراحة والانتعاش . كان يجب أن يفكر هكذا منذ اللحظة الأولى ، لام نفسه أنه لم يفعل . قال ، وكانت الكلمات صارمة ليخفف شعوره بالخطأ : « الآن يُمكن أن نملي شروطنا ، خاصة بعد أن جربوا غيرنا واكتشفوا عدم جدارتهم».

بكثير من الانفعال ، وقد تخيّر وقتاً مناسباً ، شرح للسلطان خطته ، وعرج

بثقة ، وان يكن باشارة سريعة ، على ما سمعه من غزوان ، وكيف انه اخطأ إذ لم يول هذه الفكرة ما تستحقه من الاهتمام . ثم ذكر مزايا غزوان وما اكتسبه من خبرات ، اضافة إلى العلاقات الواسعة التي نشأت له في الولايات المتحدة . وكيف انها ستفتح الابواب وتغير المعادلات كلها .

استغرب أن السلطان لم يشاركه الانفعال . كان يكتفي بالاستماع ويهز رأسه بين فترة واخرى . وحين عرض عليه أن يستدعي غزوان فوراً ، وان يتم التداول معه بهذه الحطة ، قال السلطان ، وخرج صوته مسكيناً :

- تذكر يا حكيم : قلنا لغزوان أن يكون قريباً منا ويشور علينا ، لكن الله يسلمه ، ظل بعيد .

- اشغاله ما سمحت له يا طويل العمر !

- ادرى . . . ادري يا ابو غزوان !

هكذا رد السلطان ، وكان لا يخفي تعريضه ، وحتى سخريته . قال الحكيم في محاولة للدفاع :

- تتذكر مسألة تسليح الجيش يا طويل العمر . . وتتذكر . . .

- اتذكر كل شيء يا ابو غزوان !

- انا من رأيي أن نستدعيه وان نتشاور معه .

- يا حكيم غزوان مثل ما هو ولدك هو ولد لنا ، ونحب نشوفه بكل وقت . . .

وبعد قليل وبحزن :

- لكن ظني أن وقت التكليم راح وانتهى !

رد الحكيم بانفعال :

- اترك المسألة عليّ يا طويل العمر ، أنا اتابعها ، وانشاء الله ما يصير إلا الخير !

- لا تتعب روحك يا ابو غزوان ، تراك تعبت وشقيت اكثر من اللازم .

ـ التعب ما له قيمة ، يا صاحب الجلالة ، المهم أن نصل إلى نتيجة .

ـ على خيرة الله .

في تلك الليلة ، وفي اليوم التالي ، ذهبت محاولات الحكيم للاتصال بغزوان عبثاً ، ولقد لعن في سره كروية الارض وفرق التوقيت مئات المرات ، لان هذه الاميركا يبدأ يومها حين ينتهي يوم الآخرين ، ويبدأ ليلها حين يُغرق النور باقي اجزاء الارض . لا يعرف متى يبدأ غزوان عمله ومتى ينتهي منه ، ولا يعرف هل هو في سان فرانسيسكو أم خارجها . وماذا لو كان مسافراً ، مثل سفراته السابقة ، إلى البرازيل أو اليابان أو إلى اماكن اخرى ؟ .

وعنّ له لو يسافر إلى هناك بنفسه ، أن يصطحب وداداً مثلما اصطحبها قبل بضع سنين ويسافر . سوف ترتاح قليلاً ، وسوف يتغير مزاجها ، ولا بد أن يلتقي غزوان هناك على انفراد ، ويتباحث معه ، دون ازعاج الآخرين أو تدخلهم . سوف يبحث معه كل شيء ، ويطلب منه أن يمهّد للاتصالات التي سيجريها السلطان . إن ذلك لو جرى سيختصر الكثير . ومن هناك ايضاً يمكن الاتصال بموران . سيتحدث إلى مطيع وحماد وآخرين . لن يقول لهم انه في الولايات المتحدة ، ولن يقدروا ، وربما وجد الكثيرين هناك من معارفه أو مرؤوسيه السابقين .

في اليوم الثالث ، عند الفجر ، استطاع الاتصال بغزوان . كانت لحظات متفجرة على الهاتف . صحيح أنه ظل متماسكاً حين تحدث إليه وحين سمع صوته ، أكثر من ذلك طمأنه أنه وجميع افراد العائلة بخير . لكن لم يستطع أن يتماسك حين بدأت دموع وداد تنهمر وهي تتحدث مع غزوان . احس انهما تعيسان أكثر من الآخرين ، وانهما بدّدا حياتهما في أشياء وأماكن لا طائل من ورائها . وعنّت للحكيم الرغبة أن يوقظ السلطان وسلمى ، وان يطلب منهما التحدث مع غزوان ، لكن الفكرة تراجعت حين نظر إلى ساعته ووجدها الثالثة والنصف .

تسلّم سماعة الهاتف من جديد ، كانت مبتلة من العرق والدموع ، قال لغزوان بلهجة حنونة ، لكن لا تخلو من حزم إنه يريد منه المجيء إلى بادن

بادن ، وان يكون ذلك اليوم قبل الغد ، قال هذه الكلمات وشعر أن غزوان ، في الطرف الآخر ، قد ارتبك . إذ تنحنح اكثر من مرة ، وطال الصمت الفاصل بين كلمة وأخرى. وحين اكد عليه من جديد أن الأمر يتجاوز الاشتياق والرغبة في اللقاء إلى امور اخرى ، وان السلطان يريد أن يراه ايضاً ، فقد رد غزوان باعتذار حانق ، أن لديه مجموعة هامة جداً من المواعيد خلال الأيام القادمة ، ولا يستطيع ، باي شكل من الاشكال ، الغاءها أو تأجيلها . ولما سأل من جديد متى يستطيع أن يأتي ومتى تنتهي مواعيده رد بأنه لا يستطيع اعطاء أي جواب الآن ، لكنه سيبقى على اتصال .

انتهت المكالمة بعد نصف ساعة. تبادل الحكيم السماعة مع زوجته عدة مرات ، وتغيرت لهجة الحديث عدة مرات ، لكن لم يستطع الوصول إلى نتيجة محددة . أما عندما اقترح عليه أن يقوم هو وامه بزيارته ، فقد كان رد غزوان اوضح :

- هذه الفكرة احسن ، واميركا كبيرة ، إذا ما التقينا بسان فرانسيسكو يمكن أن نلتقي في نيويورك أو في مكان آخر .

لم يستطع أن ينام بعد هذه المكالمة ، كان منفعلاً حانقاً ، وكان اقرب إلى التشوش ، « فهذا الغزوان يزداد بعداً واختلافاً كل يوم ، بل ويزداد غموضاً ايضاً . كيف يفكر وماذا يريد ؟ صحيح انني لا افهم افكاره ، لكنه ، كما يبدو لي ، شديد الذكاء. قد تختلف افكارنا ، ربما نتيجة فارق العمر واختلاف الاجيال، وقد لا يفهم أحدنا الآخر بسرعة أو بسهولة، بسبب تباين التربية أو الدراسة ، ومع ذلك يجب أن ابذل جهداً اضافياً من اجل أن اقترب منه ، لكي افهم ما يقوله وما يعنيه . والكرة في ملعبي الآن ، كما يقولون ، ولذلك عليّ أن اعرف كيف اتصرف » .

لما سأله السلطان ، عرضا ، بعد بضعة ايام ، ما إذا اتصل بغزوان أم لا فوجىء بالسؤال وارتبك ، إذ رغم أنه هيأ نفسه لهذا ،وهيأ الاجابة ، فقد ظل محرجاً. راودته نفسه أن يكذب ، أن يموه الاجابة فيجعلها غامضة ، لكنه وجد نفسه يقول :

- اتفقنا ، يا طويل العمر ، أن اسافر انا وام غزوان إلى هناك !

فوجىء السلطان ، إذ لم يقدر احتمالاً مثل هذا . تابع الحكيم موضحاً :

- وهناك يمكن أن تجري مجموعة من الاتصالات تمهد لزيارتكم يا صاحب الجلالة .

قال السلطان وكأنه يحدّث نفسه :

- ترى اللي يروح بدون دعوة يقعد على غير بساط يا ابو غزوان !

وتطلع إلى عيني الحكيم بتركيز واضاف :

- لما كنا بحيلنا وقوتنا ، يا ابو غزوان ، ما قالوا لنا تفضلوا ، ما قالوا تعالوا يا جماعة الخير ، تريدهم هالحين ينتخون ويقولون : تعالوا ؟

واضاف بعد قليل ، مع تنهيدة طويلة :

- بلادي وان جارت عليّ عزيزة   واهلي وان ضنوا عليّ كرام

وهز رأسه عدة مرات :

- لكن الظاهر انه ما ظل لنا بلاد أو عباد ، يا ابو غزوان . البلاد بعيدة أو راحت ، والاهل ما عادوا اهل .

وبأسىً كاوٍ يخفض صوته وهو يردد :

- وظلم ذوي القربى اشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

الحسام المهند

المهند

ولم يتأخر الحكيم ، ابلغ وداد بالسفر ، وطلب منها أن تستعد . امتلأ يقيناً انه سيتوصل إلى نتائج حاسمة خلال فترة قصيرة . سيبلغ السلطان بهذه النتائج ، لكن يجب أن يفعل ذلك بطريقة ذكية ، لئلا تنكشف الامور . يتفق معه على مجموعة من المصطلحات والرموز ، لكي يتبادلا الاخبار والتقديرات دونما احساس بالخطر أو بالمراقبة . وسوف يتفق مع غزوان على طريقة

لمواصلة الاتصالات في المستقبل أيضاً!

حين ارتسمت له الصورة كاملة بدا اكثر راحة وتفاؤلاً . المهم أن يلتقي بالمسؤولين الاميركيين لكي يبحث معهم كامل التفاصيل . يتذكر كيف كانوا يتبادلون النظرات وهو يتكلم ، وهو يجيب عن اسئلتهم اثناء زيارته، كانوا لا يخفون اعجابهم . الآن يمكن أن يتوصل معهم إلى النتائج المرغوبة دون جهد ، سوف يقنعهم بكل تأكيد . وسوف يعود إلى موران منتصراً .

عندما بدأ الحكيم بالاجراءات العملية واجه صعوبات لا حدود لها ولم يتوقعها : القنصلية الأميركية في شتوتغارت لن تستطيع مساعدته بأكثر من ارسال طلبه إلى السفارة في بون، والافضل أن يقدمه بنفسه هناك . والسفارة في بون لا تمنح السمات إلا للالمان أو المقيمين بصورة دائمة ، ولا بد من استشارة واشنطن في جميع الحالات . وواشنطن تجيب « على طالب السمة أن يحصل عليها من موران ، أو أن يحصل على موافقة حكومته ! » .

بعد انتظار وشروح لا نهاية لها ، وبعد اتصالات عديدة بغزوان ، والذي أوضح أنه لا يستطيع مخالفة القوانين الاميركية ، وافقت السفارة على منح وداد سمة لزيارة ابنها ، وابلغت الحكيم أن طلبه « قيد الدرس » ، وحالما تتلقى جواباً من واشنطن سوف تقوم بابلاغه الجواب .

بعد عشرة ايام من سفر وداد ، وبعد محاولات عديدة ، في الليل والنهار ، لقط غزوان :

- الله يصلحك ، نطفت قلبي يا غزوان . كل يوم عشر اتصالات ، عشرين اتصال ، وحضرتك غير موجود .

كان جواب غزوان ، في الجهة المقابلة ، ضحكة رنانة فرحة . واستشاط الحكيم :

- اي والله الحق معك ، شو على بالك ، اضحك كمان .

ولا يتردد غزوان في مواصلة الضحك . يزمجر الحكيم :

- مالك حق يا ابني ، وانا زعلان منك ومن الخانم ، امك ، كتير .

وبعد أن يستمع إلى شرح غزوان كيف انتظر امه في نيويورك ، وانه تجول معها في عدة مدن اميركية قبل أن يصلوا أول امس إلى سان فرانسيسكو ، يرد الحكيم بحزم :

ـ يا حبيبي ، يا عيني ، كان لازم من اي مكان انت فيه تتصل ، تقول : انا بالمدينة الفلانية ، يا جماعة الخير ، انا مبسوط ، والوالدة وصلت . . .

وبعد قليل وقد عاد لصوته شيء من الغضب :

ـ تخسر شي لو فتحت تلفون وقلت كلمة ، كلمتين ؟

وبعد أن يطيب غزوان خاطره ، ويعد بالاتصال ، يسأله الحكيم من جديد :

ـ وامك ، يا غزوان ، كيف صحتها واحوالها ؟

وقبل أن يستمع إلى كامل اجابته يقول له :

ـ إذا كانت قريبة خليها تحكي معي .

حين يسمع صوت ضحكتها الرنانة ، وكلماتها المتداخلة بين الاعتذار وعدم معرفتها الاتصال وانشغالها ، يصرخ :

ـ وينك يا بنت الحلال ؟ هيك اتفقنا ؟

وتضحك . ترتخي اعصابه ، يصبح مستعداً للتسامح والنسيان . يقول لها وكأنه يهمس :

ـ كيف اقتنع معك ؟ وافق ؟

تجيب عن سؤال آخر . يهز رأسه بحزن ويتابع :

ـ مثل ما اتفقنا يا حبيبتي . ابذلي كل جهدك ، ولازم ترجعوا بسرعة .

وحين توضح له انها لم تسترح بعد من عناء السفر ، وعليه الصبر والانتظار ينفعل :

ـ يا حبيبتي يا عيني : لاحقين على السفر وشمات الهوا . بس الآن في قضايا

اكبر واهم ، ولازم تساعديني ، فهمانة ؟

وتؤكد له انها فهمت ، لكن القضية ليست بالسهولة التي يفترضها . يصرخ بحدة :

- اعطيني غزوان .

وتتغير اللهجة ، تصبح صارمة :

- ها يا غزوان ، شو صار بسمة الدخول ؟

ويفهم منه ان القضية تتطلب وقتاً ، وربما وقتاً طويلاً ، فيهدر صوته :

- لك يا حبيبي ، المرة الماضية اعطوها على الحارك . ساعة ما تحملت ، بدون اسئلة وبدون مراجعات ، شو صار بالدنيا ؟ ليش هالعرقلة والتعقيدات؟

وجلس على طرف السرير ، بعد أن تعب من الوقوف والحركة ، وتغيرت اللهجة :

- اسمع يا غزوان : لازم نلتقي ، وأنا لو أعطوني السمة لكنت ثاني يوم عندك ، لكن ما دام تأخروا فانت احمل حالك وتعال . الموضوع هام ولا يحتمل التأخير .

وينقطع الخط فجأة . ويبذل الحكيم جهوداً خلال ساعة أو أكثر ليعاود الاتصال ، لكن لا يوفق ، فيأوي إلى فراشه وخيوط النور تتسرب عبر النافذة . يحاول أن ينام فلا يستطيع . يتخيل وداد ، ترن ضحكاتها في اذنيه . يحس انهما سعداء . يقول لنفسه : « طبيعي ، الصياد يتقلى والعصفور يتفلى . الجماعة مبسوطين ، مروقين ، وحضرتي ملعون سنسفيل اجدادي وآكل خرا » .

يتقلب في الفراش ، لكن النوم لا يأتيه . يسمع جلبة تبديل الحرس ، يقول في نفسه : « المرة الماضية بدون طلب : تفضل يا دكتور ، ونحن سعداء بزيارتك . ولازم تقوم بجولة على جميع الولايات ، ولازم تكون ضيف

الحكومة الاميركية . هذه المرة : يا جماعة الخير اريد زيارة ابني . ابني غزوان ، والكل يعرفه ، لكن : متأسفين . يجب أن تقدم طلباً وتنتظر. ويجب أن يتضمن الطلب معلومات حتى الجد السابع ، وان تذكر فيه جميع الامراض التي اصيبت بها العائلة ، خاصة البلهارسيا والتراخوما ، وكأن الواحد مصاب بالجذام ويخافون منه ، أو لا يريدونه».

وماذا يقول للسلطان ؟ وكيف يرد على نظرات زيد الساخرة ؟ ويتذكر كلمات زيد عندما بدأ يستعد للسفر :

- يا ابو غزوان : شوري عليك أن تبقى ، لأن طويل العمر يتونس بوجودك، وما يقدر على فراقك !

ولما اوضح له الحكيم أن السفرة ضرورية إلى اقصى حد ، وتتوقف عليها نتائج كبيرة ردّ زيد بسخرية :

- من مغرب ، يا أبو غزوان ، ما جتنا الا البلايا ، من حماد وجماعة حماد ، وامثالهم ، والأخْيرَ أن نتركهم .

حاول الحكيم تغيير الموضوع :

- مجرد زيارة لغزوان .

- وعلامة ما يجينا ؟ ما يسأل عنا ؟ وإلا الدنيا صارت بالعكس : الكبار يروحون للصغار ؟

وتتحول المسألة في ذهن الحكيم إلى تحدٍ ، أو ما يشبه عناد الاطفال : « يجب أن يأتي ، ومهما كانت اشغاله يمكن أن تؤجل » . ولا يصبح لديه همّ إلاأن يتصل به، لكن معظم محاولاته تصطدم بالصمت . وترن في اذنيه ضحكات وداد « قادرة تطلّع الحية من جحرها ، ولا بد أن تقنعه » .

ومع كل محاولة جديدة للاتصال تطول قائمة الاسئلة التي دوّنها لكي لا تفوته اية قضية . لكن التلفون ، هذه الآلة اللئيمة، لا يجيب ، أو أنه مشغول في الغالب « هؤلاء الالمان لا يعرفون شيئاً سوى الثرثرة . انهم يقضون حياتهم يثرثرون في مشارب البيرة أو بالتلفون». ثم يفترض أن تلفون غزوان هو المشغول « الا يستريح ؟ وهل لديه كل هذه الاشغال والعلاقات التي تجعل

تلفونه مشغولاً بصورة دائمة ؟ » ويعاود ، من جديد ، حساب فرق التوقيت بين المانيا والولايات المتحدة ، خاصة الساحل الغربي ، هذه المسألة تقلقه تماماً ، أو بالأحرى لا يستوعبها بالمقدار الكافي ، ومع ذلك لا يكف عن المحاولة .

ذات مرة ، بعد الغداء مباشرة وبعد ذلك السؤال اللئيم من زيد عن موعد سفره ، وربما عرف أن السفارة الاميركية رفضت منحه السمة ، بدأ يحاول الاتصال . بعد عدة محاولات رن التلفون في الجهة الاخرى . امتلأ فرحاً . نسي كل تعبه السابق ، وقدر ان الوقت مهما كان متأخراً فلا بد أن يجري حديثاً هادئاً وحاسماً .

للحظة سمع صوتاً في الجهة الأخرى . قدر أنه صوت غزوان . كان الصوت بين النوم والغضب . قال بضع كلمات بالانكليزية ، وخبط سماعة التلفون .

لم يصدق. لا يمكن أن يحصل هذا، لا بـد أن يكون هناك خطأ من نوع ما، فغزوان شديد الأدب ولا يمكن أن يتصرف بهذه الطريقة!

ولم يستطع أن يهدأ الا بعدما أقنع نفسه أن الصوت الذي سمعه لشخص آخر، غير غزوان، ولا بد أن يكون قد أيقظ ذلك الشخص من النوم في هذه الساعة المتأخرة من الليل. ولم ينم في تلك الليلة إلا بعد أن ابتلع حبة ڤاليوم.

وزيد لا يتركه، لا يسهو عنه يوماً واحداً، فإذا لم يطلب منه تلك الطلبات «المتعلقة بالمعيشة» كما يسميها، والخاصة بالمعاملات والاتصالات والأوراق، فلا بد أن يسأله، وبطريقة ساخرة، عن مطيع أو سمير أو غزوان. فإذا تجنب هؤلاء، يسأله عن الأخبار، وهو بأسئلته، والتي ترافقها الابتسامات، يعرّض به، يتهمه. وتكون اجابات الحكيم سريعة مختصرة، حادة، فيهز زيد رأسه دلالة الفهم والاقتناع، لكنه وهو يفعل ذلك، يثير الحكيم اكثر من قبل!

لو اقتصر الامر على هذه الواجبات والاسئلة لاحتمل الحكيم ، لكن نزلاء الفندق اصبحوا هماً مستمراً ، فهم لا يفعلون شيئاً سوى العراك ، وعلى

مرأى من الناس. كما لا يتردد عدد منهم في شرب الخمر علناً، وما يستتبع ذلك من تعديات على الآخرين ، أو النوم في ممرات الفندق ، رغم تدخل الشرطة والعقوبات التي توقع على الكثيرين في ساحة القصر.

الأيام التي خلت من المعارك لم تخل من الأخبار. فإذا خلت من الاثنين معاً، فلا بد أن تمتلىء بالأمطار والأحزان والانتظار.

كل شيء في القصر ثقيل خانق ، الامر الذي دفع الكثيرين إلى الصمت ، ودفعهم لأن يأووا إلى فراشهم مبكرين . وفي وقت لاحق دفعهم إلى العزلة ، لأن كل كلمة تسبب اختلافاً ، واية نظرة تولد شقاقاً وسوء فهم .

وليالي بادن بادن ليست مثل اية ليالٍ غيرها ، فهنا الصمت قوي فضّاح ، والظلمة لها بريق يُغشي البصر ، فإذا امتلأت بالرعود والامطار ، فعندئذٍ يحس الانسان انه محاصر بآلاف الاعداء ، وعندها يغادره النوم ، وتستيقظ فيه المخاوف ، فلا يعرف هل يبقى حيث هو ام يهرب إلى اي مكان آخر لعل فيه تكون النجاة .

الحكيم يمتلىء تصميماً ، مطلع كل نهار ، أن يكون أكثر حكمة واكثر صبراً ، وان يستفيد من وقته كله ، لكن مع ارتفاع الشمس وتقدم النهار لا بد أن تقع عشرات المنغصات التي تجعله ينسى . فإذا لم يأت هانس اورلخت ، فلا بد أن يتصل تلفونياً . وبوجوده ، او باتصاله ، تنبع المشاكل الصغيرة : كتابة مذكرات لوزارة الداخلية من اجل تمديد اقامة الحرس والمرافقين ؛ مذكرات للمشافي ، تأمين المؤونة والاسفار ، اضافة إلى رسائل المصارف والتحويلات . ان هذه الاعباء تقع على كاهله في الغالب ، لأنه الوحيد الذي يحسن الألمانية، بعد أن سُحب أغلب المترجمين، واضطر من بقي منهم إلى ملازمة نزلاء الفندق.

إذا انتهت هذه المشاكل ، وغالباً ما يتخللها الكثير من الاختلاف والتصحيح واعادة الكتابة ، وزيد دائماً المتسبب بهذه « المنغصات » كما يسميها الحكيم ، فلا بد أن تكون الاخبار الواصلة من موران ، أو التي لم تصل ، سبباً لمزيد من المشاحنات والاختلافات ، خاصة حين يدعو السلطان

إلى اجتماع من اجل التشاور . فغالباً ما يتسمم الجو بسرعة في هذه الاجتماعات ، لان كل كلمة ، ونظرة ، وحتى الابتسامة الصغيرة ، تفهم على انها تحدٍّ أو تعريض ، وكل تصرف يمكن أن يفسر تبعاً للعلاقة ، وعمن يصدر ..

من اكثر الشخصيات التي تثير استغراب الحكيم وتساؤله : الامير مجحم. إذ رغم السنوات الطويلة التي قضاها في موران ، وتعّرف خلالها على كل شيء ، ولم يبق احد ، تقريباً ، إلا وعرفه أو عرف عنه شيئاً ، فإن الامير مجحم ظل بالنسبة إليه محيراً ، فهو بالإضافة إلى غموضه ، مرهوب ومحبوب من جميع الاخوة ، وان كان مختلفاً عنهم . وهو قدر ما كان موجوداً كان غائباً ، لأن الفترات التي يقضيها في البادية ، ومن اجل القنص ، اطول من الفترات التي يقضيها في أي مكان آخر .

التقى به الحكيم مرات قليلة ، أو على التحديد لا تتجاوز الثلاث عدّاً ، ولا تتجاوز الساعة الواحدة في مجموعها . أول مرة جاء الامير لالقاء نظرة على الحصان الذي قدمه الحكيم للسلطان في عيد الجلوس . المرة الثانية التقى به في البادية ، ولم يعرفه أو لم يميزه من رجاله لأول وهلة ، كما لم يطل الامير وقوفه لانه كان مشغولاً بصقوره ، وبرغبة متابعة القنص .

المرة الثالثة كانت في حضرة السلطان ، وكانت اطول المرات . ففي احدى زيارات الامير إلى موران ، جاء للسلام على اخيه السلطان ، وكان الحكيم موجوداً ، وقد انقضى الوقت في الحديث عن الرحيبة . كان الآخرون يتحدثون وكان يستمع . لم يتكلم الامير ولم يعلق. وما نعت نظر الحكيم الضحكة العالية المجلجلة التي كانت تميز الامير ، حتى ليظن من لا يعرفه أنه لا يحسن الكلام ، او يكتفي بيده وعينيه وسيلة للتعبير .

ولان الامير مجحم كثير الغياب ، ويختلف عن الاخوة الآخرين ، فلم يرد ذكره إلا نادراً ، أو حين يجري الحديث عن الصيد .

الآن ، بعد مكالمة هاتفية مضطربة وسريعة من السفارة في بون، انتشر

خبر وصول شخصية كبيرة من موران ، وان هذه الشخصية ستصل لمقابلة السلطان بين لحظة واخرى .

قال الحكيم ، ولم يستطع ان يخفي اضطرابه :

- الزائر الذي سيصل هو الامير فنر . . . بكل تأكيد .

رد زيد ، وهو يتطلع إلى السلطان :

- الأخْير أن ننتظر وتشوف ، يا طويل العمر .

- طويل العمر لا يتباحث إلا مع أهل الحل والعقد ، ويجب أن يعرفوا ذلك .

هكذا قال الحكيم ، في محاولة لأن يضغط على السلطان . رد زيد بحنق :

- وكل الله يا ابو غزوان ، والامر امر جلالته .

قال السلطان بحزن :

- خلنا أول مرة نشوف الرسول ، وبعدها الله كريم .

وفكر الحكيم أن توضع مذكرة تتضمن شروط صاحب الجلالة ، لكن جو الصمت الذي خيم ، الذي كان اقرب إلى الحزن والهم ، جعله يصرف النظر . ومع ذلك بدأ يرتب الامور في ذهنه ، وكان مستعداً لأن يهمس في اذن جلالته بهذه الشروط إثناء المباحثات !

كان الزائر الامير مجحم ، وصل والسفير . وخلال الدقائق القليلة التي استغرقها الاستقبال والسلام ، تحرك الحكيم كثيراً ، وبدا في حالة من التفاؤل اقرب إلى التألق ، خاصة وان طريقة سلام الامير كانت حارة ، وايضاً شديدة الود ، أقرب إلى الاعتذار . للحظات بدا السلطان شخصاً آخر ، إذ عاد لعينيه البريق وابتسم ابتسامات واسعة، انعكست بالرضا على وجوه الجميع، بمن فيهم السفير الذي كان شديد الحرج خلال اللحظات الأولى .

بعد ذلك ، وبطريقة اقرب إلى التآمر ، انسحب السلطان واخوه إلى غرفة مجاورة ، وظلا وحدهما ساعات عديدة .

كانت صدمة كبيرة للحكيم ، فهو الآن اكثر من مجرد مستشار لجلالته، كما كان الضحية الأولى للمؤامرة ، لـذلك لا يمكن ولا يوافق أن يكون بعيداً ، أو أن يعود كنتيجة لاتفاق الاخوة . يجب أن يعتذروا له ، وان يكون ذلك علناً ، ويجب أن يُردّ اعتباره ، بعزل الذين تسببوا بهذه الاساءة ومحاكمتهم . أما ان تنتهي الخلافات والاساءات ببوس اللحى وعفا الله عما مضى ، فلن يوافق . اكثر من ذلك قد يضطر إلى عدم العودة نهائياً إلى موران .

بعد أن فكر ملياً بالامر ، قدر أن ما يجري بين الاخوين هو العتاب ، وانهما يفضلان أن يكون بينهما وحدهما، والعادة أن يجري على انفراد، ولذلك سيتغاضى عن الامر ، ولن يتوقف عنده طويلاً .

انشغل مع السفير باحاديث جانبية عن الطقس والامور العامة ، وتعمّـد أن لا يسأله عن موضوع سمة الدخول إلى الولايات المتحدة ، لكي لا يلفت نظره ، ويثير شكوكه . عندما حُمل العشاء إلى غرفة السلطان ، احس الحكيم بالاهانة ، إذ يمكن أن يفهم بعض المواقف المحرجة ويتسامح فيها ، وقد تطول خلوة العتاب ، أما أن لا يُحسّ بوجوده ، أن يعامل كالآخرين ، وما عليه سوى الانتظار ، فاكثر مما يحتمل . وحين انسحب السفير إلى فندقه، ومعه بعض مرافقي الامير ، بدا واضحاً أن المباحثات الجدية سترجأ إلى الغد ، ولذلك لم يتردد في أن ينسحب إلى جناحه!

وحتى ساعة متأخرة ظل يسمع تحت شباك غرفته جلبة ، كان يتميز فيها صوت زيد وهو يعطي اوامره أو يطلب نقل بعض الإمتعة . وقدر ، دون أن يكون متأكداً ، أن الامير مجحم تمشى في الحديقة قبل أن يأوي إلى فراشه .

في اليوم التالي تعمد الحكيم النزول مبكراً إلى الحديقة ، كان متأكداً أن السلطان سيصطحب ضيفه ويزهو واضح ، ليطلعه على الـزهور والرياحين ، وليجعله يقارن ، ضمنا ، بين موران وبادن بادن . فإذا كان موجوداً ، فلا بدّ أن يتقدما نحوه ، وفي ذلك معنى من معاني الاعتذار، ثم ستجري الأحاديث على رَسلها ، وسوف يثبت للامير مقدرته وكفاءاته حين ينتقل من موضوع إلى آخر ، وبعدها يواصلان اجتماعاتهم ، ويكون الأول والأخير في صياغة الأفكار والاقتراحات .

ومثلما اجتمع الاخوان أول مرة واصلا اجتماعهما في صباح اليوم التالي ، فلم يحضر احد معهما ، وربما قدّر السفير ذلك فتأخر في الوصول إلى القصر ومعه مرافقو الامير . أما حفلة الغداء التي اقامها السلطان فقد حضرها معظم الاشخاص ، الامر الذي لم يشعر الحكيم باية ميزة أن يكون موجوداً ، ولم يحرضه على المشاركة باي حديث ، خاصة نتيجة التجهّم أو الانشغال الذي بدا على السلطان واخيه .

خلال فترة بعض الظهر خرج السلطان واخوه في جولة حول المدينة ، وقد رافقهما زيد بنفس السيارة ، وفضل الحكيم البقاء في القصر ، ليعطي لنفسه تميزاً يجعله مختلفاً عن الآخرين ، ولكي يشعرهم ، اكثر من قبل ، انهم بدونه لا يستطيعون شيئاً ، إذ لا بد أن يحتاجوا بشكل أو آخر إلى معلوماته أو إلى لغته ، وسوف يتساءلون !

كل ذلك غير مهم ازاء ما حصل بعده . إذ ما كاد الموكب يعود ، وربما نتيجة اتفاق تم خلال الجولة ، حتى بدأ اجتماع حضره معهما اثنان من مرافقي الأمير ،وحضره السفير وزيد الهريدي.وقد تم بتعمد تجاهل أو نسيان الحكيم فلم يدع للاجتماع ، وظل هو يتمشى في الحديقة الخلفية ، وقد لمحه الكثيرون ، لكن زيادة في الترفع ، تظاهر بمراقبة الحديقة ، وأنه لم يلحظ أو يفطن لعودتهم .

انتظر لعدة دقائق ، إذ ربما وقع سهو أو انشغلوا ببعض الأمور الطارئة . تقدم إلى الحديقة الامامية ، إذ يحتمل أن يكونوا بحثوا عنه ولم يجدوه . صرخ على احد الحرس ، خلافاً لعادته ،وكان تحت شباك الغرفة التي اجتمعوا فيها ، وسأل إن عاد السلطان ، فلما أكد له عودة جلالته ، سأله من جديد إن كان متأكداً ام لا .

كان يتوقع في كل لحظة أن تنفتح الابواب ويهرع اكثر من واحد معتذراً وطالباً إليه أن يسرع في المجيء ، لأن الجميع بانتظاره ، لكن الدقائق تمر ثقيلة معادية إلى درجة لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يفعل . هل نسوه ؟ هل تعمدوا نسيانه ؟ الا يريدون أن يكون بينهم ؟ وإذا كان الأمر كذلك هل يوافق

السلطان ؟ هل هو شرط الامير أم شرط موران ؟ وهو . . هل يلبد كقط ويسكت منتظراً اللحظة التي ينادى فيها عليه أم يثور ويقلب الاشياء فوق رؤوسهم ؟ وإذا لم يكن منذ البداية ، وبكل ثقله ، صانعاً وشاهداً ، هل يقبل أن يؤتى به ، في اللحظات الأخيرة فقط ، استكمالاً للشكليات ؟

كل ما مر عليه من مصاعب واهانات لا تعادل لحظة من لحظات الانتظار هذه . مرت عليه مصاعب كثيرة ، وواجه لحظات قاسية ، لكنه كان يقاوم ، كان يحتمل . الآن يشعر أنه مهزوم ، مهزوم وذليل . لا احد إلى جانبه ، لا احد يريده . الجميع يهربون منه وينكرونه . وهؤلاء الناس ليسوا اعداءه ، انهم الاصدقاء ، أو هكذا كان يفترض .

كيف يتصرف إزاء الذين منحهم أحسن أيام حياته وأعز ما عنده؟ لم يكتف بان يحبهم ويخدمهم ، اعطاهم جزءاً من لحمه الحيّ ، اعطاهم ابنته الوحيدة ، وها هم الآن يتخلون عنه ، لا يعترفون به ، بل ولا يحسون بوجوده !

دارت به الدنيا ، غامت ثم اسودت ، اضطربت ثم عصفت ، اصبح صغيراً مسحوقاً ، ذرة رمل في ريح ، شيئاً لا وزن له ولا قيمة . أحس أنه وحيد تماماً ومتروك .ماذا يفعل. . . هل يبقى منتظراً كالمتسول لا يفعل شيئاً سوى انتظار حسناتهم وعطفهم ؟ وإلى متى يبقى هكذا ؟ وكيف سينظرون إليه بعد أن تنتهي الاجتماعات ويتفقون وضحكاتهم تملأ وجوههم ؟ هل سيقولون له ؟ ولماذا ؟ ومن هو ؟

فكر أن يمرّ على سلمى في جناحها ، أن يقضي معها فترة من الزمن ، أن يسألها عن حياتها أو عن سعادتها ، لكن لم يجد في نفسه القوة أو الرغبة . بالتأكيد ستصمت ، أو ربما سألته عن السلطان ، ماذا . . ايقول لها أنه لم يدع إلى الاجتماع وانه لا يعرف شيئاً ؟ ايكذب ويدعي انه لم يحضر الاجتماع لانحراف صحته ؟

دون تردد ، بل بطريقة اقرب إلى الحزم ، توجه إلى جناحه .

اية ليلة كانت تلك الليلة من حزيران ؟ اية احزان واية افكار مرت في تلك

الليلة ؟ شعر بالاختناق إلى درجة المرض ، وشعر بالقهر إلى درجة الألم .

حتى لو اراد أن يستعيد ويتذكر فإنه لا يستطيع . يتذكر انه بكى مثل طفل ، ويتذكر أنه ضرب رأسه بالجدار، ويتذكر أنه دفن وجهه في الفراش، لكن ما حصل اكثر من ذلك واكبر ، لأنه في اليوم التالي وهو يتذكر اختلطت الوقائع إلى درجة لا يعرف أي شيء حصل قبل الآخر .

فغزوان وهو يرد عليه ، اكد له ، بطريقة معينة ، انه سيبذل جهده لكي يجيء أو أن يؤمن له سمة الدخول في اقرب وقت ممكن .

ووداد ، وهي ترد عليه ، اقسمت انها حزمت حقائبها وستعود ، سواء عاد معها غزوان أو لم يعد .

وسلمى جاءته ، لا يتذكر إن جاءت قبل المكالمة الهاتفية أو بعد ذلك ، لكن بدت له حزينة إلى درجة لا تصدق ، ويتذكر أنه بكى واياها . كانا يبكيان كطفلين ، وضعت رأسها على كتفه وظلت تبكي وتنشج فترة طويلة من الزمن ، عادت تبكي مثلما كانت تفعل قبل فترة طويلة ، كانت تريد أن تبقى معه ، أن لا يتركها ، وظلت تبكي حتى بعد أن أوصلها إلى غرفتها . ويتذكر أنه كان يسمع الضحكات والتعليقات في الحديقة الخلفية . ويتذكر أنه شم رائحة الشواء . كان الدخان يعلو حتى يصل إلى غرفته ، مما اضطره إلى فتح النافذة الثانية ، لكي يبدّد الهواء الرائحة الخانقة ، رائحة الدهن المحترق .

أما وهو يستمع إلى ضحكات زيد الهريدي واوامره فقد كان يحس أن سكيناً تنغرز في خاصرته . كان زيد يفعل ذلك بلذة وسادية، ويتعمد فجّ . كاد أن ينزل إلى الحديقة ، أن يمسك زيداً من كتفه ويصرخ في وجهه : «أنا اكبر من هذه الاشياء الصغيرة يا زيد ، ولا تلعب معي هذه اللعبة ! » وفكر أن يلبس ثيابه ويقابل السلطان : «يا ابو مشعل : انا رجل صاحب مبادىء ولي رؤيا فيما يجب أن تكون عليه الاوضاع ، ولقد جئت بهذا الدافع ولهذا الهدف ، حاولت ، لكن الظروف لم تكن مواتية ، وها أنذا اتركك ، لكن ليس كما تركك الآخرون ، ليس عن جبن أو رغبة في الاحسن ، وانما لأن الزمن لم يساعدنا ، أو بالأحرى لأن القضايا لم تتوافق ضمن التصور الذي

افترضته ، ولذلك فاني اعلن فشلي واعلن خيبتي ، وسوف اتفرغ من جديد إلى الكتابة»، وايضاً لا بد أن يوجه كلمة واضحة إلى الامير مجحم ، « وانت ، يا صاحب السمو ، يجب أن تعرف بوضوح من هو صبحي المحملجي ، واية افكار دفعته إلى موران . لا يهم ماذا تفكرون او كيف تنظرون إليّ ، المهم أن تفهموا بوضوح أي انسان كنت ، وماذا اردت أن تكون موران . ولا يعنيني بعد ذلك أن تبقوا ضمن قناعاتكم وافكاركم ، أو ان تفهموا الحقيقة » .

لا يعرف كيف نام أو متى ، ولا يعرف من جاءه أو ماذا قال له . يتذكر آخر كلمة سمعها من وداد . قالت له وهي تحاول أن تضحك وتعطي ضحكتها نوعاً من الفرح :

ـ يا أبو غزوان أنا معك، ولو كنت قريب كان عرفت، لكن لازم تطول بالك .

وحاول أن ينام ، ابتلع حبتين من الڤاليوم ، ولم يكن الفارق بين الحبة والأخرى اكثر من نصف ساعة ، وهذا ما يفعله أول مرة في حياته .

وعندما نام حلم انه يتعارك مع غزوان . ويتذكر انه طلب من وداد عدم التدخل ، وانه قال للسلطان انه سيسافر . ويتذكر انه قبّل سلمى ، وقال لها : يجب أن تصبري يا حبيبتي، لأنه لا بد لنا أن ننتهي من هذه المحنة .

أسبوع وحالته تراوح بين الانهيار الكامل ، نيتجة الحمى والبرودة اللتين تتناوبان عليه كل ساعة ، وفترات الصحو القصيرة التي تفصل نوبة عن اخرى .

لا يعرف متى رحل الامير ومرافقوه ، ولا يتذكر أنه رأى وجوهاً يعرفها . صحيح أن الاطياف كانت تحوم حوله ، وكان يسمع اصواتاً تخاطبه ، لكنه لم يستطع أن يميز شيئاً أو احداً . حتى في لحظات الصحو القصيرة ، حين يفتح عينيه ، وينظر حوله ، كان اقرب إلى الاعياء والتلاشي ، فلا يقوى على التقاط الصور والكلمات ، إذ سرعان ما تتبدد وتذوب ، ويغرق في الحمى من جديد .

عندما بدأ يستعيد وعيه وشيئاً من قوته لم ير سوى سلمى إلى جانبه . كانت تتحرك بخوف واضطراب ، وكانت عيناها حمراوين ، تحيط بهما هالات زرق ، وللحظات بدت له امرأة اخرى : اكبر سناً واكثر شحوباً ، وكأنها لم تعرف طعم النوم لعدة ليالٍ متوالية .

اخفت عنه دموعها وهي تحدثه . قالت ان امها وغزوان اتصلا عدة مرات ، وان الطبيب الذي عالجه اكد انها حالة عابرة سوف تزول بسرعة ، وهي من نتائج ملاريا قديمة .

كان يستمع بصمت. يجيل نظراته في الغرفة. ينظر الى الطاولة الصغيرة بجانب سريره وقد امتلأت بالأدوية. يحاول أن يتذكر كيف حصلت الأمور، أو كم مر عليه وهو مريض، فلا يصل الى نتيجة. تختلط الوقائع وتفقد ترابطها وتسلسلها، ولا يجد في نفسه الرغبة لأن يسأل، أو لأن يعيد ترتيب الوقائع.

في الأيام اللاحقة زاره السلطان وزيد . زاراه أول مرة معاً ، ثم بدأ كل منهما يزوره بمفرده . وبدأت الزيارات ايضاً تتباعد . زاره هانس اورلخت ، واكد له ان الطبيب مطمئن، وتأكد من تشخيصه للحالة باعتبارها ملاريا مزمنة . كان الحكيم لا يفعل شيئاً للرد على الاستفسارات والنظرات الا محاولة ابتسامة ، وغالباً لا يطاوعه فكاه ، فيكتفي بهزات رأسه شاكراً وموافقاً .

ولان لديه وقتاً طويلاً ، ولكي لا يشغل نفسه « بالافكار السوداء » ، كما سمى ذكرياته حول حياته الماضية ، اخذ يشغل نفسه بمراقبة الحمام او انتظار اصوات البلابل . كانت هذه المخلوقات الصغيرة الرائعة تملأ حديقة القصر .

لأول مرة في حياته يكتشف أنه ينتظر أشياء يحبها ، وان هذه الاشياء دائماً تلبيه ولا تخيب امله .

فما يكاد بلبل في جانب من الحديقة يصدح حتى يجيب آخر ، بعد لحظات، من الجانب الثاني. كانت هذه الطيور تتبارى في التغريد والإطالة، وكان هو ينتظرها بكثير من اللهفة والشوق. أصبحت تملأ ساعاته الطويلة. وأصبح ينتظرها . ويبالغ فتصور أنه يعرفها واحداً واحداً ، واسف لأنه لم يحب الحيوانات طوال حياته. أما البشر الذين أحبهم، الذين مدّ لهم يد المساعدة، فلم يبادلوه الحب، بل أكثر من ذلك تخلوا عنه وأساءوا إليه عندما واتتهم الفرصة!

حتى الحصان الذي اهداه للسلطان قبل سنين كان مجرد مقدار من المال ، اكثر مما كان شيئاً يحبه ويعتز به. وتذكر بدري المدلل وعصافيره ، وكيف غضب وسخر عندما انشغل بها قصر الغدير ، وندم انه قال كلمات قاسية لمحمد عيد .

الآن ، خلال الساعات الطويلة ، وهو مستلق على سريره ، لا يفعل شيئاً سوى تحريك رأسه في هذا الاتجاه أو ذاك ، انتظاراً لرؤية زوج من الحمام ، أو لسماع صوت بلبل ، ثم الرد على الصوت الأول .

عملية فاتنة تعطي للحياة معنى ، وللانتظار قيمة ، بل اكثر من ذلك تعطي

للوقت جدوى ، إذ لولا الانتظار الممض الممتع للصوت الذي يحبه لما احتمل الدقائق التي يزوره خلالها زيد . كانت دقائق ثقيلة كثيفة ، تشبه الرصاص المصهور ، أو حالة الغرق ، لا يقوى على احتمالها ولا يعرف إلى متى تستمر . حتى الوقت الذي يقضيه السلطان إلى جانبه كان اقرب إلى المجاملة الساخرة ، إذ لا يجدان ما يقوله الواحد منهما للآخر . فما عدا السؤال عن الصحة ، ويكون الرد عليه همهمة أو هزة رأس ، فإن الصمت يغرق الرجلين .

وسلمى . . . تلك العصفورة الصغيرة الوحيدة الحائرة ، والضعيفة ايضاً ، لشد ما تغيرت خلال هذه الفترة . كانت ، في فترة سابقة ، تملأ حياته بزقزقاتها واناشيدها . كانت تعرف كيف تتسلل إلى قلبه ، ومتى تتشبث برقبته . الآن ، وهي تدور حوله ، وهي تحمل صينية الطعام أوكوب العصير ، حزينة ، مملوءة بالخوف . فإذا تبادل معها بعض الكلمات ترتبك ، وكأنها لا تفهم ما يقوله ، أو تخشى من الخطأ . حالة من الشعور العميق بالاثم ، واللحظة اللاحقة لحظة العقاب .

قال لنفسه ، وقد تعجب من الفكرة التي خطرت له : « ربما لم يطل نهار الصيف بهذا القدر الا ليمنح الطيور فرصة اطول للتمتع بالحياة . » واستهوته الفكرة ، وبدأ يفكر فيها : « الطيور ، وكل الحيوانات ، تعبد النور ، تستحم فيه ، تلاحقه من مكان إلى آخر ؛ وفي النور تأكل ، تطير ، تمارس الحب ، وتتفلى في ضوئه . فإذا جاء الظلام ، أو جاءت الأيام الشتائية القصيرة ، خلدت إلى الراحة أو بدأت هجراتها . أما الانسان فإنه يفعل العكس : ينتظر الظلمة لكي يمارس ما يعتبره جميلاً ولذيذاً ، وفي الظلمة ايضاً تتم المؤامرات ، وتتغير الدول ، وتحضر الاغتيالات والفتن ، بحيث لا يبقى للنهار إلا تلك الاقنعة التي يضعها الناس لكي يخفوا وجوههم وقناعاتهم ، والعواطف التي تملأ قلوبهم » .

ويسمع صوت البلبل فيمتلىء فرحاً ، صوت لا يصدر من حنجرة ، ولا يقوله اللسان ، انه يقال بكل الجسد ، بالخلايا ورعشات الدم وصهيل

الريش ، فيمتلىء الهواء بذلك الفرح اللذيذ الذي ينتقل إلى حبات التراب واوراق الشجر ورائحة الورد ، فيبدو جليلا كثيفاً ، وكأنه يصدر من الطبيعة كلها ، وليس فقط من هذه اللهاة لذلك الطير الصغير .

ما كادت بضعة ايام اخرى تمضي حتى اصبح الحكيم قادراً على النهوض من الفراش والتمشي في الغرفة . قال لنفسه ، في اليوم الأول ، بعد أن احس بالإعياء : « جسد الانسان شديد العطب ، يحتاج إلى سنين لكي يُبنى ، ولا يتطلب اكثر من ايام لكي ينهار » .

في الأيام التالية اصبح يقضي وقتاً إلى جانب النافذة ، وخلال ذلك الوقت ، وبالاضافة إلى متابعة « نشيد الحياة » كما اصبح يطلق على تغريد البلابل ، اخذ يفتّ على الحافة البارزة للنافذة قطع الخبز ، لعله يغري الطيور بزيارته ، ولم يخب امله ، ولم تتأخر عليه في الزيارة ! كان الحمام يملأ الحافة ويتدافع فوقها . اصبحت هذه تسلية جديدة : أن يراقب الطيور ، أن يتابعها . ود في اعماقه لو انه لم يبدّد حياته في ذلك الركض من مكان إلى آخر ، إلى أن انتهى في تلك الظهيرة البائسة وبذلك الشكل المذل . لو أنه صرف حياته ، عوضاً عن الركض البائس من مكان إلى آخر ، إلى مراقبة الطيور ، والعناية بها ، لكان ذلك اجدى له وانفع . لكن كل شيء يبدو الآن متأخراً ، ودون جدوى . قال لنفسه ، وهو يرتفع قليلاً في الفراش : لكي يرقب زوجاً من الحمام ، وكان متأكداً انهما ذكر وانثى ، وكانا ، من خلال الركض والمداعبة ، يستعدان لفعل شيء ما ، وفي الهواء الطلق ، تحت اشعة الشمس : « اكبر احمق في هذا الكون هو الانسان ، وانا اكبر الحمقى في البشرية ، لأني لم افعل الشيء المناسب في الوقت المناسب » . أما عندما رأى الذكر يعتلي الانثى ، ويمسك مؤخرة رأسها بمنقاره ، ويتمرجح بتلك الطريقة اللذيذة الأخاذة ، فقد احس بالنشوة والالم ، وحينما نفضا جسديهما وطارا ، هبط الحكيم في سريره شيئاً فشيئاً ، وقد سيطر عليه الالم وحده !

هكذا كان يقضي ايام النقاهة ، ولم يكن مستعجلاً انتهاءها . بل كان على يقين أن وداد وغزوان سيأتيان قبل أن تنتهي . وعلى الرغم من تصميمه أن لا يسمم دمه في تذكر الاشياء التي حصلت ، فقد كان عازماً على أن لا

يفكر بالمستقبل ايضاً « ليتحملوا مسؤولياتهم ، وليقرر كل انسان ما يعتبره أكثر ملاءمة له » هكذا يقول ليقنع نفسه ، فإذا تذكر السلطان بالذات ، أو سمع جلبة تبديل الحرس ، مع صوت زيد الهريدي الآمر، فكان يقول : لينتزعوا اشواكهم بأصابعهم ، ولنرقب لنعرف النتائج » .

سلمى، بين يوم وآخر، تبلغه أن أمها وغزوان اتصلا، وأنهما يسألان عنه ويسلمان عليه، ولا تضيف شيئاً، وفي المقابل يسمع ولا يرد، كما لا يسأل. يهز رأسه وينتظر، مع ابتسامة صغيرة تشي بالحزن، لكن إزاء حزنها وحيرتها لا يستطيع أن يواصل حزنه أو أن يعبر عنه.

في أوائل تموز، وقد تماثل للشفاء، إذ نزل إلى الحديقة عدة مرات، وأخذ يتمشى فيها خلال الأوقات التي يقدر أن الآخرين في غرفهم، أو غائبون أو مشغولون بأمورهم الخاصة، في هذا الوقت، وبشكل مفاجىء، وصل خمسة من أبناء السلطان خزعل، ووصلت عدله أيضاً، إضافة إلى عدد من الرجال والنسوة. ومثلما فوجىء بوصولهم، فوجئت سلمى أيضاً، وقد أجريت عدة تبدلات في القصر، من أجل استقبال الضيوف، ولم يعرف ما إذا كان هؤلاء جاءوا بزيارة قصيرة، أو جاءوا ليبقوا.

قال الحكيم ليهدىء من مخاوف سلمى:

ـ زيارة كم يوم، مثل زيارة الأمير.

وحين قلبت شفتها دلالة عدم المعرفة، قال بنبرة جديدة:

ـ وأمك، الله يصلحها، راحت وغابت، ولا كأن ورانا ألف مشكلة.

ومثلما تغير القصر بزيارة الأمير مجحم فقد تغير هذه المرة أيضاً. ومثلما قضى السلطان خلوات طويلة مع أخيه، فقد فعل أيضاً مع أولاده. وإذا كان الحكيم توقع دوراً في الزيارة السابقة، وانتظر، ثم سقط مريضاً، فإن سلمى لازمت غرفتها لا تغادرها، ولا تعرف هل تفرح أم تغضب أم تبكي. كانت أقرب إلى الارتباك والحزن، وإن شعرت بالراحة لأن أحداً لم ينشغل بها ولم يسأل عنها!

بعد ليلة طويلة لم ينم الحكيم خلالها إلا كما ينام الذئب، وقرر أن يتعافى بسرعة، لأن عليه مسؤولية « الطفلة » كما أصبح يسمي سلمى بينه وبين نفسه، قرر أنه يستدعي وداداً. قال لنفسه بحزم: « يجب أن تأتي، جاء غزوان أو لم يجيء، لأنها وحدها التي تستطيع أن تقف الى جانب الطفلة وتساعدها وتحميها. ».

ومع أضواء الفجر بدأ يحاول الاتصال. بعد عدة محاولات، لم ينقصها الإصرار والمثابرة، تحدث الى غزوان. فوجيء غزوان بصوته، أو هكذا قدر الحكيم. وبعد لحظة المفاجأة، حاول أن يعبر عن فرحه واعتذاره في آن واحد، فرحة بشفائه، واعتذاره أنه فضّل الحديث مع سلمى، إذ أبلغتهم أن ذلك أنسب. والحكيم الذي بدا متماسكاً، وتقبل الاعتذار، كان مشغولاً بأمر آخر: بعودة وداد. في لحظة مناسبة طلب أن يكلمها.

كانت وداد، على الطرف الآخر، شديدة اللهفة. أكدت أنها مرضت بمجرد سماعها بمرضه. وقالت ان قلبها عنده في الليل والنهار. وسألت باهتمام ما إذا شفي تماماً أو يشكو من شيء. وأكدت أنها كانت قلقة، وقد عافت الأكل والنوم، الى أن طمأنتها سلمى، وأقسمت لها « أن البابا بألف خير»!

استمع اليها ومشاعره بين الحزن والفرح. حزن لأنه كان في هذا الوضع، وفرح لأن في الدنيا ما يزال من يسأل عنه ويقلق لمرضه. تمنى لو كانت الى جانبه أثناء المرض، لو أنها موجودة لشفي في وقت أقصر. وتذكر كيف ظل يردد على مسامعها، حين تتعرض لتلك الحالات المرضية في موران، أن الصحة والمرض يتعلقان بالارادة أكثر مما يتعلقان بالجسد.

ما كادت تنتهي حتى قال لها بطريقة أقرب الى الهمس:

ـ لازم ترجعي بسرعة يا وداد، لأن رجعتك ضرورية، فهمانة؟

سألت باضطراب:

ـ خير انشاء الله؟ في شي؟

وبعد قليل، وبنفس الاضطراب:

ـ أنت.. بعدك مرضان؟ في حدا مريض؟

ـ لا يا وداد، الصحة ماشي الحال، لكن في أشياء ثانية.

ـ خير؟ خير انشاء الله؟

ـ الله يجعلك بخير، بس تصلي بنحكي.

ـ خبرني يا أبو غزوان، شوشت بالي.

قال بنفاد صبر:

ـ المهم وجودك، يا وداد، لازم تجي بسرعة.

ردت في محاولة لئلا تلتزم بشيء:

ـ احكِ مع غزوان يا أبو غزوان.

كان غزوان واضحاً وحازماً:

ـ أنا مقدر ظروفك، يا بابا، وكانت رغبتي أن تكون معنا حتى نحكي، وإذا كان هذا الشي ما حصل حتى الآن، إنشاء الله يحصل في أقرب وقت.

توقف لحظة، ربما نظر الى أمه أو تشاور معها. هكذا قدر الحكيم، ثم تابع:

ـ أنا يا بابا مسافر بعد بكرة الى موران. عندي هناك أشغال ضرورية، والحكومة طلبت مجيئي بسرعة للتشاور، وأنت تعرف القضايا اللي ارتبطنا بها، ولازم ننفذها، وهذا امتحان لي وللشركة، ولازم تنجح.

وضحك بطريقة معينة وأضاف، وبدا صوته مختلفاً:

ـ وسمحت لنفسي، يا بابا، أن أتخذ قراراً نيابه عنك: سترافقني الوالدة الى موران، لأنك تعرف أن غيبتنا كلنا، ولفترة طويلة، مضرة، ويمكن أن تُفسّر وتستغل، فلازم نشوف كيف نرتب أمورنا هناك.

ورغم أنه تحدث مع وداد مرة أخرى، وأشار الى وصول عدلة، ولا يعرف ما إذا جاءت بزيارة أو للإقامة، وبالتالي من الضروري مجيئها، ويمكن أن

تؤجل زيارة موران الى وقت آخر، فقد أكدت أن ذهـابها الى موران ضروري «لأن غزوان من رأيه أن أروح معه، وهو مو كل يوم رايح» وسوف لن تتأخر. وتركت لغزوان أن يحاول إقناعه، أو التغلب على ممانعته.

قال له غزوان بمرح:

- الأحسن، للكل، أن تسافر الوالدة معي يا بابا، خاصة وأني سأقابل السلطان فنر، ويمكن أن نحكي بموضوعك وتنهيه.

اختلطت مشاعر الحكيم واضطربت. لأول مرة يسمع اسم فنر مسبوقاً بلقب السلطان، ولأول مرة يبدو صغيراً بنظر نفسه. قال لغزوان بحدة:

- اسمع يا غزوان: إذا رحت لموران فاترك موضوعي، لا تبحثه مع أحد، لأني قادر بنفسي على معالجته.

ضحك غزوان في محاولة لأن يطوق غضب أبيه، ثم تابع:

- بسيطة يا بابا، وانشاء الله ما يصير إلا الخير.

أصيب الحكيم بالانهاك، ووجد أنه عاجز عن الاستمرار في المناقشة. ولما لم يجد شيئاً يقوله، فقد رد بحزن:

- طيب.. طيب يا غزوان.

ولكي لا يترك غزوان لأبيه فجوة، فقد قال بلهجة مرحة:

- راح ابعث لك يا بابا مساعدي ومعه رسالة، وراح تفهم منه كل شيء.

طلب الحكيم أن يكلم وداد من جديد.

- وإذا سافرت متى راح ترجعي؟

ما راح أطول يا أبو غزوان.

ضحكت بطريقتها، وسألته:

- توصيني على شي، يا أبو غزوان؟

- أبداً.. أبداً، يا وداد، بس ديري بالك على حالك ولا تطولي!

وصول الأميرة عدلة، زوجة السلطان، وعدد من أولاده، الى بادن بادن غيّر الكثير.

الأيـام الأولى لهفة وشـوق، وشكـر الله أن الجميـع ما زالـوا أحيـاء، وأنهم استطاعوا النجـاة، « وكل شيء، مـا دام الإنسان حي، سهـل » والحمـد« لأن طويل العمر بالصحة والسلامة، والأشياء الثانية يجي وقتها ».

بـدا السلطان خلال هـذه الأيام أقـوى وأكثر ثقـة، أمـا الأسئلة التي وجههـا للقـادمين فكـانت بمثـابـة اختبـارات حـذرة، إذ لم تتعـد معـرفـة كيف وقعت الأحداث، وكيف عرفوا بها، وأين كانوا، وماذا كان رد الفعـل، وكيف استقبل الناس هذه التغيرات.

في الأيام التالية كان حريصاً على معرفة أدق التفاصيل، وحريصاً أكثـر على معرفة موقف كل فـرد. سأل عن مـوقف حاميـة القصر، وعن الضبـاط، وجهاز الأمن والسـلامة التابع للقصـر. ولم ينس السؤال عن موقف الحـرس الخاص، وعدد من المرافقين والخدم. ومن اتصل بالقصر ومـن زاره.

الأميرة عدلة والأولاد، واشترك أيضـاً بعض المرافقين، أجـابوا عـن الأسئلة بدقة كبيرة، واوردوا تفاصيل لا نهاية لها، كما أجابوا أيضاً عـن أسئلة افترضوا أنها تهم السلطان. ورغـم الاختلافات والمقاطعات، وما تخللهـا من طرائف أو ردود فعـل، كتخزين الميـاه والطحين، وإغـلاق الأبـواب الـداخليـة بمفـاتيـح

وأقفال، ونوبات الحراسة التي باشرها الجميع خلال الأيام الثلاثة الأولى، بما في ذلك النسوة، وعلى مدار ساعات الليل والنهار... هذه التفاصيل التي عرضت رافق بعضها ابتسامات أو نظرات أقرب الى التحذير واللوم، خاصة من الأخوة الكبار، أو من المسنين، لمن هم دونهم.

بعد أن أصبح السلطان ملماً بكل هذه التفاصيل، واخرى غيرها، وعلى دراية بمواقف معظم الذين كانوا يحيطون به، أو بالآخرين، وفي الليلة الرابعة أو الخامسة لوصول هؤلاء، وفي الصالة الكبيرة، في الطابق العلوي من القصر، وكان أغلب الذين وصلوا يتحلقون حوله، قال السلطان بصوت عميق:

- من الآن، وبعد اللي صار، وبعد اللي شفناه، يلزم الواحد يفتّح عينه، ويلزم يعرف كيف يختار رجاله، ولمن يعطي سره!

وزفر مثل جمل وأكمل:

- وإذا الله ردنا بالخير والسلامة، يلزم نتذكر كل شيء، لأن مثل هذا الدرس يعلّم اللي ما يتعلم.

وحين خيم الصمت، ولا أحد يعرف كيف يواصل الحديث، وقد مرت صور كثيرة في ذاكرة السلطان، أضاف بلهجة حانقة أقرب الى الغضب:

- يا جماعة الخير. ما تركنا أحد منهم إلا ونشدناه: شلون تشوف الأحوال يا فلان؟ شلون رضا الناس وراحتهم؟ وكلهم يحمدون ويشكرون، وإذا زادوا يقولون: أحسن من كذا أبد ما تلقى يا طويل العمر.

وبعد قليل وهو يهز رأسه بلوعة:

- حتى فتر لما نشدناه، وفتح حلقه، قال: «الأمور بخير، والدنيا بخير، وحنا شاكرين، وما نريد أي شيء». وأنا، بكل نية طيبة. أسأل: أخاف تكونون

محتاجين شي يا جماعة الخير؟ أخاف تريدون شي؟ وتقولون « سلامتك يا طويل العمر، وانشاء الله دايم فوق روسنا يا طويل العمر ». وراح يوم، وجا الثاني، ويا غافل لك ربك، أثاريهم من ورا ظهري يدبرون ويتآمرون. ويعدني ما ركبت وطرت إلا ودق الطوب، وصار اللي صار!

وزفر، وخرج صوته خشناً ، لكنه بطيء:

- ما يخالف، الواحد يتعلم، ويجي يوم ونتحاسب. يجي يوم ونتواجه، وإذا بيهم حيل ومرجلة خلهم يبيّنون!

قالت روفة، خادمة الأميرة عدلة، بصوت خافت، لم يسمعه إلا من كان حولها: :

- أخاف ما يجي هذا اليوم!

التفت السلطان ناحية الصوت، وسأل:

- شنهو اللي قلتيه؟

- سلامتك، طال عمرك، أدردم وي نفسي!

هكذا ردت روفة، وقد تملكها الخوف. قال زيد الهريدي، وخرج صوته من بين أسنانه:

- جماعتنا، اللي أمناهم، يا طويل العمر، هم اللي خانونا، نكثوا بنا.

قال شايع السحيمي بعصبية:

- يا زيد، هذي ما هي سالفة يوم واثنين، هذي تدبير سنين. والجماعة هناك كانوا ينتظرون طويل العمر يمشي حتى يسووا فعلتهم. ومن المؤكد أنهم رابطينها من مشرّق لمغرّب، وإلا ما نجحت وصار اللي صار.

- وجماعتنا، يا شايع؟ وين جماعتنا؟

- جماعتنا، يا زيد، بين اللي شروه، وبين اللي سحروه ودوخوه. واللي

مـا انشرى ومـا داخ تنبل مـا يدري كـوعه من بـوعه، أو نـايم نومـة أهـل الكهف.

تلفت زيد في أكثر من اتجاه، يريد مؤيداً أو حليفـاً. تابـع شايـع السحيمي دون أن يأبه لنظرات زيد:

ـ ويلزم نعتـرف، يا زيـد، ومثل مـا قال طـويل العمـر: حنا كنـا نـايمين على حرير، فصدقنا كل اللي ينقـال لنا، كـل اللي نسمعه، ولا هـو ببالنـا أن فنر وغير فنر يغزلون بالليل والنهار، ويركضون من هنا لهنا يدبرون ويتآمرون.

ـ حطينا كل ثقتنا بحماد، يا شايع، بحماد وأمثال حمـاد، وأثاري هـذول اللي جـانا منهم البـلا، هذول اللي يقـولون الـدنيا بخيـر والناس راضيـة. كانـوا يريدونا نصدقهم، وصدقناهم. وبعدها تدردبت المصايب فوق روسنا

قال السلطان بحقد:

ـ والله . . والله إذا ظفرت بابن هالحرام حماد، لا خليه يشتهي المـوت وما يحصلّه!

وبعد لحظات صمت طويلة:

ـ كل يوم والثاني يجيني: «تقاريـر الجهاز، يـا طويـل العمر: النـاس شبعانـة وراضية، والدنيا بألف خير». وأنا أقول له: يا حماد، فتّح قلبـك قبـل ما تفتـح عينك، لأن هـذي موران مـا ينحزر عليها، ونـاس مـوران ضحكتهم شبـر، والخنجـر تحت البشت، فـإذا سهيت عنهم دقيقـة غـدروا بـك. ويجاوب حماد ويقول: «حنا تحرينا وتأكدنا يا طويل العمر، وما يكـون لك فكر» ولما وقعت الواقعة أثاري حماد براس القايمة، وهو، بعـد فنر، أبـوها وأمها!

ووقف السلطان بعصبيـة. مشي خطوتين، وكـان بـادي الانفعـال، ثم عـاد بسرعةوكأنه لام نفسه، وبعد أن هدأ قليلاً، قال كأنه يكلم نفسه:

ـ القضية، يا جماعة الخير، أكبر من حماد، وأكبر من فنر. . .

وبعد قليل:

ـ لكن بسيطة، تهون، والله كريم.

قالت عدلة بصوت رخو، أقرب الى التشفي:

ـ حنا ثارنا عند اللي خانونا، عند فنر وحماد. . .

وأضافت وهي تبتسم ابتسامة صغيرة:

ـ وأمثالهم!

والأميرة عدلة حين تتحدث بهذه الطريقة، فإن دلالة كلماتها لا تخفى، أكثر من ذلك تحرض الجميع لأن يلتفتوا الى العدو القريب، العدو الذي يستطيعون أن ينتقموا منه، بدل الالتفات الى موران البعيدة.

سأل مجلي، أكبر الأبناء الذين وصلوا:

ـ من تقصدين؟

ـ ردت بنفس اللهجة الرخوة:

ـ يا وليدي . . من هو حماد، بليا اللي جابوا حماد، اللي حموا حماد؟

رد السلطان بغضب:

ـ أنت يا عدلة مالك شغل بهذي السوالف، خلي الرجال يتكلمون!

قالت وكأنها لم تسمع:

ـ والخوف ما هو بس من اللي صار وجرى، الخوف، هالحين، من اللي حايفين حولنا، وإذا نام الناس ما ينامون!

ولم يتأخر السلطان في أن ينهض، ايذاناً أن الحديث انتهى، قال وهو يمشي:

ـ ما هو كل اللي ينعرف ينقال، وحرام أن الواحد يجرب سلاحه ببيت.

كان السلطان واضحاً في رده على الذين يفترضـون أن الحكيم وراء كل مـا حصل. لم يرد أن يسميه، لأنه يعرف أن لا أحد معه أو يمكن أن يدافع عنه.

في الليل المتأخـر، وقد تـرك السلطان جناحـه وجاء ليقضي باقي ليلته عند عدلة، قالت له، وكانت أكثر وضوحا وحزما:

ـ كل البلاوي، يا طويل العمر، جتنا من هذا خويك، الحكيم. هو اللي يفتي وهـو اللي يحكي. مهفهف ومحفحف، ومـا ينـدري يفـتي لإبليس أو لرب العالمين، وما ينعرف شنهو اللي بباله وشنهو اللي يريده.

ولأن السلطان كـان متعباً، ومستعـداً لأن يسمع كـل شيء، دون قدرة أو رغبة في الرد، تركها تتكلم:

ـ وإذا لنا أمل، والحظ ساعدنا، يا طويل العمر، ورجعنا؛ وإذا الناس بعدها تحبنا وتريدنا، فأول شـي تسويه أن هالإبن الحرام يتركنا، يكفينا شره، لأنه من يوم ما شفناه، ما شفنا الخير، ومن يوم ما عرفنا، وقال: أنا خوي السلطان، الناس تحكي وتقول. فشوري عليك، يا بعد قلبي وعيني، وشرهتي منك، أن تتركه، وأن تقول له: هذا حدّك ويانا، وبعدها تشوف شلون الخير يجيك!

رد السلطان برخاوة:

ـ أنت ما تعرفين الناس، يا بنت الحلال!

مـاءت بضحكتها مثل قطة، وتساءلت:

ـ أنا ما أعرف الناس؟

ـ أنت ما تعرفين شي؟

اقتربت منه كثيراً، أطفأت النور، وهمست:

ـ ما يخالف، أنا ما أعرف، بس أنت، بروحك، راح تشوف!

ويزداد القصر في بادن بادن اضطراباً. فأولاد السلطان، الذين كانوا صغاراً في موران كبروا فجأة. كبروا من الهزيمة ورغبة الانتقام، ولأنهم حملوا مقداراً كبيراً من المال، خاصة من الذهب والمجوهرات، ولأن الأميرة عدلة، أيضاً، أصبحت امرأة أخرى!

فما كادوا يتأقلمون مع الجو الجديد، حتى أصبحوا أكثر جرأة، وأكثر وضوحاً.

قال مجلي، وهو الابن الرابع للسلطان، والثاني لعدلة، قال لأبيه:

- لي كلمة معك، يا طويل العمر، وأريدك ما تزعل مني.

فوجىء السلطان، فقد كان يعتبر مجلي خجولاً، قال وهو يضحك:

- أي يا وليدي، اريدك تسولف، لأن موران وناس موران نسّوا الواحد صلاته، وما خلونا نشوف بعضنا زين، ولا سولفنا.

خجل مجلي وكاد يتوقف أو يعتذر، لأن ما لديه ليس الحديث الذي يفرح، أو يقيم حواراً أو علاقة، إلا أن نظرات السلطان المستطلعة، المشجعة والدافقة، جعلته يواصل:

- يجوز كلامي، يا طويل العمر، ما يعجب، بس يلزم أقوله، ويلزم تعرفه.

- قل يا وليدي، ولا تخف.

- ما ظل أحد بموران إلا وقال لي: بعد ما تبلغ طويل العمر السلام، تقول له

هذا خويه، نسيبه الجديد، إذا تركه اليوم قبل باكر أخير له وأحسن.

- شلون يا وليدي؟

- ما أدري، طال عمرك، بس الناس تقول أنه أصل المصايب.

رد السلطان بهدوء، وهو يكظم غيظه:

- يا وليدي المصايب من الله، ما هي من العبد، وكلام الناس واجد، وما أريدك تصدق كل ما تسمعه.

- موران ما عندها سالفة إلا الحكيم، يا طويل العمر، والناس يقولون: كل اللي صار لأن السلطان ناسب الحكيم.

- اللؤم ذابح الناس، يا وليدي، والحسد عامي عيونهم وقلوبهم، ويلزمك تعرف: لا أحد يرضي الناس، حتى لو شعلت لهم أصابعك شموع.

قال مجلي بإنفعال:

- حتى أعمامنا يقولون: لو أن السلطان ما حط يده بيد الحكيم، لو ما ناسبه، كانت الأمور ما وصلت هالمواصيل.

- أعمامك، يا مجلي، يا وليدي، يدورون حجة، ولأنهم ما لقوا، حطوها براس هالمبخوط...

وبعد قليل وبحنق:

- بنفسي لو واحد منهم جاني، واجهني وقال لي: ما نريد فلان، حنا ما براضين عن فلان. لكن أبد. الكل يحمدون ويشكرون، والكل يقولون: الحكيم، أبو غزوان، ما مثله لا بالهند ولا بالسند. لكن بعد ما سووا سوايتهم يريدون حجة وسبب، فقالوا: الحكيم!

وزفر فخرج صوته حاراً مديداً:

- يا وليدي القضية أكبر وأكبر من الحكيم. ولو ما كان هو لقوا غيره. المهم:

يخلصـــون من أبـوك يـا مجلي. هـذول طـالبين ملك وحكم، وهـذا اللي يريدونه، والحجة دايماً موجودة وسهلة.

ـ لكن حنا، يا طويل العمر، عطيناهم السكين اللي ذبحونا بها.

ـ مثل الذيب والعنز، يا وليـدي، إذا شربت العنـز من راس النبع أو من حـدر السيـل عكرّت المـاء على الذيب ويلزمهـا تنذبـح، هذي هي سـالفتنـا مـع أعمامك يا مجلي، وكل كلام غير هذا لا تصدقـه، لا تشيله من أرضه، لأنه ما هو بصحيح.

وانتهى الحديث مع السلطان، هذه المرة، عند هذا الحـد. أما مـع آخرين فقد أخذ شكلاً مختلفاً.

ولأن مجلي الأخ الأكبـر بين الـذين وصلوا من أولاد السلطان، ولأن المـال ظل معه، وقد تم الاتفاق على ذلك بينه وبين أمه، فقد أصبح يومـاً بعد آخـر، بعد أن تعود على الجو وطرق المواصلات، وعرف الذين يحيـطون بالسلطان، أقوى الأشخاص، والذي يقرر في أمور كثيرة.

كان مجلي طويلاً مثل أبيـه، وماكـراً مثل أمـه، أما حـدة الطبـع التي كانت تميز بعض مواقفه، فتعزوها الأم الى داء المرارة الذي ورثه عن عمه فنر! كـان خجولاً أقرب الى الانطواء، لكنه يمتلك تأثيراً خفياً على الآخرين، وقد لاحظ ذلك أبوه منـذ وقت مبكر، ثم جـاء من أكد لـه ذلك. وإذا كـان قد أهمله، أو انشغل عنه في موران، فقد أصبح الآن شيئاً مختلفـاً. ولذلـك بذل معـه جهداً كبيراً. قضى وإياه ساعات طويلة، كانا يتمشيان ساعات في الحـديقة الخلفيـة كل يوم، صباحاً وعند الغروب. كما أسر لعـدلة أن تبـذل معه جهـداً خاصـاً. ومجلي الذي يدرك جزءاً من اللعبة، ويحس أن معاملته اختلفت عن السـابق، بدأ يشعر بالثقة والقوة معاً، تخلى عن خجله، أو عن جزء منـه على الأقـل، وأصبح يهيّىء نفسه أن يكون الأقوى في قصر بادن بادن.

قال لزيد الهريدي في اليوم الثالث، بعد ذاك الحديث مع أبيه:

ـ . . . وأنت، يا عم زيد، طويل العمر يسرّك ويسمع منك. . .

فتح زيد عينيه وابتسم، وقد تقدم بوجهه وبجزء من جسده ليعرف بقية الحديث:

ـ والجماعة بموران وصوني وقالوا لي: ما دام الحكيم هو اللي يفتي ويشور ترى السلطان ما يرجع!

دمدم زيد بكلمات غير واضحة، لكن لا تخفى، دلالتها كشتيمة. ولو لم يكن يريد أن يعرف أكثر، فلا ينساق لعواطفه، لواصل شتائمه. لكنه كتم غيظه، نظر بتحديد الى مجلي، وسأل:

ـ وشنهو بعد اللي قالوه بموران؟

ـ السوالف كثيرة يا شيخ، بس الكل يقولون أن الحكيم أصل المصايب، وأول شيء يلزم يصير ويتسوى، أنه يمشي، يفارق.

ـ هذا الكلام ما يوكل خبز، الله يسلمك، إلا إذا كان كلام فنر أو واحد مثله.

وبعد قليل وبمكر:

ـ من هو اللي قاله؟

ـ قاله لي الدريعي، وأنت تعرف علاقته بعمي فنر. قاله لي قبل السفر بيوم.

ـ وبعد شنهو اللي قاله؟

ـ هذا اللي قاله.

ـ وهذا رأيه أو رأي صاحب قصر السعد؟

ـ ما أدري يا شيخ زيد، بس هذا الكلام من راسه لراسي.

قال زيد، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ هذا الخرندعي، الحكيم، سالفته هينة، الله يسلمك، نقدر نهججه، إذا ما

هو اليوم اللي عقبه، نخوّفه، نسلّط عليه الجماعة. . .

ابتسم، وتطلع بتحديد الى مجلي، ثم أضاف:

- بس اللي ما يندري عنه علاقة طويل العمر ببنته. . .

وابتسم أكثر، وكأنه إكتشف الحل. قالت ذلك تعابير وجهه كلها:

- إلا إذا الوالدة ساعدتنا!

التفت الى أكثر من جهة، وبعد قليل بهمس فتآمر:

- ومثل ما زوجّته من قبل، ومثل ما كانت تجاوبه: أطلب وتمنى، إذا قال: حنّيت واشتهيت، وواحدة تجي وواحدة تروح، فإذا طال عمرها بعثت على فلانة وفلانه، وواحدة بعد الثانية، وهي تعرف من، ترى تصير سالفتنا سهلة، ويوم والثاني ما تشوف الحكيم إلا حمّل ومشى!

قال مجلي بانفعال:

- أترك هذي القضية عليّ.

- إذن سالفتنا، الله يسلمك، خالصة.

لم تكن عدلة تحتاج إلى من يطلب منها، أو من يحرضها على أداء مهمة من هذا النوع، فقد بدأت المهمة قبل أن تبدأ. وإذا كانت قد خبرت السلطان طوال السنين السابقة، وعرفت مزاجه، كما قامت بتزويجه المرة بعد الأخرى، فقد كانت هذه المرة غير متأكدة، ولا تعرف لماذا يبدو السلطان ضعيفاً مأخوذاً هكذا.

قدّرت أن لا غنى له عن الحكيم، لأن الأدوية التي تزداد وتتنوع بين فترة وأخرى، هي التي تجعل السلطان يشعر باستمرار الشباب، لكن لا يفسر هذا السبب شدة تعلق السلطان به، لأن مثل هذه المهمة، وهذه العلاقة، ليس جديداً. واستعادت عدلة، في ذاكرتها، الدعوات التي وجهت للسلطان،

والزيارات التي قام بها لبيت الحكيم أو في المليحة، وتساءلت ما إذا وضع له سحراً في الأكل الذي تناوله فغيّره؟ وشكّت في أن يكون سحر وداد لهذه الدرجة من القوة والاستمرار. وهذه الفتاة الصغيرة، الأقرب الى اللعبة، هل تملك من البراعة والمعرفة ما يجعلها تؤثر عليه الى هذه الدرجة؟ تتذكر كيف ابتسمت وداد حين نبهتها الى الليلة الدخلة، كانت الابتسامة الساخرة تقول: لا عليك، نعرف كل شيء، وسلمى مستعدة لكل شيء!

الآن، في بادن بادن، وبعد أن انقضى شهران على الزواج، وحين تتطلع عدلة الى الاثنين، تجدهما مثل الحبال المبلولة: رخوين، مأخوذين، ولا يملاّن.

تريد الأميرة عدلة أن تكتشف هذه الفتاة ـ اللعبة، من جديد، ومدى تعلق السلطان بها، إذا جاءت غيرها.

بدت سلمى مثل طالبات المدارس الداخلية: خجولة، مؤدبة، وبعض الأحيان شديدة الارتباك؛ أو كأنها ابنة الجيران التي جيء بها للاختبار، دون أن تدري ودون ان تستعد. كانت تتحرك بخفة، تبتسم للجميع، وفي بعض اللحظات تحتار وتكاد تبكي لأنها لا تعرف ما يقال، أو لا تعرف هذا الذي يقال هل هو سؤال أم ثناء أم شيء لا يقع تحت أي من هذه التسميات!

قالت عدلة لنفسها، وقد سيطرت عليها الحيرة: « الرجال يعرفون أشياء كثيرة في هذه الحياة، ولكنهم لا يعرفون المرأة. أنهم يتصورونها كما يتمنون أو كما يحلمون، والغريب أنهم غير قادرين على أن يروها على حقيقتها، رغم أنها تكون عارية بين أيديهم ». توصلت الى هذه القناعة، وهي تنعم النظر بهذه الطفلة الغرة، والتي لا تملك إلا مقداراً ضئيلاً من اللحم على ردفيها.

سألت خادمتها روفة بسخرية:

ـ ما تقولي لي يا مسخوطة: هذي لعابة أو آدمية؟

ورغم أن روفة تعرف عمن تسأل سيدتها، فقد تساءلت ببلاهة :

ـ عمن تسأليني، يا عمتي؟

ـ عن المصّبغة المعظّمة، اللي البس ياكل عشاها وهي تناظره وما تقول له: بس.

ـ تلحق وتصير، يا عمتي، ويصير عليها لحم ما دام عظمها زين.

ـ عظمها زين؟ الله لا يخلي فيك عظم سالم!

تضحك روفة، وبعد قليل:

ـ حزري عليها، يا عمتي، أنها آدمية وبنت حلال.

ـ وبعد؟

ـ ضحكتها تشفع وخدها يلمع، ويا أسنانها نظم اللولو...

ـ وبعد، يا بنت الحرام؟

ـ إذا هذا الكلام ما يعجب ستي، عندي غيره كلام!

كانت روفة امرأة ضخمة، ثقيلة الحركة، أقرب الى البطة إذا مشت، وأقرب الى الحصان إذا فتحت حلقها. تعرف كيف تسخر، وكيف تضايق، ولولا خفة دمها، وتحملها للشتائم، وبعض الأحيان للمقالب، لما استمرت.

ما كادت بضعة أيام تمر، وعندما تأكدت أن سيدتها تريد التخلص من هذه الوافدة، حتى بدأت:

ـ راح أدبي عليها، يا ستي، ومنها كلمة ومني كلمة ونشوف!

ومن خلال الأسئلة والاستفسارات، أو وهي تنظر اليها تقيسها، مع الابتسامة، التي تقع عند الحد الفاصل بين السخرية والطيبة، تبدأ رحلتها اليومية مع سلمى.

وفي إطار الاختبار اليومي، والذي لم يطل، وبعد أن سألتها بطريقة لا تخلو من عهر، كيف تستلقي، وكيف يأتيها السلطان، وعن أعضائها وأعضائه، وهل تستمتع ومتى، ومن قبل الآخر، وهذه الفتاة المرتبكة الخائفة لا تعرف هل تجيب أم تبكي أم تهرب. بعد هذه الجولة من الاكتشاف والاستطلاع توصلت الى الطريقة المناسبة للتعامل.

بدأت عشرات النظرات الساخرة تطاردها، وبدأت همسات الخدم تلاحقها. ومهما حاولت أن تهرب، أن ترابط في غرفتها، فقد كانت أصوات « الجيش » الذي وصل من موران تصلها، تقطع عليها الطريق، تقتحم غرفتها، وبعض الأحيان، بحجة الخطأ أو السؤال عن شيء من الأشياء!

وسلمى التي كانت ترتبك أصبحت الآن تعيش في حالة من الفزع الدائم. كانت تغلق على نفسها الغرفة من الداخل. فإذا دعيت لتناول الطعام توافق مرة وترفض مرات، فإذا جاءها السلطان ووجد الباب مغلقاً، وترفض الاستجابة للدقات، إلا إذا عرفته وتأكدت بعد أن أصبح الباب يدقّ بعدد أرباع الساعات فقد توتر الجو، ووصل الى حد الخطر..

وعدلة المرأة التي لا يمكن أن يحزر أحد عمرها، ولا يعرف إن كانت أماً للأولاد الذين حولها أم أختاً كبيرة، استطاعت خلال أيام قليلة أن تتغير تماماً، وربما بتأثير الجو والرطوبة. فالوجه القاسي الذي رافقها من موران، وزادته الزرقة، خاصة حول العينين، نتيجة التعب وقلة النوم في الأيام التالية، ما لبث أن استراح وتغير، بعد أن استخرجت من حقائبها مجموعة من النباتات، فاغتسلت ببعضها، وصبغت شعرها ببعضها الآخر، وتبخرت بقسم ثالث، فبدت امرأة مختلفة تماماً، حتى بنظر السلطان. ورافق ذلك أيضاً نوع من المرح والأحاديث خلقتها الحالة النفسية بهدف نسيان وتجاوز المصاعب التي كانت تواجه الجميع.

بهذه الطريقة البدائية الماكرة تولد جو أنعش السلطان، أصبح أكثر استعداداً لأن يصدق ما يقال له عن الحكيم أولاً، ثم عن « اللعابة » « أم وزنة ونص »

كما أصبح يطلق على سلمى . أما حين نقل إليه ما قالته روفة ، وقد استدعتها عدلة ، لتقول له بلسانها ما سمعته منها عن رائحته وقسوته وثقل جسده ، وكيف أنه يستعمل أسنانه ولسانه ، وأنها تتأذى من ذلك ولا تتحمله ، ثم امتناعها عن فتح الباب له متعمدة ، رغم أنها تعرف دقاته ، فقد تأكد أن أيامها معه أوشكت أن تنتهي .

صفاء الشلبي ليس مجرد مساعد لغزوان، انه أخ شقيق: الشبه، المرح، التعلق بالحياة، إضافة الى اللياقة الاجتماعية. يعرف أدق التفاصيل المتعلقة بعائلة المحملجي، وكأنه أحد أفراد هذه العائلة. أما الذكاء والنباهة وإمكانية إقامة علاقات مع الآخرين، فإنها صفات أصيلة وليست مكتسبة «تماماً مثلما هي عند غزوان» هكذا قال الحكيم لنفسه بعد جولتين من المناقشة.

وصل صفاء بعد ثلاثة أيام من المكالمة التلفونية مع غزوان، أو كما قال للحكيم:

ـ بعد أن أقلعت الطائرة بالأستاذ غزوان والوالدة الى لندن، في طريقها الى موران، بخمس وأربعين ددقيقة أقلعت طائرتي الى هامبورغ. قضيت الليلة الفائتة في هامبورغ، وها أنذا الآن بين يديكم!

وقبل أن يقدم رسالة غزوان قدم الهدايا. كانت كثيرة ومتنوعة، وأغلبها لسلمى. أما الرسالة التي تسلمها الحكيم، ووضعها في جيبه، على أن يقرأها في وقت لاحق، وبمفرده، فقد كانت تقلقه. أو بالأحرى كانت مثل جمرة في جيبه. حاول أن يستفسر من صفاء لماذا لم يجيء غزوان، وما إذا كانت رحلته الى موران، وفي هذا الوقت بالذات، ضرورية أم لا، وأيضاً رحلة أم غزوان. أجاب صفاء عن الأسئلة بالكثير من التهذيب والمعرفة، وأباح لنفسه نوعاً من الجرأة خاصة بعد أن روى بعض الملابسات الضاحكة التي وقعت لأم غزوان في مطار نيويورك. كان لا يكف عن الإشارة بقدرة الحكيم وحكمته في أنه يتفهم الأسباب التي منعت غزوان من المجيء.

لم يقرأ الحكيم الرسالة إلا بعد أن قام بجميع مراسيمه: تمدد في الفراش، رفع يديه في الهواء وجرّ نفسين عميقين، كما كان يفعل، ثم فض الرسالة بعد أن تمعن بالعنوان، كانت الرسالة كما يلي:

والدي العزيز

أقبل يدك الكريمة، وأقبل وجنتيك الطاهرتين، وبعد:

الوالدة العزيزة بصحة جيدة، وقد سررت بلقائها، وتنسمت فيها رائحتكم الزكية، وقد أبلغتني بأخبار الجميع..

إذا سألت عني، يا والدي العزيز، فأنا، برضاك ورضا الوالدة، في صحة جيدة، وأحوالي في العمل تسير من حسن الى أحسن.

والدي العزيز، أنا مشتاق لسلمى كثيراً، ولقد فرحت وحزنت للأخبار الأخيرة، ومع ذلك أتمنى لها التوفيق في حياتها.

والدي العزيز

أبعث اليك بهذه الرسالة لكي أوضح لك وجهة نظري بالنسبة لأمور أساسية حدثت في الفترة الأخيرة، وأرجو أن أسمع منك رداً.

مثلما علمتني، وكما تعلمت منك، وأخيراً مثلما تعلمت في الولايات المتحدة: يجب على الإنسان أن يحدد لنفسه هدفاً في الحياة، وهذا الهدف هو الذي يقود خطواته، ويحدد مواقفه وعلاقاته. وأنا، يا والدي العزيز، منذ أن عملت في ميدان الأعمال الحرة، اعتبرت أن الثروة، والثروة وحدها، هي الهدف، ولذلك فإن السؤال الأساسي الذي أطرحه على نفسي صباح مساء هو: كيف أستطيع أن أصل الى الثروة، وكيف أصبح ثرياً.

أشعر بعجز أو بصعوبة لتفسير أفكاري، خاصة في مجال العلاقات بالسلطة، فأنا اعتبر أن موران الدولة هي الأساس، وهي التي يجب أن أتوجه اليها وأن أتعامل معها، لأن موران ليست السلطان خزعل أو غيره. موران هي الكيان، هي الثروة، وهذا ما يجب أن أفكر فيه باستمرار.

لا أنكر أن السلطان خزعل ابتعثني وأنفق على دراستي، وكان يحبني. أكثر من ذلك تزوج أختي، ولكن إذا أردت أن أصل الى هدفي فلا بد أن أميز بين أمور كثيرة، لأن الخطأ، في مثل هذه الحالات، قاتل ومدمر. وإذا كنت في السابق قد تعاملت مع السلطان خزعل، وكنت قريباً منه، فلأنه كان يمثل موران، ولأنه كان قادراً على تقريبي من هدفي، فإذا اختلفت المعادلة الآن فلا بد أن أعيد النظر، وأن آخذ بعين الاعتبار الظروف الجديدة.

لا زلت أتذكر بوضوح تلك العبارة التي كان البروفسور ماكنلي لا يمل من ترديدها على مسامعنا في الجامعة: يجب أن نميز دائماً بين الرأسمال والإدارة. الرأسمال باق، وهو الأساس، وهو الذي يشكل القوة والهدف، أما الإدارة فإنها قابلة للتغير باستمرار، وقابلة للتطور، تبعاً لما تمليه حاجات الرأسمال وضروراته.

هذا المثل، يا والدي العزيز، ينطبق على ما نحن فيه، وبالتالي يحدد طريقة التعامل. فالحكومة، أية حكومة، هي الادارة، وهذه الإدارة قابلة للتغير باستمرار، أما الدول فهي وحدها الباقية والمستمرة، ولذلك فإن ما يعنينا هو الدول وليس الحكومات، إلا بمقدار ما يحصل التطابق.

واسمح لي، يا والدي العزيز، أن أعبر عن قضية شديدة الحساسية، وهي أن الإدارة السابقة لموران انتهت، ولذلك لا حاجة للتشبث أو الوهم، خاصة من قبل عائلة المحملجي. ولا أخطىء إذا قلت العكس. فالمهم الآن أن نقيم علاقات جديدة، لكي نزيل من أذهان البعض أننا محسوبون على الإدارة السابقة، وهذا ما أحاول أن أفعله الآن، سواء من حيث تنفيذ العقود السابقة، أو من حيث إبرام عقود جديدة. بهذه الطريقة يمكن أن نفرض وجودنا مرة أخرى، ويمكن أن تسمح بعودتك من جديد.

ومن هذه الزاوية يجب أن تفهم عدم وجود مصلحة أو ضرورة لزيارتي المانيا. وحتى لو أردت زيارتها يجب ألا تقبل، لأن الحساسية الموجودة في الوقت الحاضر يمكن أن تؤثر على أوضاعنا لفترة غير قصيرة.

ومن هذه الزاوية ارتأينا أنا والوالدة ضرورة قيامها بزيارة موران، إذ علينا أن

نميز بين الأمور الشخصية والعاطفية وبين المصالح المادية والمستقبل. وأنت تعرف أن الرزق الذي تركته في موران إذا نسي، أو لم يتابع، يمكن أن يتناهبه الطامعون، وهم كثيرون، ونحن حريصون عليه، ليس فقط كقيمة مادية، وإنما كقيمة معنوية أيضاً، خاصة انك تعبت وشقيت وأفنيت عمرك من أجله. وهذا الموضوع الذي قررته أنا والوالدة فيه اعتراف بالجميل وتقدير للجهد الذي بذلته.

والدي العزيز

هذا ما أردت توضيحه في هذه الرسالة، وفي حال وجود استفسارات يمكن أن تستوضح بشأنها السيد صفاء، وهو موضع ثقتي، ويعرف الكثير من التفاصيل. وسوف أتصل بك بعد عودتي من موران واطلعك على الموقف، وسأبذل جهدي لكي نلتقي في مكان ملائم.

وتقبل في الختام مودتي واحترامي، كما أقبل يدك الكريمة، ووجنتيك الطاهرتين، راجياً أن تبلغ الشقيقة سلمى تحياتي.

ولدك المحب والمخلص

غزوان

قرأ الحكيم الرسالة مرة أخرى وثالثة، وأشّر على بعض العبارات، ورغم أنه كان مؤافقاً، بصورة عامة، على الموقف، إلا أنه يحس بعدم قدرته على استيعابه. ولكي لا يقع في أخطاء، كما حصل في حالات سابقة مماثلة، قرر أن يتريث وأن يستوضح صفاء بعض النقاط. أما مسألة أن يكتب أو لا يكتب لغزوان فلن يقررها إلا في المرحلة الأخيرة، بعد أن يمعن النظر والتفكير فيما يجب أن يُعمل، وبعد أن يستكمل جميع التفاصيل. وإذا كتب، ولن تكون كتابته رداً على هذه الرسالة، وإنما ستعداها الى تلخيص فلسفته في الحياة، وربما من الأفضل ألا يفعل ذلك الآن، في ظل الظروف النفسية التي يعيشها، إذ قد تظهر من خلال الكلمات أو ظلالها، وربما أثرت على غزوان وعلى مشاريعه.

وفكر أن يستعيض عن الرسالة بمجموعة من الأفكار يدوّنها تحت عنوان:

« أوراق الغربة » أو « ذاكرة الأيام » ويضمنها تحليلاً وتقييماً لما حصل ، ويمكن أن تكون موسعة ودقيقة، لعلها تصبح درسا وعظة للأجيال اللاحقة، خاصة لأبنائه. ولام نفسه أنه لم يسجل يومياته، لو أنه فعل لأصبحت له الآن ذخراً، إذ من خلالها يستطيع أن يستعيد الوقائع واحدة واحدة، دون سهو أو خطأ، وربما كتب تاريخاً لمرحلة مهمة.

وشعر بالانقباض لأن أموراً أساسية كان يجب أن ينجزها في فترات سابقة، لكن مشاغل الحياة اليومية منعته من ذلك. كان يفكر على وجه محدد بالنظرية. انها الأساس وكل ما عداها فروع وتفاصيل. وها هو الآن، بعد سنوات من الاستعداد والتحضير، يراوح في مكانه. لم ينجز شيئاً يعتز به، وحتى الأشياء المادية التي حققها تبدو له الآن عرضة لمخاطر لا نهاية لها، إذ ربما يطمع بها، ومن الشركاء بشكل خاص، وعلى التحديد بعض الأمراء ، وقد يستغلون غضب فنر عليه، ويضعون أيديهم على الأراضي والعقارات التي له. أنهم قادرون، وضمائرهم لا تمنعهم. وتذكر وقائع معينة حصلت بمعرفته، لكن اعتبر نفسه غير مسؤول.

وتأكد تلك اللحظة أن سفر غزوان ووداد يمثل منتهى الحكمة والنضوج. يجب أن تحمى الممتلكات، لأن لا فائدة من ندب الماضي. وشعر بالاعتزاز لأنه احتاط منذ وقت مبكر وسجل أكثر هذه الممتلكات بأسماء وداد والأولاد. وشعر باعتزاز مماثل لأنه استطاع غرس بعض العادات والتقاليد في العائلة. وها هو غزوان يدرك ويعترف فيقول له في الرسالة: إن قيمة الرزق لا تحدد بمقابل مادي فقط وإنما بمقابل معنوي أيضاً، كونه يمثل تعبه والارتباط به.

وكاد يكتب رسالة قصيرة قبل أن ينام يشير فيها الى هذه النقطة بالذات، لكن شعر أنه غير متحمس بالمقدار الكافي. أكثر من ذلك اعتبر القضايا كلاًّ واحداً غير قابل للتجزئة، فاما أن يكتب أو لا يكتب.

نام تلك الليلة دون أن يقرر. نام على جنبه الأيمن، لأن ذلك أكثر بركة وأكثر صحة.

أما في اليوم التالي، وأثناء جولة العمل مع صفاء، فقد استفسر عن العقود

السابقة، كيف نفذت، ومدى رضا غزوان عن النتائج. وتعمد ألا يسأل صفاء عن الأرقام، فقد قدّر أنه لا يعرف، أو بالأحرى يجب ألا يعرف. وسأله عن العقود التي يحتمل أن يبرمها غزوان وما هي توقعاته بالنسبة لها. وصفاء الذي حفظ الدرس جيداً، ربما بتكليف من غزوان، تلاه بطلاقة وفرح، وأشار، بسرعة، إلى أن الأمور تسير سيراً جيداً للغاية، وأن المستقبل سيكون أفضل بكثير. ولم ينس ذكر الأصدقاء الكثيرين من موران وغيرها الذين يزورون الأستاذ غزوان، أو يتصلون به، للاستعانة به أو لتكليفه بعدد من المشاريع الكبيرة، وكيف أن الأمور لم تتغير، نتيجة ما حصل في موران، بل ويستطيع أن يقول العكس.

كان الحكيم يستمع بكثير من الاهتمام والشغف. وكان يفترض أرقاماً ونتائج معينة للعقود والمشاريع. وتمنى لو كان قريباً من غزوان، أذن لأ ثار عليه بأفكار ومشاريع جديدة يمكن أن توسع أعماله وتسرّع بها، لكن ما لبث أن صرف النظر. قال لنفسه: «غزوان ملم وواعٍ ويعرف ما يجب أن يعمل» وضحك وهو يتذكر المثل: لا توص الحريص. وتذكر مقطعاً من الرسالة، وقد أشار فيه غزوان الى أن سفر وداد جاء باقتراح منه، فسأل صفاء عن الموعد المحتمل لعودتهما. تعمد أن يسأل بهذه الطريقة العامة، فأجابه أن البطاقات كانت بالدرجة الأولى، وأنها من سان فرانسيسكو ذهاباً وإياباً، وصالحة لمدة سنة قابلة للتجديد بالنسبة لأم غزوان. أما طريق العودة فإنها مرنة، إذ يمكن أن تعود عن طريق لندن أو باريس، أو أي طريق آخر تختاره.

تركت الإجابة بعض الظلال بالنسبة لعودة وداد، وقد أقلقه هذا الأمر، فسأل صفاء، عرضاً، عن العلاقات مع الإدارة الأميركية، وحول تأخر السفارة في منحه سمة الدخول، وقال ان ذلك يسيء الى الولايات المتحدة ويضعف الثقة بها، فأكد له صفاء أنه سيتولى الأمر بنفسه، حتى لو اضطر الى الرشوة، ودفع مبالغ معينة إلى بعض الأشخاص الذين يعرفهم ولهم علاقة، وقد يكلف محامياً لمتابعة الموضوع، وهو متأكد أن النتائج ستكون إيجابية وسريعة. سرّ الحكيم كثيراً، وأكد عليه أن يفعل ما بوسعه وبسرعة، وختم الحديث حول هذه النقطة، وهو يطبطب على ركبته ويضحك :

ـ تابع الأمر، يا ابني، بهمة، وحسب ما تشوفه مناسب، بس بدون ما يعرف غزوان!

وبعد قليل، ولئلا يترك ظلالاً من الشك:

ـ لأن غزوان، الله يسلّمه، مشغول، وكثير النسيان.

أثناء اللقاء جاء هانس أورلخت لزيارة الحكيم. جاء بصحبة مترجم عينته السفارة. وخلال اللقاء تم التعارف بينه وبين صفاء، وبسرعة تبادلا بطاقات الزيارة وتحدثا حول فرص العمل. وقبل أن ينتهي هذا اللقاء اتفقا على أن يسافرا معاً في اليوم التالي الى بون، لأن صفاء يجب أن يلتقي هناك بالمستشار الأول للسفارة، والذي زارهما في سان فرانسيسكو وقضى أسبوعاً في ضيافة غزوان وبرفقة صفاء، وكان على هانس أن يحصل على كتاب من السفارة من أجل شراء قصرين للسلطان، أحدهما قررت موران شراءه له، والآخر قرر السلطان أن يشتريه.

تبين للحكيم، من خلال الحديث، أن أموراً كثيرة جرت في الفترة الأخيرة دون معرفته، ورغم ذلك تظاهر أنه يعرف، وأنه ملم بأدق التفاصيل، لكن ظروفه الصحية لم تمكنه من المشاركة!

في ختام اللقاء، أشار صفاء، بكثير من التهذيب، إلى أنه سيمر في اليوم التالي، «للسلام والاستئذان بالسفر»، وأشار، أيضاً، أنه جاهز لحمل أية رسالة أو توصية. أما ما تبقى من النهار فسوف يقضيه في جولة داخل المدينة وحولها وأنه استأجر سيارة لذلك.

ظل الحكيم حائراً متردداً: هل يكتب جواباً لرسالة غزوان أم لا. وفيما إذا كتب هل يبقى في إطار الرسالة نفسها أم يتحدث في الأمور الأخرى؟ وغزوان لماذا يبدي هذه التحفظات والمخاوف، ألم يكن بمستطاعه أن يقترح مكاناً لكي يلتقيا فيه دون أن يعرف أحد؟

ووداد، إذا ذهبت الى موران، متى تعود، وماذا تستطيع أن تفعل هناك؟ انه يعرف أهل موران، يعرف كيف ينظرون الى المرأة وكيف يتعاملون معها.

كان يجب أن ينبه غزوان لئلا يصبح مضغة في أفواه الصغار والكبار، في أفواه الذين يحبونه والذين يكرهونه. صحيح أن ما تركه في موران كثير وعزيز، لكن لا أحد يستطيع أن يتابعه مثله، أو على الأقل يجب أن يتابعه رجل يتمتع بالمعرفة والعلاقات. وشعر بالندم لأنه لم يطلع أحداً على الكثير من المعلومات التي لديه، كما لم يزودهم بالأوراق التي بحوزته.

لم يقل له صفاء أن يهيء رسالة، كما لم يعد. قال كلمة عامة تحتمل أكثر من معنى. انها طريقة غزوان ذاتها، فهو يحب أن يترك لنفسه وللآخرين أكثر من خيار. انها طريقة ذكية، هذا الشيء الذي لم يعرفه، كان حاداً، وكان يرى الأشياء بلون واحد، وتذكر العلاقات التي قامت له بالكثيرين، وكيف انتهت بالعداء أو بسوء الفهم. أغلب أصدقائه تحولوا الى خصوم. لماذا؟ ألم يحسن اليهم؟ ألم يساعدهم؟ لماذا أصبح البشر هكذا؟

وإذا لم يكتب، هل يكتفي بمجموعة من التوصيات؟ وهل سينقلها صفاء بدقة؟ ماذا لو أضاف اليها استنتاجاته وأفكاره، وربما أكاذيبه؟

انه يشعر بحالة من الضياع، لا يعرف كيف يتعامل مع البشر. حتى أقرب الناس اليه، زوجته، لا يعرف كيف يتعامل معها. كل واحد من الناس جزيرة منفردة عن الأخرى، يفكر وحده، يتصرف وحده. لماذا أصبحوا هكذا؟

كان مساءً كابياً أقرب الى القهر. مرت الوجوه والذكريات مثل موكب حزين. حاول أن يبعد الكتابة. قال لنفسه: «الوحيدة التي تستحق الاهتمام هي الطفلة، أما نحن فقد عشنا حياتنا كلها». وحاول أن يستعيد ملامح سلمى منذ البداية. تذكرها طفلة صغيرة تحاول أن تقول أولى الكلمات، ثم بعد ذلك كيد بدأت تمشي. كانت بإصرار تحاول لكن في الغالب لا تستطيع. كان يحبها أكثر من اخوتها الذكور، كان يعتني بها بشكل خاص. لم يكن قصده بريئاً، كان يريدها مادة لدراسته. أخضع نفسه لمنهج صارم في الدراسة خلال الشهور الأولى. كان يكوّر فمه بطريقة معينة، ويقول «بابا». ويكوره بطريقة أخرى ويقول: «دادا». راقب كيف تسير، كيف تتصرف، وكيف تتعامل مع الآخرين. بدت له، منذ اللحظة الأولى، أقرب إلى الدمية، وكاد يواصل الدراسة

لولا أن شغلته أمور الحياة، ثم سافر.

لماذا تركها وسافر؟ أمن أجل المال؟ لقد كان عنده مال يكفيه. ولماذا زوجها للسلطان؟ أمن أجل الجاه؟ لقد أصبح معروفاً ومرموقاً وقوياً بحيث لا يحتاج الى جاه أو الى موقع جديد.

في مستشفاه الذي بناه في حران، كان يتمنى لو أن سلمى طبيبة إلى جانبه. كان يتصورها تحضر معه العمليات، تساعده، تقف دائماً الى جانبه. وتخيلها تضع على وجهها القناع، ودون كلمات، من النظرة، من الإلتفاتة، تفعل ما يجب أن يُفعل، تستجيب لكل ما يريد، تلبي طلباته، تقوم ببعض الأعمال نيابة عنه. هكذا كان يتصورها، وهكذا كان يريدها.

الآن لا يعرف ماذا تفعل، أو في أية حالة نفسية هي، وأيضاً دون أن يحقق لها، أو لنفسه، ما كان يتمنى. لماذا كان أنانياً وسمح لنفسه أن يفعل ما فعله؟ وهي، هل تسامحه؟ هل تغفر له؟

لولا البلابل، هذا المساء، لشعر بالأسى، انها لا تتوقف عن التغريد، إذ ترتفع الى أقصى مكان في القصر، أو تهبط الى جانب سيقان الأشجار، وتتخاطب بتلك الطريقة الفذة، تفعل ذلك وهي تطير وتحط، وحين ترقّص أذيالها أيضاً بلذة. شعر أن لا فائدة في كل ما عاشه وما فعله، لكن تلك المخلوقات الصغيرة الراكضة تشعره بنوع من التوازن مع ما يحيط بها. ينسى لحظة، يغيب، لكن مع ذلك يحس أن حياته ذهبت دون معنى. حتى غزوان، وهو يحصل على المال يعرف كيف يتصرف به. أما هو فقد جمد كل طموحاته وحياته في مساحات من الأرض. وحتى هذه الأرض تبدو بعيدة ومستحيلة، ولا تتيح له حتى قبراً فيها. لقد أخرجوه، طردوه مثل كلب، لم يمهلوه سوى عشرين ساعة «يجب أن تخرج، لا يهم إلى أين، المهم أن تخرج». لم يستطع أن يفعل شيئاً. انتزعوه كما تنتزع الحشرة السامة، ورموا به بعيداً.

وعاد الى سلمى الصغيرة، عود النعنع، التي لا تعرف الحياة. لقد انتزعها من ألعابها، ومن عالمها الوردي لكي يلقي بها في أشداق ذلك الوحش. قال

لنفسه: «حتى المصريون القدامى كانوا أحسن منا وأرحم».

وعادت لذهنه وداد: امرأة مختلفة، امرأة تريد كل شيء. لم تحاول في يوم من الأيام أن تتفاهم معه. التحدي هو الطابع الوحيد لحياتها: إما أن يذلها أو أن تذله. قال لنفسه بحزن «لم تحاول أن تفهم دوافعي وأفكاري، ولم تتعاون معي».

رغم الغضب، كانت أصوات البلابل تعيده الى الهدوء، فيشعر بالضآلة وما يشبه التوازن. يقول لنفسه: «الطيور والحيوانات أفضل من الإنسان، لأنها تعرف كيف تعيش. أما الإنسان فيعرف شيئاً واحداً: كيف يقضي على الآخر. ومن أجل القضاء على الآخر يبدد حياته كلها، ثم ينتحر».

وعنّت له فكرة أن يكتب كتاباً للمقارنة بين الإنسان والحيوان. كان متأكداً أنه منحاز الى الحيوان، وأنه سيدافع عنه بكل قوته، وبكل ما يملك من معلومات، لكن شعر أن معلوماته قليلة الى درجة لا يستطيع معها أن يقول شيئاً هاماً أو ذا معنى ودلالة. قال لنفسه بحدة: «متى يستطيع الإنسان الطيران؟».

وسيطرت عليه فكرة ساخرة: لا يتحرر الإنسان إلا بالطيران. ضحك وقال لنفسه: «الإنسان يفني حياته من أجل أن يمتلك جناحين، وبعد أن يمتلكها يغرسهما في التراب على شكل أسمنت وحديد».

ومع تغريد آخر بلبل، وقد هبط الظلام، قرر أن لا يكتب. سوف يكتفي بكلمات يبعث بها مع صفاء، وسوف يتحدث مع غزوان بالتلفون، أما ما يريد أن يقوله للآخرين، عبر غزوان، فسوف يكتبه في وقت آخر.

منذ أن وطئت قدما الحكيم أرض موران، قبل سنوات طويلة، لم يتخل عن الشك الذي ظل يلازمه حول طبيعة الناس وسلوكهم. صحيح أنه واجه بعض الصعوبات الناشئة عن الطقس في البداية، لكن تعود عليها بمرور الوقت. وواجه صعوبات مماثلة في تعلّم اللهجة، ورغم أنه بذل جهداً كبيراً لكي يتكلم مثل أهل موران، إلا أنه لم يستمر في المحاولة، لأن ذلك الإبليس، مالك الفريح«قعد لي ركبة ونص» كما يقول الحكيم، فإذا لم يسخر من لهجته بشكل مباشر، فلا بد أن يلفت نظر الآخرين، الأمر الذي جعله في وقت مبكر يعزف عن الاستمرار في هذه المحاولة البائسة. قال لنفسه بكثير من الثقة: «ما داموا يفهمون ما أقوله وأفهم ما يقولون فإن كل شيء عدا ذلك نافلة.».

ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن صعوبات الأكل واللباس والعادات، لكن استطاع بالمثابرة والاصرار أن يتعود على الكثير منها، وأقنع نفسه بعدم جدوى التعود على الأشياء الأخرى، وانتهى الى صيغة ارتضاها لنفسه وألفها منه الآخرون.

حين يتذكر الحكيم الأيام الأولى، ويتذكر الفترة الأخيرة، يعترف بثقة أنه قطع مشواراً طويلاً. فإذا سئل عن المدة التي قضاها، وكيف توافرت له كل تلك المعلومات عن موران، يشعر بالغبطة حين يرى الدهشة على وجوه سامعيه، فيبالغ في استعراض ما يعرف، وتزداد دهشة الذين يتابعون ويسمعون.

رغم هذه الحصيلة من الخبرة والمعرفة، فإنه يعترف لنفسه، في لحظات

معينة، أو على التحديد في لحظات الخيبة، أنه لا يفهم بالمقدار الكافي طبيعة الناس: كيف يفكرون، لماذا يسلكون بهذا الشكل، ما هي حقيقة عواطفهم ومواقفهم. فهم بمقدار البساطة التي تميز سلوكهم وأقوالهم وردود أفعالهم، فإنهم شديدو المكر، أقرب الى الغموض. أو مثلما قال في وقت مبكر: انهم مثل الصحراء التي يعيشون فوقها، إذ بقدر ما تبدو الصحراء بسيطة، مكشوفة، متشابهة، فهي خادعة، غدارة، ولا يمكن للإنسان أن يستحوذ عليها. ويتذكر الهدوء المخاتل الذي ميز بعض رحلاته، وكيف انقلب فجأة الى هوج ماحق. بل ويستغرب كيف قدّرت له النجاة. ورغم أنه متعلم، وسافر وتجول وقرأ الكثير عن الصحارى، إلا أنه لا يعرف إلا مقداراً بسيطاً قياساً لأولئك البدو الصامتين الضامرين، الذين كانوا يرافقونه في رحلاته، ويبدون وكأنهم خرس، أو فقدوا القدرة على الكلام، لكنهم في الوقت ذاته يملكون فراسة ملعونة أقرب الى غريزة الحيوان، ولولا تلك الفراسة التي تميزهم لهلكوا، فهي التي جعلتهم قادرين على البقاء كل تلك السنين، ومكنتهم من الاحتيال على هذه الصحراء القاسية الغادرة.

هذا الشك الذي سيطر على الحكيم وميز علاقاته ونظرته هو الذي جعله قليل الثقة بالآخرين، فقد حرص، منذ البداية، على أن يبقى بعيداً «لأن البدو إذا أخذوا وجهاً طمعوا» وكان يضحك ويضيف: «لا تدل الشحاذ على باب دارك».

الآن وهو يستعرض الوجوه والتجارب، ثم النتائج التي توصل اليها، يزداد اقتناعاً وتأكداً، إذ لو لم يكن على هذه الدرجة من اليقظة والحذر لهلك منذ وقت طويل.

إن ذلك جزء من تاريخه الذي يحاول أن ينساه، أو يهرب منه، لذلك لا يتردد في الاعتراف لنفسه على الأقل، أنه وضع ثقته بأناس أثبتت الأيام أن تلك الثقة لم تكن في مكانها، وهذا ما جعله يتغاضى عن ملاحظات زيد الهريدي، أو عن بعضها على الأقل، ويعتبر أن دوافعها الشعور بالخيبة، وبالتالي لا يبرىء نفسه من المسؤولية.

كان مستعداً لأن يبدأ من جديد، وهذا ما دعاه للمجيء والسكوت، وما دعاه أيضاً لأن يتصرف بتلك الطريقة.

حتى اليوم الذي وصل فيه الامير مجحم كانت الصورة له مفهومة ومبررة. أكثر من ذلك بدا له أن السلطان يستجيب لأفكاره ومقترحاته، ثم فجأة يتغير كل شيء. ماذا حصل في تلك الزيارة؟ ماذا قالوا للسلطان وبأي شيء رد عليهم؟ ولماذا كتموا كل شيء عنه؟ قال لنفسه في محاولة لتفسير ما حصل: «العلاقة بيني وبين السلطان لا يمكن لأحد أن يفسدها أو أن يغيرها، لكن ربما مرضي هو السبب». وبدا له هذا السبب مقنعاً، فالسلطان، منذ لحظة التعارف الأولى، وحتى لحظة الغداء مع الأمير مجحم، كان في منتهى الود والثقة، وإذا كانت قد حصلت فجوات صغيرة في موران، عندما انقطع السلطان، ولم يره، فإنه لم ير الكثيرين أيضاً، ولقد كان لتلك المواقف مبرراتها. الآن هو بحاجة إلى الآخرين أكثر من السابق.

ووصول عدلة؟ لقد بالغ في إعطاء أهمية لهذا الموضوع، إنه أمر طبيعي للغاية، فقد زوّج سلمى وهو يعرف أن عدلة أولى الزوجات، ولا يمكن للسلطان أن يتخلى عنها، فهي التي زوّجته بالكثيرات. ويعرف أيضاً أن الشرع ذاته يعطي للإنسان العادي أن يتزوج أكثر من امرأة، فكيف إذا كان سلطاناً، ومثل خزعل بالذات؟ لذا يجب أن لا يعترض. صحيح أن اللياقة تقتضي أن لا يعكر مزاجه في شهر العسل، لكن الظروف الراهنة غير طبيعية، لذلك يمكن فهم الكثير من الأمور، ويمكن أن يتسامح.

ما لفت نظره أن السلطان تغير. في الأيام الأولى وجد للصمت تفسيراً جزئياً، لكن حين يسمعهم يتحدثون باهتمام وانفعال، وما أن يطل عليهم من الباب الجانبي للحديقة الخلفية، حتى يغرقوا في الصمت، ويتبادلوا نظرات لا تخلو من مغزى، ثم يبدأ ضجرهم، وبعض الأحيان ضيقهم، ولا يجدون وسيلة إلا بأن يفضوا الجلسة، انه لا يستطيع أن يفهم ذلك أو أن يجد له تفسيراً مقنعاً.

التقى بالسلطان بعد وصول زوجته عدلة مرتين، وفي المرتين كان السلطان

أقرب الى السهوم، إذ لم يتبادل معه سوى كلمات المجاملة. كانت اللقاءات قصيرة، وغالباً ما يتصرف زيد بطريقة توحي بانتهاء الجلسة، إذ يقول، وكأنه يخاطب الحكيم:

- نشوفك تعبان، يا طويل العمر، ويلزم تستريح.

والسلطان الذي كان يجامل حتى الذين لا يحبهم، فيبقى معهم ويتحدث ويسمع، فإنه الآن سريع الاستجابة لكلمات زيد، وكأن تواطؤاً بين الاثنين، إذ يقول:

- اللي تقوله يا زيد صحيح، وهذي الديرة هواها غدار، لا ينوم لا في الليل ولا في النهار.

وينهض إيذاناً بانتهاء الجلسة.

لما بدأ الحكيم يطيل إقامته في الحديقة، يرقب الحمام والبلابل، ويعتني بالزهور، لكي لا يفكر بأمور السياسة والمستقبل، بدأ السلطان يطيل إقامته في جناحه الخاص، أو بدأ يطلب أن يوافيه بعض الأشخاص الى هناك. والحكيم الذي كان في وضع نفسي وصحي لا يمكّنه من المشاركة، لم يكن مهتماً بحضور مثل هذه الاجتماعات، وقدّر أيضاً أن الحاجة اليه ستضطرهم للاستعانة به. كان يقول لنفسه «أنا متأكد أن الأمر لن يطول، وسوف يعود كل شخص الى حجمه الطبيعي.».

لفت نظر الحكيم أن زيد بدأ ينظر اليه بطريقة مختلفة عن السابق، نفس نظرة البدو، وكأنه يختبره. كان يتطلع الى عينيه، فإذا التقت النظرات هرب. ولأنه يعرف البدو، وطريقتهم في الاختبار، إذ يخافون أن تفضحهم عيونهم، فإنهم لا يتركون للآخر أن تلتقي نظراتهم بنظراته بشكل مباشر. فإذا قبض عليهم متلبسين بهذه النظرات، أو بهذه الحالة، يبتسمون بغباء، في محاولة لأن يموهوا. وحين يُتابعون ويُراقبون يصبحون مضطرين للاعتراف. لقد خبر هذه الحالة مرات كثيرة، ولذلك لا يمكن لنظرات زيد أن تموه نفسها، أو أن تخفى عليه.

وزيد الهريدي.. من هو بالنسبة له؟ انه مجرد مرافق، خادم، شخص عادي. وبالصدفة، أو لسبب ثانوي، أصبح قريباً من السلطان، ولأنه يعرف كيف يكون مخلصاً لسيده، مطيعاً وناقلاً للأخبار والوشايات، ومسؤولاً عن تلبية جميع المطالب والرغبات، فقد أصبح في هذا الوضع الذي يبدو فيه قوياً في الظاهر، لكن قوته محدودة ومؤقتة، وهي مستمدة من السلطان أكثر مما هي قوة ذاتية. ويتذكر الحكيم كيف كانت مواقف زيد تجاه بعض الأشخاص أو بعض الحالات: إذا رأى السلطان غاضباً، أو غير راضٍ، يغضب أكثر منه، ولا يمكن لأحد أن يسترضيه أو أن يتحدث معه. كان يعربد، يهدد، ولا يتردد، بعض الأحيان، في أن يتصرف بحماقة، كأن يشتم ببذاءة أو يجلد، حتى إذا هدأ غضب السلطان، و نسيه، فإن زيداً أسرع منه إلى النسيان، بل ويبدو مستغرباً الغضب السابق!

ليس هذا كل شيء، فزيد لا يعربد، ولا يرفع صوته إلا على من هو دونه، أما من كانت له صلة بالسلطان، أو كان قوياً، فلا يجرؤ على أن يظهر له الغضب. كان يكتفي بالصمت، أو يتهرب منه. حتى إذا انتهت فترة السبات، كما يسميها الحكيم، وعاد السلطان الى سابق علاقاته ومودته، كان زيد أسبق منه وأكثر احتفالاً.

الآن، في بادن بادن، فقد زيد قدرته على التصرف. يبدو مرتبكاً عاجزاً، ويبدو كل يوم في حالة مختلفة عن حالة اليوم السابق، وكثيراً ما اختلط تفاؤله بتشاؤمه، وغضبه مع فرحه. وفي وقت لاحق بدأ الصمت فالعزلة، كما يفعل السلطان. أما بعد زيارة الأمير مجحم، فإن زيداً تنمر وبدا مختلفاً عن السابق، خاصة تجاه الحكيم.

بعد أيام عديدة من الانقطاع والعزلة والصمت والانتظار، لعل شيئاً يقع ويغير الوضع خلالها، قرر الحكيم أن يصارح السلطان، أن يفضي اليه بأفكاره ومخاوفه، وأن يخلص من هذا العذاب: « لا بد أن أطلعك، يا طويل العمر، على مكنون صدري وهواجسي، ولا بد أن نذبحها على قبلة: إذا أردت مشورتي فأنا جاهز، وقد جئت من أجل ذلك، وإذا كان لك رأي آخر فسوف

أستأذن وأسافر». وتساءل أين يمكن أن يسافر، وحين تذكر كيف أخرج من موران قال بحقد: « لا يهم الى أين، لأن الأماكن أصبحت متشابهة بعد يوم موران » وشعر أنه أخطأ سواء في إلحاحه على غزوان في المجيء الى المانيا، أو فكرة سفره الى الولايات المتحدة. قال وهو يهز رأسه « يمكن أن نلتقي في أي مكان. نختار مدينة صغيرة في أوروبا، لا تلفت نظر أحد، ونسافر اليها مثل السياح الآخرين ». وأحس بالندم لأنه ترك آلات التصوير القيمة في موران، وكذلك كل ثروته من الصور. قال وهو يزفر :: « يجب أن تكون للإنسان هواية تشغله، وكلما كانت الهواية أبسط كلما كان ذلك أفضل ».

ومرت في ذهنه هوايات كثيرة شغلت الآخرين، لكنها لم تشغله، بل كان ينظر اليها بازدراء وسخرية: الخيول، السيارات، الصقور، أو جمع قطع السلاح القديمة والنادر« هذه ليست هوايات ممتعة أو مفيدة، انها تشبه القمار، ومن يتعلق بها لا بد أن يدفع ثمنها غالياً » واستعاد ما قاله للسلطان ذات مرة أثناء زيارتهما لحران، قال له انه سيصدر كتاباً عن حران، وسوف يسميه « مدينة تتكلم » وكان مقرراً أن يكون للصور دور في هذا الكتاب، لكنه لم يواصل الموضوع، تركه لفترة لاحقة يكون خلالها أكثر تفرغاً واستعداداً، ومرت الشهور تبعتها السنوات، ولم يفعل شيئاً.

فكر فيما يجب أن يقوله للسلطان فوجد أن كل شيء غير مواتٍ: « كلانا في ظرف غير طبيعي، لأن الجروح لا تزال طرية، جديدة، وفي مثل هذا الظرف يظهر الأصدقاء وتظهر الصداقة، فإن أطرح عليه تساؤلات وخيارات مثل هذه معناها أني أريد التخلي عنه كما تخلى الآخرون، وليس من الشرف أن افعل ذلك. » وتمنى لو كانت وداد الى جانبه، لا بد أن تساعده في أكثر من موضوع، يمكن أن تفهم جو السلطان بعد مجيء الأمير مجحم، وبعد مجيء عدلة، ويمكن أن تجعله أكثر استعداداً واستجابة من خلال سلمى، فإذا تحدث معه يعرف ماذا يقول وكيف يقوله. ويمكن أن يتشاور معها بالنسبة لأي موقف قد يتخذه. انه الآن عند مفارق الطرق، ولا بد أن يختار. وتصورها وغزوان هناك، في موران، ولا بد أن تستعين بمطيع وراتب، وتنظم الأمور بحيث لا تترك فرصة لطامع. وندم أنه لم يعطها أو لم يعط غزوان وكالة عامة.

لو أنه فعل لاستطاعا نقل جميع الاملاك الى أسماء الأولاد. صحيح أن هذه الأشياء شكلية، لكنها ضرورية أيضاً: عمليات بيع أو نقل صورية، فقط لتثبيت الحقوق في هذه المرحلة، وعدم إفساح المجال أمام أي شك أو خوف. أنه يعرف الأمراء، كم هم جشعون ومحتالون. انهم يلجأون الى الجـزرة والعصا، يغرون ويهددون، ولا بد أن يصلوا الى ما يريدون. الأراضي أكثر ما تغريهم في هذه الفترة. يريدون أن يسجلوا كل شبر في موران بأسمائهم، ولا يشبعون أبداً.

قال لنفسه لكي يتغلب على هواجسه: «الخير فيما اختاره الله، وسفر وداد وغزوان عين الحكمة وقمة الصواب، أمـا المشاكل الأخرى فلها وقتها.».

وفكر أن يؤجل مفاتحـة السلطان. سوف يعطي لنفسه وقتاً إضافياً، ربما تتغير الأمور خلاله، وسوف يلجأ الى أسلوب غير مباشر. فكر أن يستعين بسلمى «لكن هذه الطفلة، منذ أن جاءت الامايةـ الكرنبية، أضيع من الأيتام على مائدة اللئام: ضائعة، خائفة» وعنّ له الاستعانة بشايع السحيمي، لكن تردد، «لأن ما عنده إلا سوالف العربان، وإذا طلع عنها فإلى الخيل، وإذا روّق وجاد يصل الى داحس والغبراء».

لم يبق أمامه إلا زيد «رغم كل حماقاته فنحن نعرف بعضنا، فإذا تفاهمت معه بشكل رحماني يمكن أن نؤثر على السلطان. أمـا إذا تمترست وتمتـرس، ووقعت بيننا، فسوف نخسر كل شيء».

وضحك وهو يتذكر زيداً عندما زاده في حران أول مرة. ويتذكر زيارة ولي العهد الى حران. كان زيد محرجاً متـردداً وهو يطلب منه المقويات. لكنه شجعه الى أن أصبح طبيعياً، ثم توثقت بينهما العلاقات. وتذكر بعض الهدايا التي جلبها لعدد من الأمراء، ثم فجأة أصبحت من نصيب زيد!

انه يعرف «هذا الحرذون الذي لا يتعب من هز رأسه، والذي يشبه الضفدعة وهو يردد كلمة أقرب الى الصوت: نعم». لا بد أن يؤثر عليه

ويستعيده مهما حاول أن يبتعد. يعرف نقاط قوته ونقاط ضعفه، وهذه المعرفة ستمكنه من إقامة علاقات جديدة وقوية. قال لنفسه: «كم كلمة حلـوة، وأنت الأول والتالي يا شيخ زيد، لا بد أن صاحبنا يسخسخ وينبطح، وبعدها يمكن أن يتلوزن ويصير مثل الخلق والعالم.».

كانت عينا الحكيم كعيني صقر، ترقّبان كل حركة، تتابعان كل شخص، وهدفه زيد الهريدي. لابد أن تعود العلاقة بينهما الى ما كانت عليه أيام موران. وزُيد الذي كان شديد الثقة بنفسه، قوياً مهاباً، أصبح الآن مثل المرأة المهجورة: كثير الحركة، ينظر الى الآخرين بعيون متسائلة، لا يستقر في مكان أو مع جماعة.

لم يخف على الحكيم قلق زيد. قال لنفسه: «ليس الخط المستقيم دائماً أقصر الخطوط». تعمد أول الأمر أن يلتقي به في الحديقة، ثم أخذ يذهب اليه في البناء الجانبي ليشرب عنده القهوة، ويتحدث معه عن الطقس وأمطار الليلة الفائتة. وزيد الذي يستجيب مرة، كان يبدو عليه الضيق والضجر في مرات كثيرة، وغالباً ما يسود الصمت، مما يضطر الحكيم الى الإنسحاب.

بعد أيام من الغزل الناعم، تخير الحكيم وقتاً اعتبره مناسباً وفتح قلبه لزيد:

ـ يا شيخ زيد: رجل ورجل يلتقيان مهما حصل بينهما، أما جبل وجبل فلا يلتقيان، مهما كانت المسافة قريبة...

وحين ينظر اليه زيد باستغراب يتابع:

ـ عندي كلمة والثانية، ولازم تسمعني!

ـ كلي آذان يا أبو غزوان، تفضل، سم.

ـ والحق ما أحد يزعل منه؟

ـ الحق حق يا أبو غزوان، وظني أن اللي يزعل من الحق ما له حق.

- بارك الله فيك يا شيخ زيد.

يتنفس الحكيم بعمق، يرفع يديه الاثنتين، وكأنه يوشك أن يطير، ويأتي صوته مختلفاً:

- من اليوم الأول كان لازم نقعد أنا وأنت ونتكلم...

- بعده ما صار شي، والدنيا بأولها، يا أبو غزوان.

هكذا رد زيد وهو يضحك، في محاولة لأن يشجع الحكيم على الكلام. تابع الحكيم:

- إذا اتفقنا أنا وأنت يا شيخ، إذا صفيت قلوبنا يمكن تتغير أشياء كثيرة وتساعد على عودتنا الى موران بسرعة.

يقهقه زيد، وهو ينظر الى تلك الجدية الظاهرة في قسمات الحكيم وكلماته أكثر مما يتطلب الموقف، وبعد قليل يقول وبقايا الضحكة على وجهه:

- أنا وأنت، يا أبو غزوان، مثل الجفن والعين، الواحد ما له غنى عن الثاني، واللي بينا أحسن ما يكون، إلا ما حرّم الله.

- يا شيخ زيد...

ويهز رأسه حزناً، وكأنه يتذكر أشياء كثيرة، ثم يخرج صوته من صدره:

- المصيبة التي أصابتنا يا شيخ زيد كبيرة، أكبر من أن يستوعبها الانسان أو أن يتحملها، ولازم نعترف أننا كلنا أخطأنا. كنا حسني النية وغافلين، وثقنا بأناس لم يكونوا يستحقون الثقة، ووضعنا أشخاص في مراكز وأماكن أساءوا الينا، وربما أكون أحد المسؤولين عن تعيين أشخاص كانوا سبباً فيما حدث...

كان زيد يستمع، يهز رأسه، ومستغرباً أيضاً هذا الحديث، أو ما يريده منه الحكيم. قال محرضاً:

- اللي تقوله صحيح يا أبو غزوان... لكن...

- المهم، عفا الله عما مضى، نحن أبناء اليوم، ولابد أن نتفاهم ونتفق!

ـ سم يا مبارك.

ـ طويل العمر ما له أحد غيرنا، ولا يثق بأحد ثقته بنا، ومن رأيي أن كل كلمة تقال له لازم نتفق عليها.

وتغيرت اللهجة، أصبحت غاضبة:

ـ وإذا أردت الصدق، يا شيخنا،، كل المشاكل اللي صارت إخوة طويل العمر هم اللي وراها، هم السبب...

ـ والحل يا أبو غزوان؟

ـ أن نقطع الصلة بهم، أن نمنـع اتصالهم بطويل العمر، وأن نتحمل المسؤولية نيابة عن جلالته.

ـ الرأي رأيه يا أبو غزوان!

وضحك ثم أضاف:

ـ والأخير أن ما نتدخل بين الأخوة يا أبو غزوان!

ـ هذون ما هم أخوة، هذول أعداء، وهم السبب بكل اللي صار.

هكذا رد الحكيم، وقد بدا حانقاً أكثر مما يحتمل الموقف، رد زيد برخاوة:

ـ مهما كان رأينا، يا أبو غزوان، يظل الرأي رأيه والقرار قراره.

ـ لكن ممكن إقناعه...

وتغيرت اللهجة تماماً:

ـ يا أبو راشد.. من يوم زيارة الأمير مجحم والأمور ما عاجبتني، السلطان تغير والدنيا تغيرت، ويمكن حصل شيء أنا لا أعرفه.

ـ أبداً يا حكيم، وأنت تعرف طويل العمر ومودته لك!

قال الحكيم وكأنه يخاطب نفسه:

- إذا ما فتحنا عليهم النار، إذا ما فضحناهم يتغدونا قبل ما نتعشاهم.

- وتريدنا نشتمهم ونقول عليهم فلاني وتركاني؟

- بعد اللي صار كل شيء مسموح وضروري، خاصة إذا كنا في حالة الدفاع عن النفس واستعادة الملك.

- لكن جماعتنا قالوا من قبل يا أبو غزوان: جيب المجنون وسبّ أهله وشوف جنونه من عقله، وظني أن طويل العمر ما يوافق ولا يعطي على أخوته وأهله.

- أذا كل يوم والثاني مطرّشين لنا خبر أو رسول، وحنا شغلتنا نضرب أخماس بأسداس وننتظر، تراها راحت علينا.

- وكّل الله يا أبو غزوان.

- والله، سبحانه وتعالى، قال: اعقل وتوكل، ما قال بس توكل!

اعتبر الحكيم أن هذه الجولة من المناقشة تمهيدية، ولابد أن يحاول مع زيد مرة أخرى، في وقت آخر، وسوف يلجأ الى اسلوب جديد إذا لم يُجْدِ هذا الأسلوب.

في المساء ذاته، وهو يجلس مع السلطان وزيد في الحديقة، ولم يجدوا الكثير ليقوله أحدهم للآخر، خيم صمت أقرب إلى الكآبة. أكثر من ذلك بدا السلطان أقرب الى المرض، كان أصفر الوجه على زرقة، ربما نتيجة التعب أو بسبب تضخم الكبد الذي يعاني منه منذ فترة طويلة. وإذ تطلع اليه الحكيم في محاولة لأن يقرأ في وجهه ما إذا كان المرض يعاوده مرة أخرى أو مجرد الإرهاق، فقد أجفل السلطان من ذلك التحديق، وحين سأله الحكيم ما إذا كان يشكو من ألم أو من تعب رد السلطان بسرعة أقرب إلى العصبية:

- أبد... أبد وأشوف حالي زين والحمدلله!

قال الحكيم بطريقة جليلة:

ـ درهم وقاية خير من قنطار علاج، والأخير، يا طويل العمر أن تأخذ دواء ليوم أو ليومين.

ولم ينتظر الحكيم، إذ نهض مسرعاً، دخل الى القصر، عاد بعد دقائق حاملاً علبتين من الدواء.

قال للسلطان وهو يبتسم :

ـ الدواء الأصفر ، يا طويل العمر، حبة واحدة قبل كل وجبة، وهذا الثاني الدواء الأحمر، حبة صباحاً وحبة قبل النوم.

تطلع السلطان الى الأدوية وتطلع الى زيد. كانت النظرات التي تبادلاها تحمل معاني لا حدود لها، معاني التساؤل والخوف والريبة وعدم الارتياح، سأل السلطان وهو يتناول العلبتين ويقلّبهما:

ـ ورأيك هذا الدوا ضروري يا أبو غزوان؟

ـ مجرد احتياط يا طويل العمر.

ـ احتياط؟

ـ مثل ما قلت لك، يا طويل العمر، درهم وقاية خير من قنطار علاج!

سأل زيد بارتياب:

ـ عطيت طويل العمر من هذا الدوا قبل هالمرة؟

ـ الدوا الأصفر أخذه جلالته من قبل، والدوا الأحمر منشط ومقوي.

قال السلطان ساخراً:

ـ النشاط والقوة من الله!

وبعد قليل قال لزيد مازحاً:

ـ وأنت يا زيد، يلزمك دوا ينشطك ويقويك!

رد زيد بدعابة:

ـ الأخير يا طويل العمر أن نظل على صومنا، وإذا أفطرنا بديرتنا أو بهذي الديرة أبو غزوان نشامة وما يقصّر.

بمثل هذه الدعابة انتهت جلسة السلطان، قام الى جناحه، وبعد قليل اعتذر زيد أنه متعب ويريد أن يستلقي على فراشه. والحكيم الذي كان ينوي متابعة حديث الصباح، خاصة بعد الجو المرح الذي تولد في اللحظات الأخيرة، شعر بهبوط وخيبةأمل لانسحاب زيد، قال في نفسه معزّياً «ألذ طعام ما ينضج على أهدأ نار وإن غداً لناظره قريب».

الظلمةتتسلل بخفاء ثم تتكاثف، ومع الظلمة يظلم قلب الحكيم أيضاً. كان يشعر بإنقباض الى درجة الكآبة. ودّ لو أن أحداً الى جانبه. كان يريد أن يتكلم، أن يستمع، أما أن يكون وحيداً ومتروكاً، أن يرقب من بعيد حركات الحرس، أن يرى هذه الخطوات البطيئة الثقيلة، أو أن يتابع الشرفات والأضواء، ويركز نظراته على البناء الجانبي لعل زيداً يخرج مرة أخرى، فإن هذه المهمة بمقدار ما تشغله تدخل الضيق الى صدره؛ أنه الوحيد بهذا الشكل، حتى الحرس وهم يتحركون، وهم يتبادلون الكلمات، يشعرون أن وضعهم أفضل من وضعه، فهم يفعلون شيئاً نافعاً، وأكثر حرية منه. لقد أصبح زائداً في هذا المكان، لا يفعل شيئاً ولا يفيد أحداً. والاسوأ من ذلك لا يعرف الى متى!

لماذا أصبحت الأمور بهذا الشكل؟ وشعور الضيق والخيبة هل يقتصر عليه أم يطال الجميع، ولذلك يتصرفون بهذه الطريقة؟ قال في نفسه وهو يزفر: «الهزيمة تولد الهزيمة، والناس المهزومون أسوأ الناس تصرفاً وفي جميع الأمور، وعلى الإنسان أن يفهم هذه الحالة، وأن يقيس الأمور على نفسه وعلى وضعه».

وبهدوء أقرب الى الهم والتعب نهض.

وهو يدور في غرفته راودته الرغبة أن يتصل بموران، أن يسمع صوت وداد وغزوان، أن يتحدث اليهما، سوف يقصر حديثه على الصحة والأحوال، ولكن بالتأكيد سيكتشف من الكلمات أو ظلالها الوضع كله، وسيعرف ما إذا

تحسنت الأمور أم لا تزال تراوح مكانها.

لكنه في اللحظة التي مد يده الى التلفون شعر بالتردد: « يمكن أن أخلق لهما إشكالات هما في غنى عنها، ويمكن أن يساء فهم هذا الاتصال هنا وهناك » ولم يطل به الأمر، صرف النظر عن الموضوع انتظاراً لوقت آخر. وفكر أن يتصل بصفاء، أن يسأله عن سمة الدخول الى الولايات المتحدة، لكنه وجد الأمر مبكراً وفيه تسرع أقرب الى الخفة «سوف يسيء فهم هذه الرغبة، وقد يعتبرها طيشاً». وقرر أن يؤجل الموضوع إلى حين عودة غزوان، أو يترك صفاء ليتصل بنفسه ويبلغه النتائج. فكر لو يتصل بأولاده في لبنان، لكن وجد أن الوقت متأخر ولا يجوز أن يوقظوا من نومهم في هذه الساعة ليسألهم عن صحتهم وأحوالهم!

ولا يعرف كيف عنّت له تلك العجوز في هامبورغ. تراءت له من جديد ومعها القطة التي كانت لديها. كانت أفضل من حاله الآن، القطة تشغلها، تتحدث معها، تقلق من أجلها. ويتذكر تلك النظرات الغاضبة حين اختفت القطة. ود لو يتصل بها في هذه الساعة، ويشرح لها أنه بريء، لا علاقة له البتة بإختفاء القطة. سوف تفهم موقفه الآن، بعد أن زال الغضب، وبعد أن مرت سنوات كثيرة على ذلك. ربما ربت قطة اخرى أو كلباً، ولابد أن تكون قد نسيت الموضوع كله ولكن هل تتذكره؟ هل تحفل الآن، بعد مرور هذه السنين، أن يشرح لها موقفه ويعلن براءته؟ وماذا يعني كل ذلك، خاصة ضمن الظروف التي يعيشها؟ كان يتمنى أن تكون بداية العلاقة الجديدة بينهما كتابه حول نظرية المربع أو حول تاريخ موران. هل يليق به أن يحدثها الآن عن القطة الضائعة؟ لا بد أن تفسر موقفه على أنه سخرية جديدة تضاف الى الإساءة السابقة. لن تفهم حقيقة دوافعه، ولن تتصور أن يتصل بعد سنين طويلة ليعتذر عن خطأ نسيته بكل تأكيد.

وهو يدور في الغرفة، وتدور في رأسه الأفكار والخواطر والرغبات، رأى صينية الطعام على الطاولة الجانبية. منذ فترة مرضه وهو لا يغيّر عشاءه: قطعة من الجبنة مع قليل من الخضرة والفاكهة، وقطعة من الخبز. لم يجد في نفسه رغبة للأكل، لكن تراءت له البلابل والحمام على شباكه منذ الصباح.. فتح

النافذة ويبدأ يقطع الخبز قطعاً صغيرة ينشرها على الافريز. سوف تأتيه الطيور في الصباح الباكر، سوف تتدافع على حافة النافذة وتصطدم بالزجاج. ستوقظه حركتها وعراكها وهي تلتقط قطع الخبز. إنه ما زال نافعاً، وهناك من ينتظره - هكذا قال لنفسه وهو يواصل بلذة تفتيت قطع الخبز، ويجعلها صغيرة قدر ما يستطيع.

كان يواصل هذه المهمة بلذة حين لمح زيد الهريدي يدخل القصر. نظر الى ساعته، كانت قد تجاوزت الحادية عشرة ببضع دقائق!

لماذا جاء في هذه الساعة؟ هل جاء لأمر عاجل أو بناء لطلب السلطان؟ هكذا تساءل باستغراب.

لم يمض على مجيء زيد نصف ساعة حتى جاءته سلمى. كانت خائفة، أقرب الى الاضطراب. بدت له أكبر عمراً وأكثر هماً من أية فترة سابقة. تأكد أن أخباراً خطيرة تنتظره، فأن يجيء زيد، وأن تجيء سلمى، وأن يكون وضعها بهذا الشكل، فلابد أن تكون هناك أحداث كبيرة حصلت.

تطلعت اليه وظلت صامتة، وظلت خائفة. سألها بعصبية إن كانت هناك أحداث جديدة وقعت في موران. هزت كتفيها دلالة أنها لا تعرف. سألها عن أمها وعن غزوان، قلبت شفتيها أنها لا تعرف. سألها لماذا هي خائفة ومصفرة الوجه، انتفضت وقالت انها لا تعرف. سألها ما بها، تنفست ملء صدرها وقالت ان السلطان جاءها الى غرفتها وقال لها كلمة واحدة، وحين لم تفهم هذه الكلمة قال لها: إذهبي الى أبيك لكي تفهمي معنى هذه الكلمة.

ارتجف الحكيم وخاف. تقدم نحوها، وضع يده على كتفها ودفعها برفق لكي تجلس على حافة السرير. كان قلبه يرتجف. لأول مرة، بعد تلك الليلة في موران، يشعر، مجدداً، بالخوف. استجابت له وجلست على حافة السرير. كانت خائفة أيضاً. نظرت اليه بسرعة. كانت عيناها عيني حمامة، كانت تهرب من نظراته، بل وتخاف منه، وكانت تريد أن تفعل شيئاً. لاحظ ذلك من حركة قدميها، إذ كانت تحركهما حركة عصبية سريعة. حاول أن يهدئها، لكنه نفسه لم يكن هادئاً أو قادراً على القيام بهذا الدور. تلفت حواليه عدة مرات. مرت في رأسه أفكار كثيرة. شعر بحقد على وداد، لماذا تركته وحيداً يداري

أموراً لا يعرف بها. للحظة خاطفة تصـور أن سلمى حامـل، وجاءت لتبلغـه وتصور أشياء اخرى أيضاً، لكنه لا يعرف كيف يسألها أو كيف يفهم منها.

جلس الى جانبها على السرير، نفض يديه من بقايا الخبز، وحين شعر بنسمة باردة قام وأغلق النافذة. لما رجع، وقبل أن يجلس من جديد سألها:

ـ ماذا قال لك؟

قالت وخرج صوتها مرتجفاً:

ـ قال لي: أنت طالز، أنت طالز، أنت طالز!

وردد بصوت خفيض لنفسه الكلمة لكي يستوعبها: أنت طالز. دارت عيناه في محجريهما دورة كاملة. أغمض عينيه قليلاً لكي يعيد ترتيب الحروف، ولكي يضعها في سياقها، وحين تبدت له تلك الكَلمة مدّ شفته السفلى مثل مجداف استغراباً ودهشة وألماً، وبعد لحظة سألها:

ـ وقالها ثلاث مرات؟

ـ أي نعم.

وقال لك إذهبي لأبيك؟

ـ أي نعم.

زفر كما يزفر حـوت، وبعد قليل، خرج صوته من أعماق صدره:

ـ بسيطة!

بخوف ممزوج بالارتجاف تطلعت اليه لكي تعرف معنى الكلمات التي قالها السلطان. حاول أن يبتسم. كانت ابتسـامته أقرب الى الحزن، ومليئة بالبلاهة. وضع يده على كتفها وشد على الكتف دلالة المودة. قال وهو يرفع يده الأخرى لكي يتنفس براحة:

ـ بسيطة يا بنتي، خلصنا.

وحين خيم الصمت، قال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ هذا الزواج كان من أوله غلط.

ولـم يجدا شيئاً يقولانه. غرقا في حالة من الكآبة والتفكير. لم يعرفا ماذا يتكلمان أو ماذا يفعلان. عاد الحكيم الى أول أيامه فـي موران. أيام كان في حران وحيداً، كان قوياً وواثقاً. وعاد الى الأيام الأولى في موران العاصمة. يوم جـاءت سلمى، والأولاد ووداد، وكيف تصرف وكيف تصرف الآخرون. تذكر كل شيء، شعر أن حياته كانت تافهة، دون معنى. والآن. . ؟ ماذا يستطيع أن يفعل الآن، بعد أن انهارت كل آماله واحلامه؟ ولماذا يبـقى هكذا فقط ليتلقى المصائب واللطمات؟ ولماذا ارتكب تلك الحماقة وزوجها للسلطان؟ وهل كان يستطيع أن يـرفض؟ جاءه حمـاد لا ليسأله عن موافقتـه أو رفضه، وإنما لكي يبلغه أن السلطان يريدها ولا شيء غير ذلك. والآن، ماذا يستطيع أن يفعل؟

وهو في هذه الأفكار والهواجس دُقّ الباب، قام بنفسه وفتحه. كان زيد يملأ الباب، تنحى له، دون كلمات، وأشار اليه أن يدخل.

كان زيد يحمل صرة تملأ كفه المفتوح، وباليد الأخرى علبتي الدواء. نظر اليهما الحكيم ونظر الى زيد. بد له، للحظات، أنه يرى هذا الوجه لأول مرة. بدا له غريباً وأقرب الى الشبح، ولم يفهم شيئاً.

الصمت ثقيل موجع، الرجلان يتبادلان النظرات ولا يفعلان شيئاً آخر. سلمى ترقب المشهد ولا تصدق عينيها. النور يتراقص وكأنه يوشك على الانطفاء، أو هكذا تراءى للحكيم. الأفكار تتراكض في رأسه كأنها الخيول الجامحة. لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يقول. بعد وقت بدا طويلاً وقاسياً خرجت كلمات زيد وكأنها تخرج من بئر:

ـ هذا الصداق وهدية. . وهذا الدوا طويل العمر ما يحتاجه.

ومد اليه بالصرة وبعلبتي الدواء. لا شعورياً تناولها الحكيم، لكن في اللحظة التالية سقطت من يده الصرة محدثة رنيناً مكتوماً، أما علبتا الدواء فقد شد يده عليهما بقوة.

تراجع زيد خطوة الى وراء. التفت أكثر من مرة، قال وهو يتطلع بطرف عينيه نحو سلمى:

- ويقول طويل العمر: إذا جاء الالماني نكلفه يلقي لها بيت!

وتحرك زيد من جديد إعلاناً عن انتهاء مهمته. قال الحكيم وخرج صوته مسكيناً:

- لي طلب واحد يا زيد...

- سم يا أبو غزوان

- إذا كان في أحد يوصلني لمحطة القطار

- هالحين؟

- أي نعم، هالحين، وأنا جاهز وسلمى جاهزة.

- خلنا للصباح يا ابن الحلال.

- لا يا زيد هالحين أحسن.

قلب زيد شفتيه وهز يديه وكتفيه دلالة الدهشة والاستغراب، وقال وهو يخرج:

- بسيطة.. خير.

قال الحكيم بلهجة حازمة مخاطباً سلمى:

- حطي على كتفك شي يا بنتي وخلينا نمشي.

ومثل حمامة خائفة قامت. مشت أمامه، وفي نهاية الممر فتحت خزانة الثياب. أخرجت معطفاً وشالاً. لبست المعطف وعلّقت الشال بأسنانها خلال اللحظات التي استغرقها ارتداء المعطف، ثم تناولته ووضعته على يدها وسارت وسار وراءها!

الحكيم، وهو يدلف الى فندق ستراسبورغ، القريب من محطة القطار في جنيف، في ذاك الصباح الباكر، وسلمى تقف على مبعدة خطوتين منه، وقد بدت خائفة، اثار الاستغراب والفضول معاً. وقبل ان يجيبه موظف الاستعلامات ما إذا كانت لديه غرف، وإنه مستعد لاستقبالهما، نظر إليه نظرة طويلة متأملة، ثم نظر الى سلمى وابتسم. أما حين سأل عن الأمتعة، فقد رفع الحكيم يده اليسرى إشارة أن لا امتعة، فهز الموظف رأسه دلالة أنه فهم الموقف كله! ولما تناول جوازات السفر وسجل الاسماء بدت عليه الدهشة، لأن الكنية واحدة، وفارق السن كبير الى درجة لا تصدق!

قضى الحكيم ثلاثة شهور وبضعة ايام في تلك الغرفة المتواضعة، المطلة على شارع جانبي، والتي تواجه مجموعة من النوافذ القريبة لبيوت اقرب الى الفقر، لم يطلب الحكيم تغييرها ولم تفكر إدارة الفندق بذلك.

وإذا كان أي نزيل، في اي فندق، يصبح مألوفاً بعد بضعة ايام، فقد ظل الحكيم يثير التساؤل والاستغراب. صحيح ان له عادات وأماكن لا يغيرها، وأصبح يعرف جميع العاملين في الفندق والجميع يعرفونه، لكن مع ذلك ظلت العيون تتابعه وتراقب حركاته وتصرفاته. حتى الزاوية اليمنى في مطعم الفندق، وقد شغلها صباحاً ومساءً خلال الاسابيع الاولى، كثيراً ما دفع الفضول بعض العاملين لأن يطلوا برؤوسهم ليتأكدوا انه هناك!

في الثامنة والنصف تماماً يشير المصعد إلى أنه في الطابق الثالث، وفي الثامنة وواحد وثلاثين دقيقة يكون الحكيم أمام الاستعلامات، يلقي التحية، يدير رأسه في نظرة دائرية واسعة، وكأنه صاحب الفندق، ليتأكد أن كل شيء

في مكانه، وليتعرف ما إذا رحل بعض النزلاء أو جاء غيرهم. فإذا اطمأن تخطّر لمدة خمس دقائق في الصالة المقابلة للمطعم، ثم يتوجه بخطوات ثابتة الى الزاوية ويحتل مقعده، ومن هناك يرقب الباب والمصعد. ولأن الجميع يعرفون أنه ليس وحيداً لا يقتربون منه. عند التاسعة، قبل التاسعة بدقائق أو بعدها بدقائق، تصل سلمى ويُقَدّم الفطور. بعد أن يغادرا المطعم يجلسان في القاعة المقابلة، يجلسان صامتين، أو يتبادلان بهمس حديثاً قصيراً، وغالباً ما يختار الحكيم الركن القريب من الباب، وراء العمود، ناحية اليسار. فإذا شغله أحد غيره يتضايق، ولا يخفي ذلك، ويظل يرقب المكان الى أن يفرغ. فإذا فرغ انقضّ عليه كالقط، لأنه في ذلك المكان يشعر بالأمن والراحة. بل أكثر من ذلك يشعر أنه يسيطر ويشرف على كل شيء.

حوالى العاشرة والنصف يغادران الفندق، ولا يعودان قبل الثانية والنصف، إذ كانا يتناولان طعام الغذاء في الخارج، وأغلب الآحيان في مطعم لا يغيرانه، عدا الأيام الممطرة، إذ يضطران الى البقاء في الفندق وتناول الغذاء أيضاً.

ولأن الحكيم تعوّد في موران أن يقيل لم يستطع ان يتخلص من هذه العادة، رغم انه لم يتوقف عن لوم نفسه، وبعض الاحيان تعنيفها، «ولأن مثل هذه العادات السيئة لا تناسب الاطباء»، حاول ان يتجاوزها لكنه لم يستطع ولذلك لا بد ان يكسر بعد الغذاء كسرة قصيرة، ولو لدقائق.

بين الرابعة والنصف والخامسة يجلسان مرة اخرى في البهو وفي الركن ذاته، وقد تطول الجلسة إذا كانت برامج التلفزيون مسلية او اهتم بها أحدهما. لكن في كل الاحوال يجب ان يخرجا لنزهة، ويجب ان يرجعا قبل الثامنة، لأن العشاء يقدم بين الثامنة والتاسعة. وما يكادان يفرغان منه حتى ينتقلا من جديد، الى البهو، والى الركن ذاته ايضاً، ليتابعا من هناك برامج التلفزيون، فإذا لم تطل الأفلام، أو لم يتخلل البرامج شيء مثير، فلا بد أن ينهضا بين العاشرة والنصف والحادية عشرة، وبعد سماع نشرة الأخبار بطبيعة الحال.

رغم الصرامة التي تبلغ درجة الآلية في مواعيد الحكيم وتصرفاته، والتي كانت تفترض تعوّد الآخرين والفتهم لها، فإن التساؤل لم ينقطع والاستغراب لم

يتته. موظف الإستعلامات وهو يرد على تحية الحكيم في الصباح ينـظر الى الساعة المعلقة وينظر الى ساعته ليتأكد. وخادمة المطعم تطل على الزاوية ذاتها. بكثير من الفضول، صباحاً ومساءً، لتكون أول من يلفت نظر العجوز القابعة وراء النافذة الصغيرة، والتي تقدّم الصحون، أو تتسلم البقايا، وتبتسمان. وجميع العاملين في الفندق، وحتى بعض الذين يقضون فيه أياماً، ينظرون الى ذلك الركن، وهم واثقون ان الحكيم سيكون هناك!

مدير الفندق وموظفوه الذين ارتابوا بالحكيم في الأيام الاولى، ، فاحتفظوا بجوازات السفر، لئلا يغادرهم دون تسديد الحساب، اعتبروا ان تقديراتهم خاطئة بعد أن وصلت إليه وبسرعة عشرة آلاف دولار، وصلت قبل نهاية الأسبوع الأول، استبقى الحكيم القسم الاكبر من المبلغ لدى الإدارة، واشترى لسلمى ولنفسه مجموعة كبيرة من الثياب، واشترى حقيبتين كبيرتين. فاعيدت إليه جوازات السفر، مع الاعتذار بأنها استبقيت سهواً! وأصبح يحاسب في نهاية كل أسبوع. ولما تكررت النداءات الهاتفية الى الولايات المتحدة أو منها، لم يعد موضع شكوك من ناحية ملاءمته المالية. أكثر من ذلك كان لا يُشعر بالحساب إلا عرضاً وببعض الخجل. ولم يتردد صاحب الفندق في أن يخصه بضع مرات بزهور وضعها له في الغرفة وبسلال من الفواكه. وقد سُرّ الحكيم من هذه الالتفاتات وقدرها بامتنان. وكرد على هذه المواقف كان يترك للعاملين هدايا مالية، في الغرفة أو في المطعم.

لو أن الظروف طبيعية لرضي الحكيم بهذه الحياة وهنيء بها، لأنه هنا يستطيع أن ينفذ الخطط التي طالما حلم بها وخطط لها. كان يمني نفسه أن يقضي أياماً هادئة إلى جانب البحيرات او في اعالي الجبال، لكن مشاغل موران وهموم الحياة في السنين السابقة جعلته ينسى، او بالاحرى يؤجل الرحلة الى اوقات اخرى.

الآن، وهو يخطو أولى خطواته في سويسرا، قرر أن يبدأ من جديد «الوطن وهم كبير، وتكفيني الاوهام التي عشتها في هذه الحياة» وحاول ان يحسب، على وجه التقريب، المبالغ التي سيحصل عليها إذا صفى املاكه في موران وباعها

كلها. بدا له المبلغ كبيراً إلى درجة يستطيع أن يشتري بجزء منه قصراً ومزرعة في مكان قريب من البحيرة، وهناك سوف يتفرغ للاشياء، التي يحبها: للتأمل ثم الكتابة والتأليف، وسوف ينجز اعمالاً كثيرة اجلها طوال السنوات الماضية. لم يكتف بالفكرة، بدأ ينظر بعين مدققة، وهو يسير في بعض الضواحي القريبة، الى الفيلات الانيقة والحدائق الواسعة، ولا يتردد في سؤال سلمى او استشارتها؛ بل وخطا خطوة أخرى، إذ طلب نصيحة مدير الفندق. ومدير الفندق لم يبخل عليه، بل واخذ يعامله بطريقة مختلفة عن السابق، وتمادى اكثر من ذلك، فسأله ما إذا كان يفكر أيضاً بتوظيف استثماراته في مشاريع تدر ارباحاً كبيرة. وقد اجابه الحكيم اجابات غير نهائية، وان لم يرفض. «حالما تعود وداد سأبدأ الخطوات العملية» لكن وداد لا تعود، وطالت إقامة غزوان في موران اكثر مما قدّر. وصفاء، على الجانب الآخر من المحيط، يطمئن الحكيم، يؤكد له ان «الشغل وحده هو الذي أخّر الاستاذ» «وأن الاستاذ والوالدة بصحة جيدة ويبلغون التحيات والاشواق».

ويواصل الحكيم مشاويره اليومية، يعبر الشوارع القليلة ويدور حول الميدان الى أن يصل البحيرة، او يعبر الجسر ليصل الى البحيرة من الجانب الآخر.

بدأ يتكيف مع الوضع الجديد او يقنع نفسه بهذا الوضع، تاركاً اتخاذ القرارات إلى وقت آخر: «يجب ان يكون لها رأيها، لأننا صفينا: راسي وراسها، ويجب أن تقرر لكي تتحمل المسؤولية، وليس مثل المرات السابقة».

في بداية الاسبوع الثالث، وحينما كان جالساً وسلمى في إحدى مقاهي الشاطىء، وكان النهار جميلاً والشمس مشرقة، وبدا فرحاً منتعشاً، مرّ اثنان، كانا يتحدثان باهتمام ومنشغلين، لكن فجأة التقت نظرات أحدهما بعيني الحكيم، فأجفل قليلاً، توقف للحظة ودقق النظر، ثم لفت نظر صديقه، فتطلعا معاً نحو الحكيم.

حصل كل شيء في لحظة خاطفة لم تستغرق اكثر من ثوانٍ، وكان يمكن للأمر أن ينتهي دون أن يخلف أثراً، لكن أن يعود الرجلان خلال ربع ساعة، وأن يجلسا في نفس المقهى، وأن يتبادلا الحديث وينظرا بين فترة وأخرى إلى

الحكيم، فقد دخل التوجس إلى قلبه وأصبحت خشيته جدية.

ومما جعله متوجساً أكثر انهما من موران: الملامح، التصرفات، النظرة. ولم يراوده الشك إنهما ينظران إليه ويتابعانه. تعمد أن يدير كرسيه قليلاً، أن يتحدث مع سلمى، أن ينشغل بمراقبة البحيرة او العابرين، لكن في لحظة مناسبة، وبطريقة لا تخلو من مكر، كان ينظر اليهما، وحالما تلتقي النظرات يهربان، أو يشعران بالحرج!

قبل ان ينهض نهضا. وقفا عند باب المقهى وتطلعا إلى اكثر من اتجاه. تراءى للحكيم ان واحداً منهما تحسس شيئاً تحت سترته، «ربما يكون مسدساً». للحظة رفض أن يصدق، لكن النظرات الشريرة الأقرب الى الحقد الممزوج بالخوف جعلته يتحسب: «بالتأكيد من موران وأرسلا من اجلي، ولا بد أن اكون مستهدفاً».

لكي يفوّت عليهما خطتهما، ولأنهما لاحظا انه دفع الحساب، قاما، مال على سلمى وسألها ان كانت تحب أن تتناول مشروباً جديداً، وحين نظرت إليه باستغراب واعتذرت. قال إنه بحاجة الى فنجان قهوة، لكي يصحو ويرّوق، وبعده يغادران. ولم يتأخر إذ طلب من الجرسون أن يأتيه بفنجان قهوة.

خلال تلك الفترة القصيرة فكر كيف يرجع الى الفندق: «يجب الا يعرفا الفندق، هذه هي المهمة الأولى» وتطلع الى الاتجاه الذي سارا فيه «ويجب أن اغيّر الطريق والاتجاه، إذ ربما كانا يكمنان في أحد المنعطفات» وعليه ان لا يدخل في أزقة جانبية أو مظلمة «لأن القتلة يخافون الأضواء والبشر». وفكر أن يبلغ البوليس، لكن اعتبر الفكرة مبكرة وربما تلفت النظر اكثر مما ينبغي. وشعر بالندم لأنه لم يحمل سلاحاً ولم يحتط للأمر. وحاول ان يعتبر ما حصل مجرد صدفة، لكن كيف يفسر التصرفات كلها منذ اللحظة التي التقت النظرات حتى لحظة المغادرة؟

تراءت له من جديد صورة فنر: وجه خشبي قاسي الملامح، الوجه عنوان الشخصية، لا يحرم ولا يحلل، حتى أخاه غدر به، فكيف الغريب والبعيد؟ «لا يريد ان يقتلني في موران لئلا يتحمل المسؤولية، أما هنا، في سويسرا، على

بعد آلاف الاميال، فيمكن أن تتم العملية بسهولة، ودون ان تخلف اثراً: مجرد قاتل مأجور وبضع رصاصات وينتهي كل شيء».

شعر بالانقباض والخوف. لم يكن جباناً الى هذه الدرجة، لكنه لا يريد ان يموت بهذه الطريقة، او بهذا المكان، وبهذه السهولة ايضاً!

بعد مرور أكثر من نصف ساعة رجا سلمى أن ترجع بمفردها إلى الفندق، مؤكداً لها أنه سيمرّ على إحدى الصيدليات، وحين أبدت رغبتها بمرافقته، طلب بإلحاح، بأن ترجع قبله، وأكد لها أنه لن يتأخر، ويجب ألا تخاف.

وهو يأخذ الاتجاه المعاكس، ثم ينعطف يساراً، لم يتوقف عن الالتفات. لأول مرة يشعر بهذا القدر من الخوف. لا ليس الخوف تماماً، إنه حالة من العصبية وعدم القدرة على التركيز، مع جفاف في الحلق وسرعة في ضربات القلب. رأى مجموعة من الأشخاص عند باب فندق هيلتون، فانتقل إلى الرصيف الآخر. وقد لفت نظره أنهم تابعوه باهتمام، فازداد توتره. «كان يجب أن أتصرف بطريقة مختلفة»، هكذا قال لنفسه، وهو يسرع أكثر من قبل ليخلص من هذا الحرج. عندما وصل إلى مفارق الطرق تردد قليلاً، يجب أن يذهب إلى اليسار، ليتجاوز الميدان ويواصل طريقة، لكن ماذا او كانا قد تجاوزا الميدان وانتظراه في الشارع المؤدي إلى المحطة؟ ولماذا لا يستقل تاكسي ويصل إلى الفندق؟ ولكن ماذا سيقول له السائق إذا عرف أن فندق ستراسبورغ على هذه المسافة القريبة؟

انعطف نحو اليمين وأسرع في سيره، التقى بامرأة مسنة آتية من الجهة الأخرى. نظرت إليه باستغراب: هل يبدو غريباً ومثيراً للانتباه؟ هل تظهر عليه علامات تلفت نظر الآخرين؟ قرر أن يبطىء في سيره وأن يعطي وجهه ملامح عادية اقرب الى عدم الاهتمام. التفت الى الخلف ليعرف ما إذا كان أحد يتبعه، رأى المرأة تلتفت أيضاً، اضطرب قليلاً: «يمكن أن تبلغ الشرطة وتثير حولي الشكوك». تطلع الى أعلى، رأى امرأة في إحدى الشرفات تسقي آنية زرع، وقد توقفت حين التقت نظراتها بنظراته، وتطلعت ايضاً نحو المرأة الاخرى. ازداد حرجه. يجب ان يتخلص من هذه النظرات. أسرع مرة اخرى، والتفت الى

اليسار. مجموعة من الطرق المتقاطعة. أين يذهب وكيف يصل الى الفندق؟ احتار. شعر أنه اخطأ. قال في نفسه: «الطرق الجانبية مصائد والقتلة لا يقتلون الا في مثل هذه الطرق». وقرر، مرة اخرى ان يندفع الى شارع رئيسي، لا يهم ان يكون بعيداً... لا بل الافضل ان يكون كذلك، لكي يضلل اي انسان يتبعه. يجب الا يخاف الضياع او عدم امكانية الوصول الى الفندق، فما دام يعرف اسم الفندق فإنه قادر على العودة.

انعطف مرة أخرى نحو اليمين؛ لاحظ أن بعض المارة نظروا إليه، اضطرب قليلاً لكنه قرر أن يتماسك، أن يبدو عادياً، بل وفكر لو يدندن بلحن لكي يضفي على ملامحه ونفسيته حالة أقرب الى الرضى والهدوء، لكن لم يستطع أن يواصل هذه الفكرة، بل وبدت أقرب الى التمثيل، أو الخفة، وحتى أقرب الى الرعونة.. وقد تثير الانتباه أيضاً.

لا زال متوتراً مع شيء من الاضطراب، ولا زال حائراً اي الاتجاهات يأخذ او بأية سرعة يسير. لاول مرة يراقب نفسه، ينظر الى الوجوه بتساؤل. ابطأ قليلاً ثم اسرع دون ان ينتبه. ما كاد يتجاوز حديقة صغيرة حتى وجد نفسه يتجه الى الشارع الموازي للبحيرة، الشارع الذي هرب منه! لم يستطع ان يتراجع، فالرجل والمرأة اللذان خرجا من إحدى العمارات، وكاد يصطدم بهما لحظة خروجهما، أفسحا له الطريق وظلا يسيران وراءه، وأية محاولة للتباطؤ أو العودة ستلفت نظرهما وربما تثير شكوكهما. قرر أن يواصل.

خلال الخطوات المتبقية حاول أن يستعيد ملامح الرجلين، وحاول أن يتذكر ماذا إذا كان الإثنان من هناك. ربما يكون أحدهما من الشرطة السريين الذين رافقوه اثناء تسفيره من موران. للحظة بدا له انه يعرف واحداً منهما، لقد رآه بكل تأكيد، لكن لا يعرف اين او متى. ولم يستطع ان يتذكر. لام نفسه على هذا العيب الذي لازمه منذ وقت طويل، إنه لا يتذكر الملامح بدقة، بشكل جيد، لأنه لا يدقق، أكثر من ذلك يتجنب النظر بتحديد إلى الشخص المقابل، ولا يحب أن ينظر إليه الآخرون بتدقيق، وكأنهم يفلّونه أو ينزعون ملابسه. عزا هذا الأمر في وقت مبكر ~~الى~~ إلى الخجل، وفي وقت لاحق عزاه إلى الهيبة.

وتداخلت ملامح الرجلين في رأسه واختلطت الوان الملابس، بحيث لا يقوى على تحديد صفتها أو لونها لو سئل. قرر أن يتوقف في زاوية الشارع، أن يتلفت في أكثر من الاتجاه، ثم يتظاهر أنه أخطأ، حتى إذا تجاوزه الرجل والمرأة عاد من نفس الشارع ليواصل طريقه نحو الفندق!

بعد اكثر من ساعة من الضياع المقصود وغير المقصود، وبعد ان دخل محطة القطار، وقضى فترة، وكأنه ينتظر مسافراً، وخلال تلك الفترة دقق بإهتمام بالذين مروا أو الذين يقفون مثله ينتظرون، فلما اطمأن تماماً اتجه إلى الفندق، سلك اليه طريقا مختلفاً عن الذي يسلكه كل مرة، وقبل ان يدفع الباب الزجاجي ويدخل، توقف، نظر الى السيارات المتوقفة، ونظر الى الشارع في الاتجاهين، ثم بسرعة انزلق كما تنزلق سمكة.

سلمى في الركن ذاته بخوف، وقد ازداد خوفها لما رأته، وهو يرتمي على المقعد القريب. سألته إن كان مريضاً أو يشكو من شيء، هز رأسه بالنفي، لكنها لم ترفع نظراتهما عنه، كانت تراقبه. تنظر إليه بتساؤل، وكانت أقرب إلى البكاء.

بعد دقائق أبلغها أنه سيصعد الى الغرفة ليستريح، وطلب منها أن تتناول الغداء بمفردها في مطعم الفندق، اضطربت، ثم اعتذرت. قالت إنها غير جائعة، وحين نهض نهضت معه..

في الغرفة سألته من جديد ان كان مريضاً او بحاجة الى مساعدة من اي نوع، فرد عليها إنه متعب ولا شيء غير ذلك، وسوف يستعيد نشاطه خلال فترة قصيرة. تذكرت مرضه في بادن بادن فخافت اكثر من قبل. قالت من الافضل ان يراجع الطبيب. هز رأسه ولم يجب.

حاول ان يتماسك، ان يبدو قوياً. طلب من إدارة الفندق غداء لواحد وكأساً من العصير. بعد الحاح كبير منه مدت سلمى يدها الى الطعام. كان يراقبها وهي تقضم قطعة الخبز،وهي تمد يدها بتردد. لم تأكل الا كما يأكل عصفور، وكانت تشرب الماء بعد كل لقمة. شعر بحزن. حاول ان ينام لكي ينسى، لكن النوم لم يطاوعه ولم يأته. تقلب كثيراً، غيّر وضع الوسادة، استرق نظرات الى

سلمى، رآها تراقبه. خجل. عزا عدم قدرته على النوم الى فنجان القهوة.

حين نهض من الفراش فعل ذلك بحيوية اقرب الى العنف، ليضفي على حركاته، ونفسيته شيئاً من العنفوان، ولكي يقاوم الخوف الذي يطوّقه. لكن هذه الحركات افزعت سلمى اكثر مما طمأنتها. أما وهو يعود من الحمام، بعد ان اغتسل، فقد سألها بشكل مفاجيء:

ـ ما رأيك بهذي اللحية يا سلمى؟

ومسّد على لحيته. كانت عيناه تحومّان، وكأنه يفكر بشيء آخر. قلبتْ سلمى شفتها دون ان تجيب. تابع:

ـ انها تلفت نظر كل من يتطلع اليّ؟

هل هي الحمى عاودته من جديد ولذلك يتكلم حول موضوع لم يخطر ببالها؟ وشكله الآن هل يزعجه الى هذه الدرجة؟ تجاوزت الامر وسألته ان تحسن وكيف هو الآن، رد بمرح:

ـ النوم والحمام الساخن احسن الادوية لمعظم الامراض!

حاولت ان تصدق، ان تبتسم، لكنها كانت متأكدة انه لم ينم لحظة واحدة. وبعد الحمام يحدّثها عن اللحية! تابعت حركاته بتدقيق لتتبين وضعه، قال وكأنه يحاول إقناع نفسه:

ـ يجب ان اتخلص منها...

وبعد قليل وبنبرة مختلفة:

ـ اذا مو اليوم اللي بعده!

ظلت تتطلع اليه وهي صامتة، فلم تكن تفترض أن أسئلته بحاجة الى إجابات، بل أكثر من ذلك تبدو لها غريبة وكأنها نتيجة الحمى. قال وقد أحس بهواجسها:

ـ الواحد يزهق إذا ظل بشكل واحد!

وقهقه وهو يضيف :

ـ اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

وحين هدأ :

ـ إذا كانت اللحية لازمة وضرورية لموران فعصر موران انتهى، ولازم تنتهي معه كل مستلزماته !

وهو يستعد للخروج رسم على وجهه ابتسامة كبيرة، شد جسده وتطلع الى نفسه في المرآة. ابتسم بمرح فاطمأن قليلاً، تلفت إلى الاتجاهين لكي يتأكد. حين أغلق الباب، لم ير أحداً ولم يسمع حركة. قال في نفسه «الانتباه والحيطة ضروريان دائماً» قبل أن يضع المفتاح لدى الاستعلامات ألقى نظرة فاحصة مدققة على القاعة ونحو الباب. بدا له كل شيء عادياً، وركنه فارغاً يستعد لاستقباله. ابتسم أكثر مما تعود، رفع يديه في الهواء أكثر مما يفعل في حالات مماثلة وتنفس!

خلال الفترة التي كانا يتابعان سيرك فرانكفورت، كان يغيب في أعماق موران وفي أعماق ذاكرته لكي يستعيد الوجوه. الألوان والملامح تتشكل تدريجياً ثم تعتكر وتتلاشى. حتى ملامح فنر تغيب، تتراءى له في لحظات معينة ثم تتداخل مع ملامح الآخرين، فلا يعود قادراً على استعادتها مرة أخرى.

في أحد المشاهد، ومروّض الفيلة يفرقع سوطه، ويدور بسرعة، تراءى له شبهاً تاماً بين المروض واحد الرجلين. ارتجف قليلاً وغرق في مقعده لا إرادياً وكأنه يتخفى، ثم استدرك وانتبه أن ما يراه مجرد سيرك. فكر لو يقترب أكثر لكي يتأكد، لكن اعتبر الأمر هراء ولا يستوجب منه هذا الإنشغال، تحرك في مكانه ليشعر سلمى أنه مستعد للحركة. . انتبهت فجأة، تطلعت إليه، قال لها وهو ينهض :

ـ كلها مسخرة، ضحك على الذقون!

ولا شعورياً تلمس لحيته، ثم انزل يده بسرعة، بعد أن استعاد ما قاله. قامت وتحركا!

ـ كانت تملؤه فكرة واحدة: أن يصبح شخصاً آخر، شخصاً جديداً!

بصمت ودراية سار. مشى الى نهاية الشارع وانحرف يميناً، تجاوز مجموعة المطاعم ثم انحرف يساراً، وبعد أن سار بضع خطوات أخرى دخل محلاً صغيراً، دخل بحزم وتصميم: مجموعات كبيرة من القبعات بأشكال وألوان لا حصر لها. كانت سلمى تقف إلى جانبه بترقب واندهاش: ماذا يريد؟ هل يفكر بشراء قبعة؟

جرب عدداً كبيراً من القبعات الى ان استقر على واحدة، واحدة تلبس رأسه تماماً، أما حافتها المائلة على شكل هلال فإنها تحجب جبينه كله وتنزل حتى الحاجبين. تأكد أنها تلائمه حين نظر الى نفسه في المرآة مواجهة وبشكل جانبي. ولكي يطمئن أكثر سأل سلمى إن كانت مناسبة أم لا، ردت بأن رفعت شفتها السفلى دلالة عدم المعرفة. ولكي لا يترك لنفسه مجالاً للتردد أشار للبائع أنه يريدها، ويريد واحدة أخرى. ساعده البائع في انتقاء الثانية، بعد أن عرف أي نوع من القبعات يناسبه أو يريده.

سارا في شوارع جانبية لم يمرا فيها من قبل، شعر الحكيم بالثقة. كان يرفع رأسه قليلاً لكي ينظر إلى وجوه الذين يمرون به. أخذ يراهن نفسه أنه يستطيع أن يعرف الأشخاص دون أن ينظر إلى وجوههم. وراهن نفسه أيضاً أن يحزر أطوال الذين يمر بهم وألوان شعورهم، بمجرد أن ينظر إلى الأرجل أو إلى السيقان، أو حتى إلى الأحذية! كان إذا مرّ رجل أو امرأة يخمن كيف يكون، وما يكاد يتجاوزه حتى يلتفت لكي يتأكد!

سلمى تلتفت اليه بين لحظة وأخرى. تتابع حركاته وانفعالاته والتفاتاته وقد امتلأت بالتحسب. لماذا يفعل هكذا؟ ماذا حصل له؟ لم تستطع أن تسأله أو تتكلم معه، فقد كان مستغرقاً في هذه المهمة، يمارسها بشغف، ولا يحس بنظراتها أو بنظرات الآخرين!

حين عاد الى الفندق، بعد هذه الجولة، كان أكثر اطمئناناً. أما حين رآه العاملون في الفندق وقد اعتمر، بزهو، القبعة وكان حريصاً على أن تظهر، فقد استغربوا، لكنهم اكتفوا بالابتسام!

لاحظ الاستغراب والابتسامات لكنه لم يحفل. المهم ألا يعرفه أحد، «سوف أضلل حتى العفاريت» قال لنفسه، وهو ينتزع القبعة ويضعها على ركبته. نظر الى لونها، الى مدى ملائمتها لملابسه، ثم استخرج القبعة الثانية ولبسها. كان يفعل ذلك بلذة، دون أن يأبه للنظرات التي تتابعه.

قال لمدير الفندق في اليوم التالي، لما رآه ينظر إلى القبعة ويبتسم وكان يهز رأسه:

- تعوّدنا في بلادنا أن نغطي الرؤوس، ومنذ أن وصلت الى سويسرا أشعر أنني عار بدون غطاء للرأس، ولذلك اشتريت هذه القبعة!

وافقه المدير وأضاف أن كل شيء في هذه الحياة عادة!

ومع القبعة، في الأيام التالية، نظارات سوداء وعصا، هي بين العكاز والبسطون، فبدا أكثر اطمئناناً، لكن أصبح أكثر إثارة لانتباه الآخرين. ولكي يحارب هواجسه وشكوك الآخرين، لا يتردد، في بعض الحالات، أن ينتزع القبعة أو النظارات السوداء، لكن حين يفعل ذلك يضطرب، يحس أنه مكشوف!

ويزداد حرصاً وحذراً يوماً بعد يوم، ويشتعل ذهنه في ابتداع وسائل جديدة للتخفي: «أكبر خطر يتعرّض له الانسان أن يعرف خصومه نظامه اليومي» «أفضل طريقة لتضليل الخصوم أن لا يكون لك عادة، لأن العادة، كما يقول الفلاحون فضّاحة، وأن لا يكون يومه مثل أمسه». وبطريقة لا تخلو من المكر يتفتق ذهنه عن عشرات الوسائل: لا تخرج في ساعة محددة؛ لا تتبع نظاماً ثابتاً؛ لا تترك احداً يعرف كيف تفكر أو ماذا تفعل؛ لا تتعود على أمكنة أو تعوّد الآخرين أن يجدوك هناك؛ لا تدخل الى مكان قبل أن تعرف كيف تخرج منه ساعة الخطر أو عند الضرورة؛ اعتمد دائماً على عنصر المفاجأة والمباغتة؛ اترك المكان دون أن يحس بك أحد.

كتب الحكيم هذه الوصايا وأخرى كثيرة غيرها. وسلمى التي ترقب أباها مهموماً مشغولاً، وتراه بين يوم وآخر يغير عاداته وشكله، لا تعرف ماذا حلّ به، وإلى متى سوف يستمر

في الصباح، يطلب المصعد، فما يكاد يصل حتى ينزل الأدراج على قدميه، أو ينزل الى الطابق التالي ويأخذ المصعد من هناك. الذين تعودوا على رؤيته في الثامنة والنصف، أصبحوا يلاحظون نزوله في أوقات مختلفة. ومع هذه الاحتياطات، فإنه كل صباح يسأل إن جاء للنفدق ضيوف من موران، ورغم معرفته بالجواب، كان يتظاهر بالأسف، لأنه ينتظر مثل هؤلاء الضيوف!

والزاوية على يسار الباب يجلس فيها مرة ويهجرها مرات. ومغادرة الفندق ليس لها موعد ثابت، وكذلك العودة. أما الأبواب الجانبية للفندق فقد تحراها بنفسه، وسأل أيضاً إن كانت هناك أبواب للطوارىء أو لإدخال المؤن. وسأل عن موعد إغلاق الباب الرئيسي. فعل كل ذلك بطريقة غير مباشرة ولا تخلو من مكر.

بعد أن يتأكد من الاحتياطات التي اتخذها يشعر بالثقة، بل ويشعر بالقوة أيضاً: «عقل الانسان قادر على اجتراح المعجزات، وباستطاعته التغلب على اعتى الصوم». يرفع ساعديه قليلاً، دون أن يترك لأحد ملاحظته، يتنفس ملء رئتيه، يستعجل سلمى بالخروج، وقد تهللت أساريره، ويبدا إنساناً مختلفاً عن الأمس أو الأيام السابقة. تتطلع إليه سلمى لتتأكد، لتعرف ان كان يعني كلماته. وفي الشارع يحدثها عن البيت الذي سيشتريه:

- يجب الا يكون على الضفة ولا في اعلى الجبل. على الضفة: الرذاذ، الرطوبة. رائحة الماء، كلها تؤذي الجسم، تجعله كسولاً؛ اما اذا كان عالياً فسوف يكون معزولاً وبعيداً وبارداً...

ويبتسم وتتغير لهجته:

- خير الامور الوسط!

ويعود الى اللهجة السابقة:

- ان يطل على البحيرة. لكن بعيداً عنها. ويجب، من ناحية الجبل، ان يكون محاطاً بسور عالٍ وبسياج من الاشجار الكثيفة والدائمة الخضرة، لأن السور والسياج يمنعان نظرات المتطفلين والمتسكعين ومضايقات الجيران أيضاً!

ويجيل نظراته في البيوت على التلال المحيطة بالبحيرة، يشير بأصبعه الممدودة الى عدد منها ويقول:

- مثل هذه!

وتتطلع الى حيث يشير لكن لا ترى!

يتابع كأنه يحدّث نفسه:

- ولازم يكون عندنا كلب او اكثر، كلاب المانية اصلية، لأنها احسن الكلاب للحراسة، ومطيعة، ولازم نربيها على ايدينا حتى تألفنا وتسمع كلامنا.

وحين يراها صامتة لا تعلّق ولا تسأل يتبسط في الحديث اكثر من قبل:

- طبيعي لازم تكون مدربة، لان تدريب الكلاب عملية ما هي سهلة، ولازم نعطيها اسماء جديدة، او يمكن توكها باسمائها احسن ما تضيع عليها وتتخربط.

ويتنفس ملء رئتيه فيخرج صوته مختلفاً:

- ولازم تكون بوابة الفيلا قوية، مثل بوابات القصور...

ولما يرى في عينيها الاستغراب والتساؤل وهي تنظر إليه يستدرك:

- طبيعي السرقات في سويسرا قليلة، والجرائم قليلة ايضاً: الناس شبعانة وراضية، ولذلك فالدنيا أمان، لكن الاحتياط ضروري.

ولا شعورياً يلتفت حواليه، يحس بقشعريرة باردة، يتابع باضطراب:

- ولازم يكون عندنا حارس وخدام وطباخة، لأن الواحد منا ما راح يشغل نفسه بالاشياء الصغيرة: افتح الباب، سكر الباب، او بالمسح والكناسة او بحمل الاغراض من السوق...

وتتغير اللهجة:

- هذه الاشياء لها اصحابها.

وما يكاد يعبر الجسر ويصل الى الضفة الثانية من البحيرة ويدخل الى الأسواق حتى يضطرب قليلاً: «جماعتنا ما عندهم همّ إلا الأسواق، فإذا ضيّعت واحد لا بد تلقاه في السوق!» ويحاول أن يفكّر بأمور أخرى، أن يشغل نفسه بواجهات المحلات لئلا تلتقي نظراته بواحد يعرفه. كان يلفت نظر سلمى إلى الأزياء، الى الأحذية، يحضها على الشراء، لكنها تكتفي بكلمة:

ـ اللي عندي يكفيني!

حين جلسا في مقهى، قريباً من الجسر، نظر بعناية الى الوجوه. لاحظ وجود شاب إسمر، وقد تطلع اليه والى سلمى، وابتسم. هذه النظرة مع الابتسامة أقلقت الحكيم أكثر مما أسعدته: «لا بد أن يكون من هناك، وربما عرفني». تعمد الحكيم أن يعطيه ظهره، وألا يلتفت. بعد قليل، وحين استرق إليه نظره لم يجده: «بالتأكيد إنه واحد منهم، وربما ذهب بسرعة ليبلغهم بوجودي». ارتجفت يده بفنجان القهوة. خجل حين رأى سلمى تتابعه. قال ليفسر الأمر:

ـ المسكة ما هي مضبوطة!

ابتسمت موافقة. قال وهو يقرب راسه من رأسها:

ـ والواحد، يا بنتي، اذا ما كان في بيته، وإذا ما نام على مخدته، وإذا ما اكل من الاكل اللي يحبه بيتعب، تتوتر اعصابه، خاصة إنه ما عندنا شغل إلا نازلين بالشاي والقهوة. . . والانتظار.

وبعد قليل وبعصبية:

ـ لازم نحكي معها اليوم ونقول لها اتركي كل شي وشرفي يا خانم، ارجعي!

كان متلهفاً لأن يحدثها، لكنه ظل متردداً، حتى ذلك اليوم، في الاتصال بموران لئلا يخلق متاعب او شكوكاً هو في غنى عنها. ووداد لا تتصل، لا تسأل. بل اكثر من ذلك يبدو انها لا تنوي المجيء خلال فترة قريبة. وإذا غادرت موران سوف تذهب الى الولايات المتحدة. قال له صفاء إن بطاقة

الطائرة ذهاب وعودة الى الولايات المتحدة. «لماذا ترجع الى اميركا؟» وهو، الى متى يبقى ينتظر ولا يعرف شيئاً مما يحصل؟

قال لسلمى، وقد حاصرته مخاوف كثيرة:

- اشربي العصير بسرعة وخلينا نمشي.

- انا حاضرة يا بابا!

ردت بصوت مرتبك وكأنها تدافع عن نفسها، او تثبت له براءتها.

لم ينتظر لكي يحاسب الجرسون، ترك له المبلغ على الطاولة وخرج.

كان يود ان يتناول الغداء، هذا اليوم، في المدينة القديمة، بناء لنصحية مدير الفندق، لكن اعتبر تطبيق النصيحة مغامرة غير مأمونة النتائج «ماذا لو كان ينتظرنا وتابعنا؟» «ماذا إذا اتصل بالآخرين تلفونياً وأبلغهم اننا في المكان الفلاني؟ سنكون صيداً سهلاً، ولن يتاح لنا مجرد محاولة الدفاع عن النفس». ولم يتردد كثيراً، أخذ سيارة أجرة وعاد رأساً إلى الفندق!

وزيادة في الاحتياط، وبحجة الاتصال بموران، طلب الغداء للغرفة، قال لموظف الاستعلامات، بعد ان انتزع، بعصبية، القبعة ثم انتزع النظارات ووضعها في داخلها:

- هذا رقم منزلي في موران، وأريد منك ان تؤمن لي اتصالاً عاجلاً!

تأمل الموظف الرقم كما يتأمل لوحة. لأول مرة، بعد اكثر من شهر، يتصل بموران، يتصل بمنزله. سأله الموظف في محاولة للتأكد:

- هل نطلب شخصاً محدداً؟

للحظة خاطفة ارتبك الحكيم، لكنه استدرك بسرعة:

- لا.. لا يهم، يمكن ان اتحدث مع اي كان!

اثناء تناول الطعام، فجأة رن التلفون. اضطرب الحكيم كثيراً، وكأنه لم يكن يتوقع. اشار الى سلمى ان ترد، لكنه قرر في اللحظة الاخيرة ان يرد بنفسه.

بعد الكثير من الجهد، ورغم ارتباك الخط، فقد اضطر الحكيم ان يضع

منديلاً على سماعة التلفون لكي يخفي صوته! فهم من ابي عبدالله ان وداد غير موجودة في المنزل، وان غزوان سافر قبل يومين. أما حين استوضح منه متى تعود معلمته فقد رد ابو عبدالله انه لا يعرف، ولم يشأ الحكيم ان يطيل، كما لم يشر الى انه هو المتحدث، وإن بدا، في لحظات معينة، وبشكل ما، ان ابا عبدالله عرف!

لما عادا لمتابعة تناول الطعام لم يجد الحكيم رغبة في ذلك. كان محروراً، نزقاً، واقرب الى الغضب، لكنه حاول ان يكتم عواطفه. تظاهر انه يأكل. كان يلوك اللقمة، يحركها من مكان الى آخر، لكن لا يقوى على ابتلاعها. قال في نفسه: «ماذا حلّ بهذه الدنيا حتى يصبح الناس هكذا؟ ومن هم الناس؟ الزوجة والأبناء!».

قال لسلمى وقد شعر بالكآبة:

- لازم تكون امك عم تركض من مكان لمكان حتى تأمّن الرزقات!

هزت رأسها دلالة الموافقة وهمهمت بكلمات غير مفهومة. تابع:

- لكن الحق على غزوان...

وتغيرت اللهجة، أصبحت غاضبة:

- كان لازم، الله يصلحه، يمرّ، يسأل؛ كان لازم يجي حتى نتفاهم، لكن اذن من طين واذن من عجين.

وهز رأسه بلوعة:

- وبعدين، بعد الاخطاء والكسل، يعبطنا بضحكاته، مثل ضحكات الحشاشين، ويقول: بسيطة يا بابا، ولا يهمك يا بابا، ولا كأننا عم نتقلى على الجمر، ولا كأن وراءنا الف مشكلة ومشكلة.

وتغيرت لهجته، اصبحت اقرب الى العتاب:

- شو بيخسر لو فتح تلفون؟ لو قال: يا بابا انا بالمحل الفلاني؟ لكن مثل امه قلبه بارد، ولا هامه شي ابدا!

قالت سلمى بانكسار:

ـ يمكن مشغول يا بابا!

ـ شو مشغول؟ ما بيقدر يفتح تلفون؟ ما بيقدر يقول صار معي كذا كذا وانا بالمحل الفلاني؟ احنا مو طالبين منه شيء، بس حتى نطمئن، حتى نعرف!

وبعد قليل وبحزن:

ـ لكن بسيطة، لما نلتقي!

انتظر الى ساعة متأخرة وطلب مكتب غزوان. جاءه صوت صفاء قوياً واضحاً:

ـ الاستاذ سيرجع بعد يومين او ثلاثة ايام.

ـ ولكنه غادر موران!

سيتوقف ثلاثة ايام في لندن ويوماً في نيويورك، قبل ان يصل الى سان فرانسيسكو.

ـ ثلاثة أيام في لندن؟

ـ هكذا ابلغني عندما غادر موران.

ـ وما عرف يشرّف لعندنا؟

ـ والله ما عندي فكرة يا حكيم.

ـ وام غزوان، يا صفاء؟

ـ أم غزوان بقيت في موران.

ـ طيب، عندك تلفون غزوات في لندن؟

ـ لا والله يا حكيم، ومن اول امس ما اتصل.

ـ والحل يا صفاء؟

ـ اللي تشوفه يا حكيم.

ـ طيب، يا ابني، اذا اتصل بك، اذا عرفت هو وين، خليه يتصل بي.

ـ أمرك يا أبو غزوان، على عيني وراسي.

ولم يشأ ان يتصل بموران في هذه الساعة المتأخرة من الليل. شعر بغيظ شديد لأنه عاجز ومنسيّ، ولا يفعل شيئاً سوى انتظار الآخرين. قال في نفسه: «اصعب شيء بالنسبة للإنسان ان ينتظر، واصعب انتظار انتظار من لا يتذكرك ولا يحس بك». حاول أن ينام، لكن تلك البراكين التي تغلي في داخله تؤرقه، تجعله نزقاً واقرب الى الغضب. بعد ان تقلب مرات لا حصر لها، وبعد ان تأكد من نوم سلمى، نهض الى الحمام. نظر الى وجهه في المرآة. بدا له الوجه حزيناً الى درجة القهر: التجاعيد، علامات الزمن، البياض يغلب السواد في اللحية، ثم ذلك الاستسلام الذي تنطق به الملامح. انتفض فجأة، سيطرت عليه رغبة حاقدة ان يفعل شيئاً، ان يصرخ، ان يبكي، ان يحطم المرآة، لكنه لا شعورياً امسك بالمقص، وبطريقة قاسية مرّره من اسفل الذقن حتى شفته السفلى فتساقطت كمية كبيرة من الشعر، وبدا مشوهاً او كالغنم المقصوصة في بداية الربيع. ابتسم بتشفٍ، ثم التقط ماكنة الحلاقة واتى على اللحية كلها. كانت الشعرات تتكسر، كان يسمع صوتها بلذة، كان يتابع سقوطها في حوض الماء، فلما اتى عليها كلها بدا وجهه غريباً وأقرب الى وجوه المهرجين، قال وخرجت الكلمات من بين اسنانه:

ـ آخر رابطة بموران وبالعصر الحجري!

فزعت سلمى لما رأته في الصباح. قال وهو يبتسم:

ـ عصر موران، بالنسبة لنا، انتهى يا سلمى، انتهى ولازم ننتهي من كل مظاهرة وآثاره، وإنشاء الله ما يمركم شهر الا ونصفي املاكنا وجميع ما لنا في موران وننتقل الى مكان آخر، ونبدأ من جديد وكأن موران ما كانت!

وفجأة اصبح حزيناً، قال بانكسار:

ـ الحق علينا، انا وأمك لأن هالجيزة ما كانت لازمة لك يا بنتي، لكن كل شيء في هذه الدنيا قسمة ونصيب، وإنشاء الله ما يمر كم شهر الا وننسى، وكأنه كان حلم، أو كأنه ما صار.

حاول ان يبتسم، لكن فكيه كانا يؤلمانه، ربما من تأثير إزالة اللحية، قال بحزن:

- الانسان في هذه الحياة مسير لا مخيّر، ولا يستطيع أن يعمل ما يريد.

وحاول ان يبتسم وهو يضيف:

- لكن بسيطة، يا سلمى، ومن هذي الساعة اي شيء بتريدي، اي مكان بتحبي، على عيني وراسي، بس اطلبي وتمني.

احنت رأسها بانكسار ولم تجب، قال برجاء؟

- بدي ترضي يا سلمى، بدي منك تسامحيني، وتنسي كل اللي صار.

- امرك يا بابا.

- لا .. عن جد، وبدون اية مجاملة.

- خلص يا بابا.

ولكي يضفي جواً من الحبور بدأ يدندن:

يا دنيا يا غرامي   يا دمعي يا ابتسامي
مهما كانت آلامي   قلبي يحبك يا دنيا

ورافقه جو المرح وهو يطلب المصعد، وهو ينزل الى البهو. وحين القى التحية ورآه الآخرون دون لحية، استغربوا، لكنه لم يكترث، لم تفاجئه نظراتهم ودهشتهم، كان مستعداً لها، او بالاحرى غير آبه بها. اكثر من ذلك احس انه انسان جديد، او لم تعد له صلة بالانسان الذي كانه.

استمر هكذا ثلاثة ايام.

في اليوم الرابع جاءه صوت غزوان. كان واثقاً ومرحاً:

- الو بابا؟ سلامات يا بابا.

- الله يسلمك يا غزوان.. كيفك وكيف حالك يا غزوان؟

ـ عال العال يا بابا. وانت؟ وسلمى؟ كيف حالكم؟ مشتاقين لكم كثير كثير والكل بيسلموا عليكم ويسألوا عنكم.

ـ الله يسلمك يا غزوان، وكيف حال الجماعة هناك؟ كيف حال الوالدة؟ اجت معك؟

ـ لا.. ظلت بموران.

ـ وليش ما اجت معك يا غزوان؟ ليش ما رجعت؟

ـ مشاكل واشغال كثيرة يا بابا.

وبعد قليل:

ـ ولازم احد يتابعها، يبقى قريب منها، حتى ما تضيع.

ـ طيب وهي قادرة؟

ـ هناك، يا بابا، عمو راتب، ومطيع وحماد، كلهم مستعدين للمساعدة.. ووعدوا.

ـ طيب والى متى راح تبقى؟

ـ حسب التساهيل يا بابا.

ـ طيب. وانت ليش ما شرفت لعندنا؟

ضحك غزوان ضحكة رنانة قبل ان يجيب:

ـ الي الشرف يا بابا، بس...

ـ بس شو؟

ـ الوقت والمواعيد يا بابا!

ـ يعني بخلت علينا بيوم يومين؟ يعني مواعيدك احسن واهم منا؟

ـ استغفر الله يا بابا، بس انت بتعرف...

ـ لا باعرف ولا بدي أعرف. . .

ضحك غزوان من جديد لكي يتغلب على غضب أبيه، وبعد قليل:

ـ لو كنت محلي، يا بابا، كنت عذرتني، كنت شفقت على حالتي، لكن بسيطة.

رد الحكيم وقد تراجع غضبه:

ـ طيب. . ومتى راح تشرف لهون؟

ـ حسب رغبتك واوامرك يا بابا.

ـ إذا كان حسب رغبتي، رغبتي اليوم قبل بكرة.

ـ بس بدك تسامحني بكم يوم حتى ارتب اموري ومواعيدي، وراح اخطف رجلي كم يوم للبرازيل، لان هناك عندي اشغال ضرورية، انت تعرفها، ولا يمكن ان تؤجل، وعلى ضوء نجاحنا فيها كثير امور تنحل وتتيسر.

وبعد قليل وهو يضحك:

ـ فهمان عليّ يا بابا، وانت معي، موهيك؟

ـ يعني كم يوم؟ الى متى يتحمل شغلك ومواعيدك؟

ـ لو كانت بيدي، تتوقف عليّ يا بابا، كان شفتني عندك في لمح البصر، لكن الأمور متعلقة بالخلق، والمواعيد مرتبة قبل شهرين ثلاثة، وعلى نتائجها يتحدد مستقبلنا لسنين وسنين!

ـ فهمت عليك يا غزوان، بس انا وسلمى مشتاقين وبدنا نعرف اخباركم.

ـ سلمى حواليك يا بابا؟

ـ اي نعم وبدها تحكي معك.

ناولها السماعة بيد مرتجفة. كان يريدها ان تتكلم، ان تضحك، ان تعبر عن فرحها، لكنها صوتها الصغير، الاقرب الى الحزن، وتلك الاجابات القصيرة الخجولة، جعلاه يرتبك، ابتسم ببلاهة ليشجعها على الابتسام، طلب منها أن

ترفع صوتها لكي يسمعه غزوان، وقال بالكلمات والاشارات ان تطمئنه. حاولت، لكن بدت خائفة ولا تملك شيئاً تقوله، حين نظرت اليه بتساؤل استرد السماعة:

- نسيت اسألك، يا غزوان، شو اخبار موران؟ كيف الوضع هناك؟

- ماشي الحال يا بابا، والاصدقاء سلموا عليك، سألوا عنك...

مين شفت؟

- شفت كثيرين، يا بابا، شفت الكبار والصغار، ما ظل حدا الا وشفته.

- يعني كوّنت صورة، اخذت فكرة؟

- اي نعم

- يعني في امل؟

- بس نلتقي بنحكي يا بابا!

- والكبير؟ شفت الثور الكبير؟

- بس نلتقي بنحكي.

- يعني خايف؟

- ابداً، لكن للحيطان اذان يا بابا، والاحسن ان نؤجل الموضوع.

- طيب سألوك عني؟ سألوا انا وين؟

- سألوا، قلت لا اعرف اي شيء!

- خير، شو بدهم مني؟ لسّه بعدهم وراي؟

- لا يخفى عليك يا بابا: اولاد الحرام كثار، والجماعة هناك ما عندهم الا اللت والحكي، وانت تعرف ان المقروص من الحبل يخاف!

- بس لعلمك، يا غزوان، إذا تصوروا انهم بخوفوني غلطانين، فشروا، وانا لا

اخاف الا من رب العالمين، وكلهم على صرمايتي!

- ما في من هذا كله يا بابا، والجماعة هناك يذكروك بالخير ويعرفوا افضالك!

- يا سيدي لا بدي ياهم ولا بدي يذكروني، المهم ينسوني، ولاّ كأني كنت، والواحد إذا عمل الخير لا ينتظر عليه الأجر، وانا عملت خير ورميته في البحر، ما انتظرت الاعتراف بالجميل ولا الشكر، ومع ذلك الأيام بينّا، بسيطة!

ضحك غزوان في محاولة لان يغير الجو، واضاف بعد قليل:

بسيطة يا بابا والموضوع كله ما بيحرز!

- يا سيدي بسيطة، هذا ما هو اول خازوق، ولا راح يكون الاخير، واللي يعيش يا ما يشوف!

رد غزوان وهو يقهقه:

- واللي يلّف يشوف اكثر، هيك قالوا يا بابا!

قال الحكيم وقد بدأ يسيطر عليه الغضب الممزوج بالخوف:

- اتركنا من هذا يا غزوان.. انت. امتى جاي؟

- مثل ما قلت لك يا بابا، ابو اسبوع أسبوعين.

- ما ممكن ابكر؟

- احاول يا بابا، واذا خلصت اشغالي ومواعيدي ابكر ما تشوفني الا وأنا عندك..

- طيب يا غزوان، لا تقطعنا، اتصل باستمرار، وإذا اتصلت بالوالدة سلّم عليها وقلها ما تطوّل!

- امرك يا بابا، وراح اتصل باستمرار. تصبح على خير، وسلم لي على سلمى!

- دير بالك على حالك يا غزوان ولا تطول علينا، وفي امان الله!

ثلاثة اسابيع من الانتظار والقلق والتخفي. ثلاثة اسابيع طويلة، اتصل الحكيم خلالها بسان فرانسيسكو عدة مرات. تحدث مع غزوان مرة، ولم يجده في المرات الاخرى، وقد ابلغه صفاء ان الاستاذ سيعود بين يوم وآخر، وانه حجز له مرتين إلى جنيف والغى الحجز في آخر لحظة لأمور طارئة. واتصل الحكيم ايضاً بموران. تحدث الى وداد مرة واحدة، ولمدة دقيقة ثم انقطع الخط. وفي المرة الأخرى تحدثت سلمى فقط، وقد أكدت وداد ان الامور تسير بشكل جيد ولا داعي للقلق، وأشارت، بشكل خفي، انه من الافضل ان يتم الاتصال عن طريق غزوان، ولم توضح اكثر من ذلك!

إذن هم لم ينسوه؟ بل اكثر من ذلك يلاحقونه، والا لماذا تحدث غزوان بهذه الطريقة؟ وهل يخاف منهم وهو على بعد آلاف الاميال لو لم يكن الأمر جدياً وربما خطراً ايضاً؟ ووداد.. إنها لا تريد ان يتصلوا بها، تريدهم ألا يعرفوا مكانه؛ لو لم تسمع شيئاً وعرفت مدى خطورته لبادرت بنفسها إلى الاتصال، لكنها فضلت أن يتم كل شيء عن طريق غزوان.

وتأكد له أنه يحبها اكثر من قبل. إنها تحرص عليه إلى درجة ان تقطع الخط حين تقدر انهم يمكن أن يكتشفوا صوته. وتلجأ الى هذه الطريقة غير المباشرة. حتى وهي تحدث سلمى، وقد استنتج ذلك من إجابات سلمى، تحيل الى المسائل اليومية التي لا تثير شكوكاً من اي نوع، وكانت تريدها ألا تطيل، أما وهي تسألها عنه فقد قالت: «كيف الجماعة عندك» لم تذكره بالاسم متعمدة، ولم تشأ أن تتحدث معه، رغم معرفتها أنه قرب سلمى، وأنه كان يتلهف لأن يتحدث معها. إنها حصيفة وذكية إلى درجة يمكن أن تمرر أصعب القضايا دون أن يحس الطرف الآخر.

قبل ساعة من وصول طائرة غزوان كان الحكيم ينتظر في قاعة انتظار المسافرين بمطار جنيف. وقبل ذلك بساعات كان قد إستعد تماماً: أبلغ الفندق بحجز غرفة « والاحسن ان تكون إلى جانب غرفتنا، او على الاقل في نفس الطابق». نظر إلى نفسه في المرآة عدة مرات كما عدّل وضع القبعة، إذ رفعها قليلاً، خلافاً للمرات السابقة، كما يفعل عادة في ساعات الراحة، او حين يكون في حالة من حالات الانسجام، وقرر الا يضع النظارات، لكن مع ذلك احتفظ بها في جيبه حيطة. وطلب من سلمى، وعلى شكل امر « ان تفرد وجهها وان تبتسم» أما العصا فقد تردد في أخذها أو تركها، وحين طلبت لـه الإدارة سيارة أجرة تركها عند موظف الاستعلامات.

ساعة طويلة من الانتظار الممض. حاول خلالها ان يشغل نفسه بمراقبة المسافرين، والتطلع الى واجهات المحلات في المطار. اعاد ترتيب الافكار والقضايا التي سيناقشها مع غزوان، كما لفت نظر سلمى أن تسترخي وأن تبدو طبيعية وسعيدة!

رغم الاستعداد والتهيؤ النفسي فوجىء الحكيم بكل شيء: فغزوان تغير كثيراً منذ أن رآه آخر مرة. أصبح أكثر سمنة وبرزت الصلعة أكثر من قبل. كما أنه لم يكن وحيداً، كان إلى جانبه، وعلى بعد نصف خطوة تقريباً، صفاء الشلبي، ومن الجهة الأخرى، فتاة شقراء جميلة في نحو العشرين أو أكثر قليلاً. وقد كان الثلاثة من أوائل المسافرين الذين هبطوا من الطائرة.

ماذا.. هل تزوج وجاء ليقضي شهر العسل في سويسرا؟ لماذا لم يقل او لم يشر الى ذلك مجرد اشارة؟ ايريد ان يفاجىء الجميع ام يضعهم تحت الامر الواقع؟ ويتزوج امرأة اجنبية؟ كيف سيتفاهمون معها وماذا سيكون رأيها فيهم؟ والاطفال؟ والمستقبل؟

لم تقتصر المفاجأة على الحكيم، فغزوان الذي تطلع في وجوه المستقبلين، مرّ على وجه ابيه دون ان يتوقف عنده. وكذلك فعل صفاء. أما سلمى التي كانت تقف الى جانب أبيها فلم تتردد ولم تنتظر، إذا نادت على غزوان ثم هجمت عليه. اختلطت القبل بالدموع بالابتسامات، بتساؤلات الدهشة عن

السمنة والقبعة والاشواق. وخلال دقائق طلب غزوان من صفاء والفتاة ان يهتما بالحقائب، وأن يلتحقا بهم في سيارة ثانية.

في فندق البوريفاج، حيث توجهوا، كان جناح وغرفتان قد حجزت لغزوان، وحين اشار الحكيم الى أنه حجز له غرفة في فندقه، رد غزوان بمرح «ان الحجوزات والمواعيد وجميع الاجراءات الأخرى تمت من سان فرانسيسكو، ودون مشقة».

واضاف بعد قليل في محاولة للتفسير:

- وفي هذه الفنادق تسهيلات خاصة لرجال الاعمال من حيث الاتصالات والطباعة وترتيب المواعيد والخدمات.

على الطاولات الجانبية، في الغرفة المخصصة للاستقبال، باقات من الزهور صُفّت بعناية في أوانٍ من الكريستال القديم. وفي وسط القاعة، على طاولة دائرية، سلة كبيرة مليئة بأنواع الفاكهة. ماكادوا يدخلون حتى استقبلتهم موسيقى ناعمة، وكأنها آتية من مكان بعيد. كل شيء ناعم ويوحي بالاسترخاء، لكن في داخل كل منهم حمى تفور وكلمات كثيرة يجب أن تقال، ومع ذلك يحاول كل منهم تأجيلها أو خلق الجو المناسب لقولها.

اكثر من ذلك يحس الحكيم بالإضافة الى التفجر الداخلي انه موضع السخرية، فتأخر غزوان ليس الشغل والمواعيد والبرازيل وإنما الغرق في الاشياء الصغيرة، وبدل المشاركة في المأساة التي تعيشها العائلة يختار هذا الوقت للزواج، ولا يكتفي بذلك، يأتي بزوجته الى سويسرا ليقضي شهر العسل!

بعد الأبتسامات والنظرات المتسائلة، ودون تمهيد سأل الحكيم:

من هي البنت، بالخير، اللي معك، يا غزوان؟

فوجىء غزوان بالسؤال واستغرب، ولما أدرك مخاوف أبيه أو شكوكه قهقه وهو يجيب:

- هذي سكرتيرتي يا بابا!

ـ سكرتيرتك؟

هكذا تساءل الحكيم، وكان في تساؤله ما يشبه الاستنكار والسخرية، رد غزوان:

ـ ونحتاجها كثير يا بابا، لأنها متخصصة بالعقود السرية، وتحسن عدة لغات اضافة الى الاختزال.

ـ عال العال.

وبعد قليل:

ـ طمنت بالنا، الله يطمّن بالك!

ـ والا.. شو افتكرت؟

ـ بهذي الايام ما عاد ينحرز يا غزوان... كل شيء ممكن!

قهقهة غزوان في محاولة لأن يقضي على جو المخاوف والقطيعة والحزن، ثم تقدم نحو سلمى، ضحك ومازحها وبعد قليل التقط قبعة أبيه، وكانت على مسند المقعد، قلّبها بعناية، وخرج صوته وكأنه يخاطبه:

ـ اشياء كثيرة تغيرت منذ آخر مرة التقينا!

ـ ولسّه اشياء كثيرة راح تتغير...

قصد الحكيم، تلميحاً، اكثر من موضوع، ولم يكن متعجلاً لأن يخوض فيها فوراً. رد غزوان بمكر:

ـ سنة الحياة، ولا يمكن ان تبقى الاشياء كما كانت، لا بد ان تتغير.

ـ ومع ذلك نحن أبناء اليوم، وإذا كان للماضي فائدة فلأنه درس، لكن المهم اليوم وبكرة، اي نعم.. اليوم وبكرة!

ولكي يتغلب الحكيم على انفعالاته سأل غزوان عن صحته وأشغاله، وسأله عن الوالدة، ومتى يمكن أن تعود. وغزوان الذي كان يوزع نظراته بين أبيه

وسلمى، وكأنه يقرأ في وجهيهما عذاب الفترة الماضية، أجاب بمرح عن الاسئلة، مؤجلاً اية مناقشة، وراغباً بخلق جو يساعده على الوصول الى النتائج التي يريدها.

بوصول صفاء واليانور دب المرح وتغير الجو. افاض صفاء بالحديث عن عدد المرات التي حجزت فيها مقاعد الطائرة والغيت، وان الاستاذ غزوان لم يسترح اكثر من اربع وعشرين ساعة بعد عودته من البرازيل، وان الرحلة كانت مريحة وأسرع من المرة الماضية لأنها مباشرة.

اليانور اشرفت على إدخال الحقائب ثم التفتت الى الزهور، وقد وزعت ابتساماتها اثناء ذلك بسخاء، وكان تبدو طبيعية وبسيطة.

الهدايا التي حملها غزوان كثيرة ومتنوعة، وكانت حصة سلمى هي الكبرى، وقد شاركت اليانور في تقديمها وعرضها، وبدت خلال ذلك بسيطة وشديدة الحيوية، إذ كانت تضع على صدرها او على كتفها الفساتين والبلفورات، وتحمل من الحقائب ما يناسب الاحذية، في محاولة لاقناع سلمى بحسن الاختيار ومدى الملاءمة. وسلمى التي كانت بين الفرح والخجل لم تعرف كيف تعبر او من تشكر. وقد بدا واضحاً ان اليانور وراء هذه المشتريات كلها.

خلال فترة إحضار الهدايا وتقديمها ابدى صفاء استغرابه إنه لم يوصّ بعد على المرطبات والقهوة، وبعد سؤال سريع عما يفضله كل منهم طلب القهوة للحكيم وللأستاذ ولنفسه وطلب عصيراً لسلمى واليانور. وقد وصل الطلب أثناء ما كانت اليانور تضع على كتفها فستاناً من الحرير الأزرق، وعندما تطلع إليها الجرسون ابتسمت له والتفتت، كأية عارضة أزياء!

ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ والحكيم في حالة من القلق والحيرة: ما خطط له خلال أسابيع انهار في لحظة؛ وما تمناه وانتظره طوال شهور تلاشى وتبدد أسرع مما يتبدد الزبد؛ أما الافكار الكبيرة التي شغلته في لياليه الطويلة ومنعته من النوم فلم تتح له الفرصة لمناقشتها!

لماذا حصل هذا؟ كيف؟ لا يعرف ولا يجد له جواباً.

فبعد أن ارتبك في المطار، وفوجيء، فأجل توجيه الأسئلة، وأجل أيضاً العتاب، خاصة وهو يرى الحفاوة والاهتمام اللذين رافقا وصولهم واستقبالهم في الفندق، بل وكان متأكداً أنهم يعرفون غزوانٍ جيداً. سأله ان جاء الى جنيف من قبل ومتى، رد غزوان باقتضاب انه جاء مرتين، لكن لم يبق إلا وقتاً قصيراً. وحين أبدى الحكيم استغرابه، رد عليه بأن البوريفاج أحد فنادق السلسلة التي تساهم فيها شركته، وقد تأكد الحكيم من ذلك وهو يلمس الأهمية التي يتمتع بها إبنه، خلال حفلة العشاء التي أقامتها إدارة الفندق، وما تخللها من اهتمام ورعاية.. ومرح أيضاً.

في المساء، وهم على الشرفة المطلة على البحيرة، وفي لحظة تخيرها الحكيم، وقد وجد الآخرين منشغلين، قال لغزوان بلوم مشوب بالغضب:

ـ والوالدة.. كيف تركت الوالدة وحدها في موران يا غزوان؟

ولم يتركه يجيب عن السؤال، أضاف بحدة:

ـ مالك حق تتركها وحدها، لانك تعرف موران وأهل موران: جماعة علاّكين

وذمتهم واسعة، وماهم تاركين أحد من شرهم.

ـ لو ما راحت، يا بابا، لصارت ألف مشكلة ومشكلة، وانت أدرى الناس بموران!

ـ خير انشاء الله؟

ـ الله يجعلك بخير يابابا، بس أنت بتعرف المشاكل هناك.

ـ يعني غرقت؟

ـ لا. . بس تعبانه ويتركض حتى تحيي الرزق، والله يساعدها.

شعر الحكيم بالغضب. تراءت له من جديد صورة موران، سأل بحدة:

ـ وانت. . شو عملت؟

ـ عملت اللي الله قدرني عليه!

وضحك بصخب ليتغلب على غضب أبيه، وبعد أن هدأ قليلاً أضاف:

ـ موران اللي ببالك، يا بابا تغيرت، إنتهت، ولازم الإنسان يعرف كيف يتصرف في المرحلة الجديدة. . .

وكاد يضيف أشياء أخرى، في محاولة لأن يلخص التطورات التي حصلت، لكن الحكيم رد بنزق:

ـ اتركنا من موران الزفت، المهم أن تخبرني عن نفسك، كيف أحوالك وكيف شغلك؟

واخذ الحديث نسقاً مختلفاً. فبدأ غزوان يتحدث عن مشروعاته وعن النتائج التي حققها، لكن انتباه الآخرين جعل الحكيم حذراً، فهو لا يريدهم أن يعرفوا، قال ليغير الحديث:

ـ المهم أن الحال ماشي والصحة كويسه!

طبطب غزوان على بطنه دلالة أن الصحة جيدة، ورد بمرح:

- اذا سارت الأمور بشكل طبيعي، وكنا شاطرين، والله أعطانا الصحة والعافية، راح نصير فوق الريح، وخلال فترة قصيرة.

الحكيم يسمع بعناية واهتمام، لكنه لا يريد أن تناقش الأمور بهذا الشكل المكشوف، أن تُعرف أدق التفاصيل. صحيح أنه يريد أن يعرفها كلها، لكن في وقت آخر، لا بد أن يسأل ويدقق شرط أن يكون وحده مع غزوان، أن يسمع منه كل التفاصيل، ولا بد أن يتقدم بأفكار واقتراحات من شأنها أن تدفع العمل الى الأمام، وقد يساعد هو في بعض المراحل. لا يقبل أن يبقى متفرجاً، ولا يمكن أن يسلّم هكذا، فقط يهز رأسه كما يفعل الآخرون ويصمت.

وغزوان لا يهدأ لحظة:- حين يخرجون من صالة الطعام لا بد أن يتوقف عند مخزن الملابس والعطور، ولا بد أن ينتقي زجاجتي عطر أو ربطة عنق، وأن يقدمها الى سلمى أو إلى أبيه، مع الكثير من المرح! ولا بد أن يقف، ولفترة غير قصيرة، بعد ذلك، عند الصبية الشقراء التي تبيع الصحف، وأن يشتري عدداً من المجلات والجرائد، وأن يقلب الحاجات الأخرى التي تبيعها، وغالباً ما يشتري أشياء لا يعرف أبوه كيف يراها أو كيف يلتقطها. فإذا تجاوزوا الممر الطويل باتجاه الادارة والصالة، ورغب الحكيم بتناول فنجان قهوة، فإن جواب غزوان جاهز:

- القهوة والنوم عدوان، والأحسن أن آخذ غفوة صغيرة لأكون أكثر نشاطاً وليمنع أي سؤال أو تردد، يتوجه الى صفاء:

- أطلب للبابا قهوة يا صفاء، وتسلى أنت وإياه، لحد ما آخذ لي غفوة وبعدها أتدوّش وانضم لكم.

صفاء لديه الكثير لكي يقوله للحكيم أو ليسأل الحكيم عنه. أما سلمى واليانور فلا بد لهما أن تذهبا، كل الى غرفتها، والسؤال الذي تكرر، وأصبح مألوفاً: «متى نلتقي مرة أخرى»؟ ولا يتردد صفاء في الإجابة:

ـ أنا والحكيم في الصالون . . وبأية ساعة تشرفوا أهلاً وسهلاً.

ويغير الحكيم في اليوم التالي خطته :

ـ أنت جاي تنام، يا غزوان، أو جاي حتى نشوفك؟

ولا يتردد غزوان في اقتراح المشاريع :

ـ اذا استغنيتو عن نومة الظهر فلا بد أن نذهب بنزهة، في البحيرة ، الى الجبل، المهم أن نكون مع بعض. . .

في اليوم الثالث، بعد الغداء، قال غزوان بطريقة استعراضية حزينة :

ـ ما أسرع ما طارت الأيام . . .

ونظر الى أبيه والى سلمى، وهو يهز رأسه، ثم أضاف :

ـ كان لازم نقضي مع بعضنا أيام كثيرة، لكن انشاء الله خيرها بغيرها .

تهدل فكا الحكيم . لم يكن يتصور أن الزيارة بهذا القصر. لا يمكن أن يوافق بشكل من الأشكال، سأله بغضب :

ـ إنشاء الله مسافر؟

ابتسم غزوان طويلاً لكي يمتص الغضب، لكي يتغلب عليه، وبعد لحظة صمت :

ـ لو كان بإرادتي، حسب رغبتي، لما تركتكم، لكن. . .

وهز رأسه بلوعة والتفت الى صفاء :

ـ إحكِ لهم يا صفاء، كيف طلعت أرواحنا الى أن أجلنا مواعيدنا في طوكيو ٤٨ ساعة .

وتغيرت نبرة الصوت :

ـ خاصة وأن الشغلة كلها مخوطرة ولنا شهور نضبط فيها وواقفة على شعرة،

والمنافسين بس منتظرين غلطة!

والتفت الى أبيه:

- وأنت بتعرف عقول اليابانيين يا بابا: عقول متحجرة، جامدة، والواحد منهم كأنه آلة، لا عواطف، لا حب، لا تساهل. المهم الموعد، الدقة بالموعد، وبعد ذلك لا يهمه شيء.

قال صفاء بأسى:

- أتذكر عندما جاءوا بزيارة الى عندنا في سان فرانسيسكو: قبل الزيارة بشهرين: بعثوا لنا بأسماء الوفد، صورهم، شهاداتهم، الأماكن التي عملوا فيها، المناصب، الترقيات، كل شيء.. نعم كل شيء، وكأن الواحد منهم جاي حتى يخطب، ومطلوب منه صفحة أحوال مدنية، وفوقها مضبطة برضا الله والوالدين.

رد غزوان بمرح:

- يا سيدي أترك الصور والمعلومات، إحك لهم كيف تصرفوا لما شرفونا ووصلوا...

- شي لا يمكن أن يصدّق يا أبو غزوان: ولا يمكن أبداً، بتاتاً، أن تحزر عليهم.

كلهم مثل بعضهم: بأشكالهم، بأحوالهم، بأعمارهم، بملابسهم.. شيء غريب، ويعدين بتصرفاتهم: كل شيء كتابة، حتى الواحد إذا ضحك يكتبون أنه ضحك، وينظرون الى الساعة. جماعة تصرفاتهم غريبة.

تنهد غزوان وهز رأسه عدة مرات ثم قال:

- صحيح أن الواحد شاف كثيرين، لكن مثل اليابانيين لا يمكن أن يشوف. الواحد منهم طوله طول الشبر، ولا تعرف إذا كان آذن أو مدير، لكن مثل فريق كرة القدم...

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته:

- بعد الف تلفون واتصال، ونشف ريقنا حتى قدرنا نقنعهم بتأجيل الموعد ثماني وأربعين ساعة فقط.

ولا نعرف الآن إذا كانوا راضين أو زعلانين

- الله يساعدكم يا أستاذ غزوان، هكذا علق صفاء.

كان الحكيم يسمع، ينقل نظراته بين غزوان وصفاء، يبدي دهشة، يفكر، وفي لحظة عصبية قال لينهي المناقشة:

- كلمة سفر من فكرك شيلها يا غزوان، سفر ما في، يفتح الله.

- اللي بتؤمر يا بابا، على العين والراس.

- أي نعم: سفر ما في، لا يابانيين ولا غير يابانيين، لا مواعيد ولا غير مواعيد!

وتغيرت لهجته، أصبحت غاضبة:

- وبعدين عندنا ألف مشكلة يا غزوان ولازم نحلها، لازم نشوف طريقنا، نشوف شو راح نسوي.

ضحك غزوان ورد:

- كل شيء بيصير، بسيطة، وبعد قليل:

- ما ظل أحد غيرنا في المطعم يا جماعة، ولازم نتحرك!

وتوقف أيضاً عند البائعة. اشترى أكثر من أية مرة سابقة. وتوقف فترة أطول عند الشقراء، اشترى عدداً من المجلات اكثر مما يفعل كل يوم، قال لأبيه في محاولة ماكرة:

- الطريق طويل ولازم الواحد يسلي نفسه!

كان الحكيم غاضباً وحزيناً. لقد انقضت الأيام دون أن يتحدث مع غزوان، ودون أن يراه. هل يوافق على سفره؟ هل سمع منه حول موران ورأي الآخرين هناك؟ هل يسكت ويترك الأمور تمر هكذا؟ قال في نفسه «جيلان وعصران» وابتسم بحزن ثم أضاف: « واللي ياكل العصي ما هو مثل اللي يعدها ».

حول الطاولة الكبيرة التي جلسوا اليها حاولوا أن يتكلموا شيئاً مشتركاً، لكنهم لم يفلحوا. كان الحكيم لا يقوى على إخفاء غضبه، فيداه ترتجفان، وابتسامته أقرب الى الحزن. لاحظ غزوان ذلك. أمسك بفنجان قهوة أبيه وبفنجانه باليد الثانية وقال له:

ـ خلينا نقعد مع بعضنا شوية يا بابا.

لم ينظر الحكيم إلا لسلمى، وكأنه يستأذنها، قال صفاء بحيوية:

ـ تفضلوا.. تفضلوا!

... الساعة التي قضاها غزوان وأبوه لا يمكن أن تصنف، فقد تخللتها الملامة والأشواق والمخاوف والرغبات، وكان كل منهما يريد أن يتكلم أكثر من الآخر، أكثر مما يريد أن يسمع من الآخر. الحكيم لديه عشرات الأفكار، مئات الأفكار. يريد أن يقولها، أن يوصلها كرسائل، وأن يسمع من غزوان الإجابات. أن يعرف رأيه تماماً. وغزوان بمقدار ما كان يريد أن يعكس له وضع موران الجديد، وما يجب عليه أن يفهمه، كان يريد أيضاً أن يفهم منه ما إذا حان الوقت لكي يتوسط من أجل العودة، وضرورة التعامل مع السلطان فنر، وكان يريد أن يبحث معه أيضاً مسألة الأراضي، وبشكل خاص الأملاك في حران، والتي لا يعرفها أحد غير الحكيم. ثم وضع سلمى ومكان الإقامة.. أين يجب أن يقيم وكيف يجب أن يتصرف. وسلمى.. هل هي زوجة السلطان خزعل أم مطلقة؟

كلمات تتلاحق مثل الطلقات. الإثنان يتكلمان. الاثنان لا يسمعان. الاثنان يفكران بأمور مختلفة. قالا أشياء كثيرة، لكن دون رابط، دون هدف.

الكلمة تجر الأخرى. الفكرة تؤدي الى ثانية، ولا يعرفان هل ما يقال أسئلة أو أفكار أو مجرد أصوات واختبارات ومعلومات يسر بها الواحد للآخر.

قال غزوان، وقد نظر الى ساعة:

ـ الحديث، يا بابا، ما له نهاية، وأنا متأكد أننا إذا التقينا مرة ثانية، وقريباً، يمكن أن نتفاهم على أشياء كثيرة...

وضحك ثم أضاف:

ـ المهم أننا شفنا بعضنا، أننا سمعنا من بعض، وبعدها لكل مشكلة حل...

قال الحكيم وقد تمثلت له مشاكل كثيرة:

ـ المهم أن نؤمن «قاعدة»، أن نكون مطمئنين الى مكان الإقامة، أي يكون الواحد عنده أرض، وبعدها كل المسائل تهون.

ـ هذه مسألة بسيطة يا بابا

ـ بسيطة؟

ـ أي نعم.. يمكن أن تختار أي مكان للإقامة والحياة

قال الحكيم بنزق:

ـ أو للقبر..

ـ لا قدر الله يا بابا!

وساد صمت قاس. كان الحكيم غاضباً، وحزيناً، وكان يريد أن يفتعل سبباً لخلق خصام من نوع ما. قال غزوان وهو يبتسم:

ـ مثلما قلت لي قبل سنين.. يا بابا: وطن الإنسان حيث يكون قوياً ومؤثراً وقادراً. الوطن ليس التراب أو المكان الذي يولد فيه الإنسان، وإنما المكان الذي يستطيع فيه أن يتحرك... هل تتذكر أم نسيت؟

قال الحكيم بيأس:

ـ أتذكر.. يا ابني، أتذكر، لكن المسألة الآن اختلفت!

بعد الكثير من المحاورة والمداورة اتفقا أن يبقى صفاء، وأن يساعدهما في إختيار قصر مناسب في جنيف أو حواليها، وأن يستقرا هنا، على الأقل مؤقتاً، ريثما ترتب الأمور، وبعد ذلك يمكن للإنسان أن يفكر، أن يدبر أموره بشكل مختلف. أما موران أو حران، اما طرابلس أو بيروت، أما حلب أو دمشق، فإنها مجرد محطات يمكن أن يبقى فيها الإنسان ويمكن أن يغادرها تبعاً لعوامل واعتبارات كثيرة.

وهكذا انتهى هذا اللقاء، على وعد أن يلتقوا خلال شهر، وأقصى حد شهرين! وأن يبقى غزوان فترة طويلة وليس مثل هذه الزيارة!

قضوا يوماً آخر في البوريفاج بعد سفر غزوان. في اليوم التالي، قبل الظهر بقليل، وقبل أن يستقلوا سيارة الروز رويس متجهين الى المطار، أجزل صفاء العطاء للخدم والعاملين في الإدارة، وجرى لهم وداع لائق. وما كادت السيارة توصلهم الى المطار، ويتأكدون من مغادرتها حتى استقلوا سيارة أجرة عادت بهم الى المدينة، الى فندق ستراسبورغ، حيث حجزت غرفة إضافية لصفاء!

كان هذا الإجراء ضرورياً لكي تبدوَ الأمور طبيعية فلا تلفت نظر أحد، خاصة وأن إصرار الحكيم على سرعة المغادرة والانتقال منعت مناقشة أية صيغة أخرى. فالانتقال مباشرة الى فندق آخر، أو صرف السيارة المرافقة، ربما يبدو غير لائق وقد « يزعج الأستاذ غزوان ويسيء الى سمعته، والى سمعة الشركة أيضاً، وهذا لا يرضاه أبداً» كما أوضح صفاء في تفسير إرجاء الانتقال الى فندق ستراسبورغ، أو لجوئه الى خطة التمويه.

بالمقابل كان الحكيم يريد العودة الى مكان الفه، والى أناس يعرفهم. يريد أن يتصرف بحرية، وأن يشعر بثقة. وهو في البوريفاج ظل محبطاً، أو لا يفعل شيئاً سوى الرد على الابتسامات والنظرات التي تطوقه من كل جانب. أكثر من ذلك بدا له الناس أقرب الى الدمى. الخدم والنزلاء معاً: يبتسمون ببلاهة، يبدون مؤدبين أكثر مما يحتمل الموقف. وإذا كان قد فسر لنفسه أن الخدم يفعلون ذلك نتيجة الأوامر أو طمعاً بالأكراميات، فلم يستطع أن يفسر لماذا

يتحرك النزلاء بخطوات بطيئة، خائفة، ويطلبون بأصوات هامسة، ويأدب مبالغ فيه، ولا يترددون في الابتسام لأتفه الأسباب؟

ليست الألفة وحدها ما دفعت الحكيم لاستعجال العودة. لا بد أن يفسر للمسيو مولان، مدير فندق ستراسبورغ، ما حصل، خاصة الغاء الحجز بصمت، ثم بعد قليل وبحدة:
عُلّقت الى حين مجيء غزوان والتشاور معه.

لم يشك أحد من العاملين في فندق ستراسبورغ أن الذي يصل مع الحكيم هو ابنه المقيم في الولايات المتحدة، فقد كان يسرف في الحديث عنه عند كل تحويل مالي جديد يصل إليه، أو بعد أية مكالمة هاتفية من الولايات المتحدة أو إليها. وقد أكد للجميع بفرح وصل حد الزهو أن ابنه سيأتي بين يوم وآخر.

الآن لا بد أن يشرح لمسيو مولان التعديلات التي جرت، وبالتالي أن يبلغه بخططه للمستقبل تمهيداً للاستفادة من خبرته وعلاقاته.

قدم صفاء باعتباره أحد أقرباء العائلة والساعد الأيمن لابنه، الذي تعذّر عليه المجيء. أما في اليوم التالي، وبعد الإفطار وانسحاب سلمى الى غرفتها، فقد عقد الثلاثة اجتماع عمل، كما سماه الحكيم، وتركز البحث حول مواصفات القصر الذي يود شراءه: «أن يكون في جنيف وخارجها، قريب وبعيد في آن واحد، على الجبل وليس بعيداً عن البحيرة، في الريف والمدينة معاً».

هكذا لخص الحكيم المواصفات. ولما بدت غامضة مشوشة ما لبث أن عرضها بشكل آخر: «أريد القصر قريباً من جنيف، خاصة من جهة المطار، لكي لا تكون هناك صعوبة إذا أردت السفر، أو إذا جاءني أحد الضيوف، لكن لا أريده قهوة أو ديواناً لكل من يزور هذه المدينة. ولا أريده مكاناً لكل مستطرق أو لكل طفيلي أو عاطل عن العمل. أما أن يكون قريباً من البحيرة

والجبل معاً فالقصد أن أتمتع بمنظر البحيرة وجمالها دون أن أقع في محيطها: من حيث الرطوبة والرذاذ وأعين الفضوليين. » وحين يهز المسيو مولان رأسه دلالة الاستيعاب والموافقة يضيف « وله مزايا القرية والمدينة أيضاً: الهدوء، عدم وجود الغرباء » يتوقف لحظة، يرفع يديه قليلاً، يتنفس ثم يضيف بحزم: «أهم شيء ألا يصطدم الإنسان بالغرباء، ألا يراهم يسدون عليه طريقه».

كان مع صفاء أكثر وضوحاً، إذ ما كاد يستدعي المسيو مولان للرد على الهاتف، حتى قال لصفاء:

- أهم شرط يا صفاء، الشرط الأساسي، أن أكون بعيداً عن العرب، نعم يجب أن أكون بعيداً، لأن من العرب ما جاءتنا إلا المصائب. . .

ويهز رأسه بلوعة ويتابع:

- يا ابني. . غزوان براسه ألف مشكلة، الف هم، ويمكن تقديره يختلف عن تقديري.

يصمت، ثم بعد قليل وبحدة:

- أنا راسي مطلوب يا صفاء، رأسي بالدق. وموران مستعدة تدفع الملايين حتى تقتلني، فإذا كان العرب حوالينا الواحد منهم اما ينشرى أو ينخّى، وكلها كم رصاصة والعوض بسلامتك، أبو غزوان بح، ولا كأنه كان. مو بس هيك يقتلوني كخائن، كنصاب، ولا أحد يقول الله يرحمه.

يرتجف الحكيم، تمر الصور في رأسه، فتخرج الكلمات من بين أسنانه:

- أنا أعرفهم منيح، يا صفاء، حافظهم عن ظهر قلب، أهل موران لا يمكن أن تجد من يشبههم: حقودين وجبناء، وفي هذه الحياة لا تخف إلا من الحقود والجبان، يمكن الواحد منهم يعمل أي شيء، لا ذمة ولا ضمير، ولأنهم جبناء وحقودين يحاولون أن يخفوا جبنهم وحقدهم بالكلمات الكبيرة، وأنت تعرف العرب: كلمة تأخذهم وكلمة تجيبهم. اللي ما يجي

بـالفلوس يجي بالعبـطة، بكم كلمة تفتـل روسهم، فـإذا وصلوا لكم واحـد هون وعرفوا مكاني فتأكد أن أجلي حان ومستحيل أفلت.

وتتغير نبرة الصوت، تصبح غاضبة:

ـ لا يا سيدي، بدي أبرّد راسي، بدي أهرب من المشـاكل، وكـل ما هـربت من العرب أكثر كلما سلمت.

ويهز صفاء رأسه دلالة الفهم والموافقة، وما ان عاد المسيو مولان حتى بادره:

ـ القصر المناسب للدكتور المحملجي أن يكون في ضاحية راقية من ضواحي جنيف، ومن المناسب أن تكون بعيـدة عن وسط المدينـة ولا يؤمها الغـرباء خاصة الشرقيين، لأن وقت الدكتور ثمين للغاية ويـريد أن ينصـرف للكتابـة والتأليف.

حتى ذلك الوقت لم يخطر ببال المسيو مولان أن الحكيم يمكن أن يكتب، فخلال الشهور الثلاثة التي مرت لم يره يقرأ أو يحمل كتاباً، ولم يلحظ في غرفته ظلاً، أي ظل، لكتاب أو ثقافـة. كان يـراه ساعـات في الزاويـة ذاتها صـامتاً ساهماً ضجراً، فإذا انشغـل بشيء فبمراقبـة برامـج التلفزيـون، وبعض الأحيان بأن يفرد ورق الشدة، كالساحر، ويظل يقلبها لساعات متواصلة. سأل المسيو مولان الحكيم بمودة:

ـ أي نوع من الكتابة تكتب يا دكتور؟

فوجىء الحكيم بالسؤال، وكأنه لم يتوقعـه أو لا يحبه. دارت عينـاه كعيني قط، ثم قال بحزم وقد أعطى لوجهه ملامح صارمة:

ـ الكتابة الفلسفية والتاريخية!

هز المسيو مولان رأسه دلالة الإعجاب والاستغراب معاً وسأل من جديد:

ـ وهل وضعتم كتباً عديدة؟

ومرة أخرى يفاجأ الحكيم، شعر بالضيق، تطلع الى صفاء بارتباك يستنجد به، قال صفاء بمكر:

ـ للحكيم عدة مؤلفات فلسفية، والآن، وبعد أن أصبحت ظروفه أفضل، وضع خطة للتأليف والمتابعة.

قال الحكيم لصفاء بنزق:

ـ كان الوقت ناقصني يا صفاء، كانت الأشغال والهموم لفوق راسي . . .

وزفر بحرقة. بدا حزيناً، أدار كرسيه وجلس بشكل جانبي، وكأنه لا يريد أن يواصل حديثاً ينغّص عليه راحته. قال صفاء للمسيو مولان هامساً ولا يريد للحكيم أن يسمع:

ـ الأسى الحقيقي الذي يشعر به الحكيم أنه لم يتيسر له الوقت الكافي لمواصلة أبحاثه الفلسفية والتاريخية، فقد كانت أشغاله ومسؤولياته تحول دون ذلك، أما الآن، وبعد أن تقاعد، فقد تفرغ نهائياً للعمل.

تغيرت نظرة المسيو مولان، أصبحت إعجاباً، قال بطفولة:

ـ ويجب أن يكون القصر قريباً من الجامعة أو من المكتبة العامة لكي . . .

رد الحكيم بصرامة:

ـ المهم أن يكون هادئاً!

خلال اسبوعين، وبعد جولات عديدة، ومشاهدة عدد من المنازل والقصور، تم الاتفاق على شراء قصر قرب مدينة نيون: يطل على البحيرة من الجهتين الشرقية والجنوبية، ولا يبعد عن المدينة سوى كيلو متر ونصف. ورغم أن بناء القصر يعود الى أواخر القرن الماضي، إلا أن صاحبته ظلت تصرّ أن البناءين لم ينتهوا منه إلا بعد انتهاء الحرب الأولى!

ـ صفاء . . . شفت بعينك: البيت بثلاثمائة وخمسين، والتصليحات تحتاج

خمسين أو ستين ألف، أريدك من يوم وصولك أن تحوّل لي نصف مليون دولار، وكل تأخير ندفع مقابله، عدا عن إيجار الفندق!

ـ تؤمر يا حكيم. . ثاني يوم من وصولي. . التحويل عندك.

ـ لا تنس ولا تتأخر.

ـ ولو. . يا حكيم، لا توصني!

ويتيه الحكيم في أفكاره «رب ضارة نافعة. تقاعدت في الوقت المناسب. الآن تنفتح أمامي كل الفرص. الشيء الذي لم أستطع أن أنجزه في موران يمكن أن أنجزه هنا، يمكن أن اكتب كل ما أريد وبحرية، دون رقابة ودون اهداءات، كنت مضطراً أن اهدي الكتاب للسلطان خزعل، الآن لا يمكن أن افكر بهذا الشكل، السلطان صار بالنسبة لي ماضياً وانقضى، ولا بد الآن أن تكتب الحقائق والقناعات كاملة ودون مجاملة».

ويشعر أن معدته تؤلمه. منذ اللحظة التي غادر فيها بادن بادن لا يطيق أن يستعيد صورة السلطان. وعندما يضطر لذلك، سواء إذا فكر فيه أو سئل عنه، يشعر بالغثيان. أكثر من ذلك يشعر أنه بدّد حياته مع شخصيات وفي أماكن لم يتصورها، ولم يكن مستعداً لها. وكان نتيجة ذلك أن يشعر بألم في معدته. وهو، باعتباره طبيباً، يعرف أن القلق أحد أهم الأسباب الذي يولّد آلاماً للمعدة، وقد يتطور الوضع إلى قرحة، والقرحة قد تصبح شيئاً أكبر!

استبعد السلطان وعاد الى القصر: الغرفة العليا المطلة على البحيرة، من ناحية اليسار، ستكون غرفة سلمى: واسعة، هادئة وقريبة من الحمام. الغرفة ناحية اليمين ستكون: المحراب. هناك سأبدأ الحياة من جديد. انها الولادة الثانية للإنسان، خاصة بعد هذه التجارب المريرة، ولذلك لا بد أن استثمر كل لحظة، أن أقدم أفضل ما عندي، وأن انجز كل شيء في فترة قياسية. وتذكر واجباته تجاه سلمى، أحس بالمرارة لأن وداد غائبة، وحدها التي تستطيع أن تساعدها، فهذه الصغيرة لا تقوى حتى على إزاحة الستارة، أو فتح النافذة، وكأنها

تخاف من شيء. ويلاحظ انهما تخاف أكثر حين يكونان في الخارج، تجفل من أية حركة ومن أية نظرة، تلتصق به تريد الحماية والدفء. أما حين يكونان وحيدين فإنها تغرق في الصمت والحزن، فيحار كيف يخرجها من هذا الجو، وكل المحاولات التي يبذلها لا تستجيب لها، إذ كثيراً ما ردت على أحاديثه بنظرة تحمل كل معاني الضجر والبعد، فإذا سألها عن رغباتها، أو استفسر منها عن أمر من الأمور فغالباً ما تكتفي بكلمة أو بهزة رأس أنها لا تريد شيئاً أو لا تعرف.

ويغرق نفسه في إصلاح القصر وترتيبه، وخلال شهرين لا يهدأ ولا يتوقف، ومع الحركة تتولد في نفسه الثقة، يصبح أكثر تفاؤلاً فيشتعل رأسه بالأفكار والأحلام، فتتوارى موران أوتبتعد، كما تعاوده الرغبة في أن يبدأ حياته من جديد «عندما ينضج الإنسان وتصقله التجارب يصبح قادراً على إعطاء أفضل ما عنده، ويصبح قادراً على اجتراح المعجزات».

لكن هذه الثقة لا تواتيه دائماً وفي كل الأوقات، اذ ما يكاد ينزلق الى فراشه استعداداً للنوم، وما يكاد يخيم الظلام، حتى يشعر بالانقباض ويستبد به الإحساس بالنهاية. لا يعرف لماذا تسيطر عليه هذه الأفكار والمشاعر أو كيف يقاومها. يشعر برغبة لأن يكون مع الآخرين، لكن الآخرين تخلوا عنه، وحين يسأل غزوان عن أمه وعن أخبارها يأتيه الجواب الحزين «أتركها بهمها يا بابا، طول نهارها تركض وما تركت أحد إلا ووسطته، لأن الجماعة حاطين عيونهم على أرض الحاووز، وأنت تعرف أهمية هذه الأرض ومساحتها» ويرد عليه بغضب ويهدد، فيقول له غزوان برجاء «المهم أن تبعث لنا وكالة يا بابا لننقل ملكيتها، حتى لا تبقى مجال ضغط ومساومة» ويحار ماذا يفعل أو كيف يتصرف. «وأنت يا غزوان، متى تأتي لزيارتنا؟» ومثل عادته كل مرة: «في أقرب فرصة يا بابا».

ولا يعرف متى يغرق في النوم، لكن النوم ذاته عذاب لا يقل عن عذاب اليقظة، وكثيراً ما استيقظ في الليل العميق مرعوباً عطشان، أوبعد أن يشرب لا

يستطيع أن يعاود النوم من جديد، فيبقى ساهراً في الظلمة، كان يسمع صوت أنفاس سلمى، وبعض الأحيان أناتها، وكان يفكر في حياته كلها، يستعرضها، بكل تفاصيلها، من جديد، فلا يعرف أين أخطأ أو كيف، لكنه يمتلىء احساساً أنه وحيد وأن الجميع تخلوا عنه. « الناس لا يؤتمنون، الأنانية هي الموجه الأساسي والوحيد لتصرفات الإنسان، أي إنسان، ومن أجل أن يكون أقوى وأغنى لا يتورع عن عمل أي شيء » وتمر الأطياف والأسماء « حتى الأقرباء، حتى اللي من اللحم والدم نسوا. . . ابتعدوا، وكل واحد يا نفسي».

ويحار في عواطفه وعلاقاته، ويمتلىء بالخوف والهواجس.

بعـد الانتقال الى قصـر « الحير الأوروبي » كمـا أطلق الحكيم على القصر الـذي اشتراه في نيـون، وبعد أن استكملت الإجـراءات الضروريـة: أجـراس الانذار، كهربة السور، خاصة في الليل، كلب الماني من نوع بيرجيه، إضافة الى سـائق وخادمة جزائريين، أصبـح الحكيم في وضع مستعـداً معـه « للرحلة الكبرى » التي طالما أجلها « لأسبـاب قاهـرة »، كما يقـول لنفسه، لكن، مـرة أخرى، يقع ما يغيّر كل شيء.

كان يحتضن ثلاثة دفاتر، ويضـع الى جانبـه، على المقعد الخلفي للسيـارة الصغيـرة التي اشتراهـا، كمية كبيـرة من الورق. « الـدفاتـر لـلأفكـار الكبـرى والناضجة. . . أما الورق فإنه الطعام اليومي » هكذا فكـر وهو يشتـريها. أكثـر من ذلك فكر وهو في السيارة، بعناوين للدفاتر الثلاثـة. العنوان الأول: « ذكـر ما جزه »؛ وكان الثاني « عبر الأيام ومعرفة الأنام »؛ أما الثالث ففكر لـه بعنوان سريع: « أثقال المنون في معرفة الظنون». صحيح أنه كـان متردداً في اختيـار العنـاوين، لكنه يـريد أن يلزم نفسـه ببرنـامج، أن لا يتـرك شيئـاً للصـدفـة أو المـزاج، وهذه الـطريقة التي اختبـرهـا من قبـل، والتي تبـدو متسـرعـة بعض الشيء، تلزمـه بعـادات: « االعـادات أسـاس الحيـاة، لأن الحيـاة هي العـادة المكررة » هكذا كان يقول لنفسه بنوع من الإصـرار لكي ينجز أعمـالاً معينـة. لقد تعلّم ذلك من الالمان. يتذكر أن مدرس الوراثة كان يكرر عبارة: « الوراثة هي عادة مكررة، والمكرر هو النواة، هو الباقي». وهكذا ألزم نفسه، منذ وقت مبكر، بعادات أصبحت جزءاً من حياته. ولا يريد الآن أن يستعيد كـل شيء،

لكنه يبتسم وهو يتذكر: «الرجل اليمنى قبل اليسرى أثناء السير، في الدخول الى بيوت الأصدقاء، وفي الدخول الى المساجد. الرجل اليسرى في الخروج من المرحاض والمقابر. .» ولا يريد أن يتذكر بيوت الأعداء. كان صديقاً ومحباً للجميع. كان يحترم الجميع، يتعاطف معهم، يساعدهم، «لكن الناس، منذ أيام نوح هم الناس: الحسد، البغض، الحقد». ولا يعرف لماذا تتركّز هذه الخاصية في الانسان «الحيوانات تتعاطف تأتلف تصل الى صيغة من التفاهم والتراضي، أما الانسان، فإنه الحيوان الوحيد الذي لا يستطيع أن يصل الى وسيلة للتفاهم مع الإنسان الآخر».

كانت موران تمر في ذاكرته مضطربة، لكنها تشبه شريطاً حزيناً قاسياً. لم يبق أحد إلا وساعده. فتح الأبواب للذين يعرفهم وللذين لا يعرفهم، قال لهم: تعالوا. فلما جاءوا، وبدأوا، وتدفقت عليهم الأموال، وبمساعدته، وبدل أن يشكروه تنكروا له. قال في محاولة لأن يقنع نفسه: «موران حالة خاصة» لكن تذكر أماكن أخرى، تذكّر أشخاصاً آخرين. قال «الإنسان عدو ما جهل». . وكان يفكر أن البشر، على مدى مئات السنين لا بد أن يتغيروا، هو متأكد من ذلك، والحياة والطبيعة سوف تفرضان شروطهما، ولا بد أن تعلّم الآخرين كيف يجب أن يتصرفوا. «نحن ما زلنا في البداية، البداية لها مخاطرها وأهوالها، ولا بد أن يقع الكثيرون ضحايا، لكن الحياة خير معلم». واعتبر هذه النتيجة رائعة. سوف يتعمق أكثر فيها وسوف يخصها باهتمامه لكي يبلورها، ويعطيها أبعادها الفلسفية، ويمكن أن تكون أيضاً بداية «للتدوين». انه الآن في حالة نفسية مقبولة، صحيح أنه ليس في أحسن حالاته، وليس مستعداً تماماً، لكنه يشعر بمزاج رائق، ويشعر أيضاً بالهمة والنشاط، كما يمتلك أفكاراً كثيرة جديرة بالتسجيل. سوف يفكر ويخطط لهذه الأمور بطريقة أفضل، ولا بد أن تتبلور من خلال التأمل والعمل، وسيصل في النهاية الى النتائج التي يريدها. هذا لا شك فيه، وهو ليس نتيجة رغبة أو حالة جموح، انه متأكد، وها هي الأفكار تواتيه وتتراكم بطريقة منطقية

واضحة. يستطيع الآن أن يكتب ويستمر، دون حاجة الى مراجع أو مناقشة أحد. الآخرون يشوشونه، يربكونه ويجعلونه في حالة نفسية قلقة، لقد كانوا دائماً السبب الذي أعاقه عن مواصلة العمل.

القصر على تل، يليه آخر. فكر الحكيم أن يسميه، في البداية، « السنام »، لكن صرف النظر بسرعة « يجب أن أنسى موران والبادية ».

وفكر أن يشرك سلمى معه. لو فعل لا بد أن يخلق لها اهتمامات جديدة وينقذها من حالة الفراغ والقلق. صحيح أنها صغيرة لا تدرك أفكاره، وقد يكون من الصعب عليها أن تجاريه، لكن ربما استطاع أن يدخلها تدريجياً في هذا العالم، وبمرور الوقت، مع الأيام، لا بد أن تصبح لها اهتمامات مماثلة. فالوراثة تتخفى لكنها لا تنتهي، وقد تكون هذه الصغيرة امتداده الحقيقي على هذه الأرض. لا يستطيع أن يحكم حكماً أكيداً صائباً، خاصة وأن الأوقات القليلة التي قضاها مع ابنيه لم تساعده على اكتشاف هواياتهما، أو معرفة مراكز الثقل لدى كل واحد منهما. يعرف غزوان، يعرف هواياته وإتجاهه، أما سلمى، وفي مثل هذه السن، فيمكن أن يتولى إعادة تشكيلها. إنها فرصته الحقيقية لتطبيق نظريته وتحقيقها، وسوف يتأكد أكثر من جميع التفاصيل.

تمنى لو كان في ظروف نفسية أفضل، مثلاً لو أن وداد معه الآن، إذن لاتخذ قرارات حاسمة، وبدأ حياته من جديد. ومع ذلك يجب ألاّ ينتظر أو يتأخر. « العمر يركض كماء النهر ولا يمكن أن يتوقف أو أن يستعاد». وقرر أن يبدأ، خاصة وأنه يحب فصل الشتاء أكثر من الفصول الأخرى لأنه «فصل الاختمار والبيات»، وندم أنه لم يحمل معه العباءة، فهي هنا أكثر ضرورة من موران، وفكر أن يطلب من وداد أن تحضرها معها «لكن متى تعود» وأحس بالضيق لأنه عاجز عن اتخاذ القرارات، لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الانتظار.

السيارة تصعد، المرزوقي لا يزال غير قادر على التفاهم مع الحكيم بيسر، صحيح أنه اختاره رغم كونه عربياً، لكن تعمد ذلك لعدة أسباب: بدا له قوياً

بحيث يستطيع أن يقوم بأكثر من مجرد قيادة السيارة؛ والسبب الثاني أنه يمكن التفاهم معه، رغم الصعوبة، أكثر مما يستطيع التفاهم مع سائق سويسري؛ وأخيراً فهو قادر على أن يبعد عنه العرب بكل سهولة، ودون أن يثير الشكوك.

تأكد من ذلك بعدما: استدعاه وحاوره. قال له المرزوقي، حين اختبره: «مُسلم والحمدالله»، ولما سأله عن علاقاته مع العرب أو ان كان يعرف أحداً منهم رد عليه باختصار: «يرحم والديك، اتركنا من العرب الخامجين»، ولما ضحك الحكيم وسأله من جديد لماذا يعتبرهم هكذا أجابه بنزق «يا أخويا ما نعرفوس أيش كاين، لكن ما نشوفهم إلا مع الطفلات والقحبات وما يفكوا السكر. وأنا بنفسي شفتهم، ولا واحد منهم يمسك رمضان».

اليوم، بعد أن قضى وقتاً في جنيف ولم ينس المرور على فندق ستراسبورغ والتحدث إلى المسيو مولان، تزود بكمية وافرة من أدوات الكتابة، بما في ذلك عدد من أقلام الرصاص والجافة، ومسطرة وثلاث دَوَيات حبر بألوان مختلفة ومماحٍ، واشترى أيضاً أكداساً من الورق وثلاثة دفاتر.

اليوم هو الخامس في مقره الجديد، وقد عنّ له وهو يستعرض الأسماء التي يمكن أن يطلق واحداً منها على القصر، اسم «عشّ النسر» لأنه تذكر أحد مقرات هتلر أثناء الحرب، لكنه استبعده بنزق وسرعة لأنه ارتبط بالسلطان والسيرة التي ماتت قبل أن تولد. شعر للحظة بأحاسيس مختلفة، لكن أبرزها شعور الراحة، لأنه تخلص أخيراً من هذه الحماقة، رغم أنه صرف وقتاً طويلاً وبذل من الجهد والأعصاب الكثير لكي يرضيَ ذلك الشره المنافق سمير، الذي لا يميزه سوى أنفه، وكأنه أنف مهرج في السيرك. صرف عليه ما يمكّن من تأليف عشرة كتب. وبعد ذلك، وفي غفلة من الجميع هرب، عاد الى موران، عاد دون أن يشعر به أحد من الذين حوله. ولم يعرف بسفره إلا بعد أيام من السفر!

لن يقع بعد اليوم في اشراك الآخرين، يجب أن ينصرف الى كتاباته الخاصة، لديه ما يقوله قبل أن يغادر هذه الدنيا، لديه الكثير. حتى المناقشات التي كان يجريها مع مطيع وحماد وآخرين، كوسيلة من وسائل الثقافة، يحس الآن أنها كانت على حسابه، وعلى حساب قضايا كبرى كان من السهل أن يقوم بها لو ملك الوقت والجو النفسي الملائم. أين مطيع الآن؟ لقد تذرع بعشرات الأسباب لكي لا يأتي. حين سأل غزوان عنه، قال انه لم يره إلا عرضاً، وحين سأل الآخرين قالوا أنهم لم يروه منذ شهور، من هو مطيع لو لم يسنده ويحمه؟ وفي النهاية تخلى عنه، لم يره ولم يسمع منه حتى كلمة مجاملة. ومطيع من الأقارب، وليس مثل سعيد أو رضائي، لكنه، في المواقف الحاسمة، حين يطلب منه أن يختار لا يرى سوى مصلحته، لا يرى إلا ما يعزز قوته. «الآن صار الحكيم كخ، صار عبئاً، ويجب أن يبتعد عنه الآخرون، لكن بسيطة، سوف نرى».

.وأبعد عن تفكيره موران وناس موران. قال للمرزوقي بتحبب ظاهر:

ـ وتفكر تبقى هنا طول حياتك؟

ـ بحق الرب ما تقول لي نروح فين؟

ـ ما تحب ترجع للبلاد؟

ـ نحب البلاد، لكن بالبلاد ما في إلا Chomage والبوليس.

واستمرت السيارة في الصعود.

جنيف، ظهيرة ذلك اليوم من أوائل أيام الخريف، هادئة. الشمس تظهر وتختفي كما لو أنها كرة بيد ساحر، إذا اختفت يرشح ضوء هو مزيج من ضوء القمر ورياح الشتاء، وإذا ظهرت تبدو مثل عجوز غلبها الزمن، ولم يبق منها إلا بما يذكر بماضيها، وبين الظهور والاختفاء كان رذاذ البحيرة يملأ ذرات الهواء، ويجعل للجو رائحة باردة، فيغلق الحكيم نافذة السيارة بإحكام، لأنه يريد أن يستبقي شعلة الحماس في داخله دافئة. يتطلع حواليه لكنه لا يرى إلا

أطيافاً، فقد كان مشغولاً بعالمه الداخلي الحافل والمضطرب.

لم يبق إلا المنعطف، ناحية اليمين، ويرى « قصر الحير الأوروبي » غارقاً في خضرة داكنة، والى جانبه، من الناحيتين، أبنية وقصور قديمة. قال في نفسه: « البشر في أوقات سابقة كانوا يعيشون في هموم أقل » وتذكر موران فأضاف «والفرق كبير بين بشر هذه البلاد وبشر تلك الصحراء الملعونة» وكرت في ذاكرته مجموعة من الوجوه، كانت غائمة متداخلة أقرب إلى التشوه. قال في نفسه: «سوف يتشوهون أكثر، سوف يصبحون مسوخاً».

انعطف المرزوقي ناحية اليمين. لم يخفف السرعة، وهو ينعطف، فقط، كاد يتوقف. الحكيم الذي كان غارقاً في عالمه البعيد ـ الغريب، انتبه لهذه الحركة المفاجئة. سحب نظراته مما حوله، وسحبها من الداخل. تطلع نحو « قصر الحير الأوروبي » للحظة فلم يصدّق عينيه، بلمح البصر أغلقهما وفتحهما مرة أخرى ليتأكد. وجد عند باب القصر سيارة بوليس واخرى لم يستطع أن يحدد صفتها. قال في نفسه « الإنسان لا يخلص من موران ما دام حياً »ولا يعرف كيف انصرف ذهنه الى احتمال القبض على مجموعة جاءت لاغتياله. « الحكومة السويسرية تحترم نفسها، ولا تسمح للعصابات أن تسرح وتمرح وأن تفعل ما تشاء، وهي مسؤولة عن حماية كل فرد على أرضها». وتذكر كلمات المسيو مولان، الذي أشار الى ضرورة إشعارالحكومة السويسرية بالصفة الرسمية التي كان يتمتع بها، لأن من شأن ذلك تسهيل تسجيل القصر، وربما أيضاً توجيه الدعوة له في المناسبات الرسمية. تردد الحكيم، «لأني لا أملك الوقت لتلبية الدعوات والانخراط في الجو الاجتماعي أو الرسمي »، ومع ذلك ترك للمسيو مولان أن يشير الى هذه الصفة في طلب التسجيل، ومن أجل الإشعار فقط.

سأل المرزوقي والسيارة تتقدم ببطء:

ـ شو صاير؟ يا فتاح، يا كريم، بعدنا ما سكنا وبلشت المشاكل؟

ـ والله، يا سيدي، ما نعرفُ.

ـ اللهم اجعله خيرا!

ـ الله يسمع.

أما ماذا حصل منذ أن غادر الحكيم القصر وحتى العودة اليه، فإن الروايات تتعدد وتتناقض كثيراً. حتى البوليس السويسري لم يستطع أن يجزم ما إذا كانت الوفاة نتيجة ماس كهربائي أم بفعل تصميم على الانتحار، لأن الوقائع التي تؤيد أياً من الاحتمالين قائمة، وتكاد تساوي الأخرى. خاصة وأن جزءاً من المعلومات المتعلقة بالفترة السابقة، ظل مجهولاً نتيجة التطورات اللاحقة التي أصابت الحكيم.

الكلب هو أول من اكتشف وفاة سلمى، فقد كان يحوم بين غرفة النوم والممر والحمام، كان هادئاً متمتعاً بالدفء، وفجأة بدأ بالعواء. كان يعوي بطريقة عصبية، وهو لم يفعل ذلك طوال الأيام السابقة، نعيمة، قريبة المرزوقي، التي بدأت الخدمة معه، لكن لم تتحدد صفتها بصورة كاملة ونهائية، هل تعتبر خادمة، وسوف يتم استخدام أخرى للطبخ، أم ستتولى الأمرين معاً، على ضوء تحديد الحاجات الفعلية. نعيمة التي استغربت عواء الكلب، ولم تفهم له سبباً، استدعت البستاني، وكان يعمل في الحديقة الخلفية، إذ ربما يكون أقدر منها على التفاهم مع هذا الحيوان، أو فهم أسبابه ما كاد البستاني، وهو رجل قصير، أقرب إلى الكهولة، يدخل وينادي على الكلب، ويحاول أن يهدئه، حتى تلفت إلى أكثر من ناحية، وكأنه يبحث عن شيء بما تسبب فيما حصل. وبين مراقبة الكلب والانتقال من مكان إلى آخر، التمعت صورة سلمى في ذهن نعيمة. اندفعت الى الحمام، وجدت الباب مقفلاً. دقته عدة مرات لم تتلق جواباً ولم تسمع صوتاً. ذهبت إلى غرفة سلمى تبحث عنها، لم تجدها. صرخت برعب وأشارت إلى الحمام. الكلب طوال هذه الفترة لم يتوقف عن النباح. وتم استدعاء البوليس، وجاء مع البوليس الاسعاف، لكن كان كل شيء متأخراً.

لما وصل الحكيم كان البوليس قد أنجز مهمات المرحلة الأولى، إذ نقلت

سلمى الى مستشفى وسط المدينة، وتحفظ على العاملين في القصر، ويبدأ بواسطة خبراء معاينة مكان الجريمة وتسجيل التفاصيل.

بعد ثلاثة أيام وصل غزوان وصفاء الشلبي.

وبعد يومين من وصولهما استكمل التحقيق، وأن ظلت بعض الأسئلة دون إجابات. وجرت مراسيم دفن سلمى، ثم سافر غزوان، وبقي صفاء بضعة أيام من أجل إجراء مجموعة من الترتيبات، بما فيها مرافقة الحكيم الى مصحّ في جبال الألب.

بعد سنين، حين أصبحت روفة عاجزة عن المشي، قالت لاحدى قريباتها:

- الله العليم انه ما قرّمني إلا خطيّة ذلك البنية!

قالت ذلك لأنها تذكرت صرخة عدلة، وهي تطلب منها الاستعجال لاستدعاء سلمى. فالسلطان قبل أن يأوي إلى فراشه، في تلك الليلة البعيدة، طلب أن ينادى له على سلمى. كان واضحاً أنه اتخذ القرار. لم يقل ذلك لاحد، حتى لعدلة، لكن عدلة احسّت، أو ربما أصبحت على دراية عندما يتخذ السلطان قراراته. فما كادت روفة تبطىء في النهوض، وربما تعمدت ذلك، حتى صرخت بها عدلة وبصوت مخيف:

- عسى أن الله يقرمّك. تسمعين كلام طويل العمر، وبعدك بمكانك؟ يا الله . . يا الله.

ومثل بنات المدارس وقفت سلمى في مدخل الصالة. لم يطلب إليها الجلوس، ولم تسمع رداً على التحية التي القتها. كان الصمت، وكانت العيون الوجلة تتطلع إليها، قال لها السلطان وخرج صوته مرتجفاً:

أنت طالز، أنت طالز، أنت طالز.

وحين ابتسمت وهزت رأسها دلالة أنها لم تفهم، خفض رأسه قليلاً لكي لا تستمر في النظر إليه هكذا، لانه في لحظات معينة يخاف تلك النظرات، وربما يضطر للتراجع. قال لها ورأسه مائل ونظراته مصوبة إلى مسند الكرسي:

- تصلين أبوك وهو يعلمك شنهو معنى الكلام اللي قلته!

ابتسمت وهي تنسحب. نظرت إلى العيون التي تتابعها، هزت رأسها، وكأنها تقول: «تصبحون على خير».

أما عدلة التي لم تغادر فراش السلطان خلال الشهرين التاليين، وظنت أنها ستبقى في ذلك الفراش ما بقي لها من أيام، ولم تأبه للاحلام والكوابيس التي لاحقتها خلال تلك الفترة، وعزتها إلى الطعام، وإلى ارتفاع الوسادة التي تنام عليها، فقد اكتشفت، بمرور الوقت، أن هذه الكوابيس وحدها هي التي ستلازمها إلى أيامها الاخيرة، إذ بعد ان سفَّرها السلطان، وعادت الى موران، وعادت الى الاكل الذي تفضله، والى الوسادة التي تعودت أن تنام عليها، فإن الكوابيس لم تفارقها، بل كانت تتزايد وتثقل على صدرها. وحين سألت نجمة العجرمي أن تساعدها، ردت عليها بسخرية:

- ما يفيدك إلا نجم الدب، هو اللي يفك السحر ويرخي الحبال! وحين لم تفهم، أضافت:

- مالك إلا وداد، يجوز تبخرك أو تسوي لك دوسة، واذا ما فاد لا هذا ولا ذاك فعليك بديك اسود وخصوة ثور وجلد حية ولسان عصفور، تطحنيها كلها زين، وتبيتيها كلها تحت السما، وبعدها إذا شربت منها تعافين فقولي آمين!

المنفى . .

المكان البارد، الموحش، الذي يشعرك دائماً أنك غريب، زائد، وغير مرغوب فيه؛ المكان الذي تفترضه محطة، أو مؤقتاً، فيصبح لاصقاً بك كالعلامة الفارقة. وربما لأنه مؤقت يصبح وحده الأبدي، كالقبر، لا يمكن الهروب منه أو مغادرته.

حتى الفرح والمسرات الصغيرة، وأيضاً الانتصارات العابرة أو الموهومة، ان لها في المنفى مذاقاً مختلفاً: انها ليست لك. انها مؤقتة، هشة، وتتحول بسرعة الى حزن كاوٍ، والى بكاء لا يعرف التوقف. أما كيف تذوب، وتتراجع كالحلم، ولا تشبه مثيلاتها التي تحدث في الوطن، فإن في الأمر سراً يستعصي على الفهم أو التفسير.

فما كادت سلمى وأبوها يغادران القصر، تلك الليلة، ولا يعرف متى حصل ذلك، أو الى أين، وما كاد اليوم الأول ينقضي، ولم يبق أحد إلا وعرف، حتى أحس الجميع بالفراغ، بفقد شيء ما. في الأيام التالية مازج الفراغ شعور بالخطأ، ما لبث أن تحول الى خطيئة. صحيح أن الحكيم لا يعني للكثيرين شيئاً مهماً، ولم تقم بينه وبين أغلب الموجودين علاقة من أي نوع، بل أكثر من ذلك كان يبدو بالنسبة لهم بعيداً أو أقرب الى الشبح، ومع ذلك، أخذت الشفقة عليه تزداد يوماً بعد آخر.

أما سلمى، وقد جاء هذا « الجيش » معها، أو من أجلها، واعتبرت شؤماً

وقدماً سوداء، وربما تسببت فيما وقع في موران، فإن أحداً لم يرها منذ أن وصلت الى بادن بادن، ولذلك غابت تلك الصورة عنها أو تراجعت. وحين أخذت قصص السلطان تنتقل وتعم، كيف يترك الربع ويصعد الى الطابق العلوي، وكيف لا يتعب ولا يمل، مثل أي ديك، وهو يصعد وهو يهبط، فقد تساءل الكثيرون همساً: «لكل كبش عشرين نعجة، أما هذا التيس فما عنده إلا هذه السخلة، فكيف تحتمل في الليل والنهار؟» ولذلك تغيرت النظرة لها، واختلفت العواطف تجاهها. أما بعد أن نُقل عن زيد كيف غادرت القصر، دون أن تحمل معها أي شيء، وأنها كانت مكسورة وحزينة، ولا يعرف أين ذهبت أو ما هو مصيرها، فقد ساد شعور أنها ضحية، ولا تستحق مثل هذه النهاية.

ترافقت صورتها، وهي تغادر هكذا، بذلك الشجن الذي يضاعفه المنفى مئات المرات. أحس أغلب المقيمين أنهم ضحايا، وأنهم معرضون لنفس، ولا يختلفون عن هذه الفتاة الصغيرة، التي امتُصت ثم رُميت!

وشيئاً فشيئاً، ويوماً بعد آخر، أخذت صورة السلطان تهتز وتتغير. لم يعد أباً رحيماً، ولا إنساناً مظلوماً، كما أنه لم يختلف، ورغم الابتسامات والود الذي بدر منه تجاه عدد من الحرس وبعض الخدم، عن الإنسان الذي كان هناك: أنانياً، قاسياً، لا يعرف الرحمة حتى تجاه أقرب الناس اليه.

عدلة التي لم تخرج خلال الأيام السابقة، أخذ الحرس يشاهدونها تتدحرج كالكرة يومياً، قاطعة المسافة مرتين بين بوابة القصر والبوابة الخارجية، ذاهبة الى طبيب الأسنان أو راجعة من عنده. كانت تتعثر في مشيتها، وتنظر الى كل شيء بخوف، وكأنها تحاول أن تثبت براءتها، دون كلمة، أو تعلن عدم مسؤوليتها عن كل ما حدث!

قدّر الكثيرون، خاصة من الحرس والخدم، وان لم يملكوا معلومات،. عكس ما كان الحال في قصر الغدير، أن عدلة مسؤولة. وقد عبروا عن ذلك، فيما

بينهم، ولنزلاء الفندق، بصراحة ودون تردد، خاصة وأن عمليات التمويه هذه لم تنطل عليهم، أكثر من ذلك، أحسوا أنها تخدعهم. حتى النذر الذي وزعته في اليوم الثالث لمغادرة الحكيم، وقد أشرف مجلي بنفسه على توزيعه، وكان عبارة عن حلويات صُنعت في القصر، ومعها مبلغ من المال، لم يستطع أحد أن يفهمه أو أن يفسره إلا باعتباره نكاية وشماتة، ودليل على أنها انتصرت في هذه المعركة، أيضاً!

نزلاء الفندق كانوا أكثر شراسة وأكثر تحدياً، ليس لأن الحكيم يعني لهم شيئاً، وإنما لأنهم منسيون من قبل القصر، متروكون، لا يعرفون ما يخبئه لهم الغد. ليس ذلك فقط، أصبح مبارك المويتع، الذي كان مكلفاً بقضايا الأمن، إنساناً لا يطاق: عمليات الاستدعاء والتحقيق تجري كل يوم في الغرفة ٣٣٧. سحب جوازات السفر والاحتفاظ بها في القاصة الحديدية، خاصة بعد عمليات الهروب العديدة التي وقعت، وكان آخرها هرب بدري المدلل، حلاق صاحب الجلالة. التوقف عن صرف المخصصات الأسبوعية، أو تأخيرها، نتيجة الاختلاف حول أي من الأمور، أو بسبب الشك الذي يحوم حول بعض الأشخاص.

كان مبارك، المتين، الشديد السمرة، الأقرب الى السواد، إنساناً دمثاً خلال الأسابيع الأولى، ولم تكن صفته واضحة أو محددة بالنسبة للكثيرين. كان يظن أنه من فريق المشتريات؛ وقيل انه من الحرس الخاص؛ وذكر أنه جاء مع السلطان لإجراء عملية في عينه اليسرى، لأن غشاوة بدأت تزحف على هذا العين، وأشار عليه الأطباء الذين راجعهم في موران بضرورة إجراء عملية في الخارج، وقد توسط له الحكيم، وضُم إلى الوفد المسافر في آخر لحظة، الى أن تبين خطأ جميع هذه التقديرات، وتأكد ذلك بعد أن تم استدعاؤه للقصر، ومقابلته الطويلة مع زيد الهريدي وصالح الهلالي، مسؤول أمن السلطان، وتسربت أقوال أنه قابل جلالته، وأقسم يمين الولاء، مجدداً، أمامه.

بعد هذه التطورات، وفي محاولة لضبط الأمن، والتأكد من سلامة العناصر، إتخذ مبارك تلك الإجراءات.

كان من الممكن أن تقبل الإجراءات التي اتخذها، لو أن ظروف الرجال عادية، أو كانوا من طبيعة واحدة، لكن لأنهم خليط من المستويات والأمزجة والعلاقات، فإن ردود الفعل لا تنتهي، والمواقف تتغير بين يوم وآخر، مع ما يرافق ذلك من خصومات وتحديات لا تتأخر لكي تصل أصداؤها الى القصر.

ترافق هذا مع همس وإشاعات تتزايد وتتسع، أن مبارك، وهو يلجأ لتلك الإجراءات، لا يصدر عن رغبة لوضع حد للاضطراب الذي يقع بين نزلاء الفندق، وإنما نتيجة تعليمات من السفارة في بون، بحكم القرابة بينه وبين بديوي المطلق، مساعد القنصل، ومما يؤكد ذلك أن بديوي زار بادن بادن، خلال شهر واحد، مرتين، وفي المرتين التقى مطولاً مبارك. وراجت إشاعات أيضاً أن حماد الذي اختار مبارك لهذه الرحلة، وليس الحكيم، كان مكلفاً، ومنذ البداية، بمهمة، لكن طلب منه أن يتستر عليها، وأن يسلك سلوكاً من شأنه أن يخلق الطمأنينة لدى الجميع، حتى إذا حانت الساعة المناسبة قلب كل شيء.

امتناع مبارك عن صرف مخصصات عدد من نزلاء الفندق، بحجة السكر، وقد حصل ذلك في الأسبوع التالي لمغادرة الحكيم، فجّر الموقف، إذ بالإضافة الى «اعتقال» مبارك في الغرفة ٣٣٧، عُقد اجتماع في الصالة الخلفية، القريبة من المطعم، وقد حضر هذا الاجتماع معظم النزلاء، وتقرر فيه: عزل مبارك، وتسمية وفد لزيارة القصر ومقابلة السلطان، لعرض الموقف عليه، والإتفاق على صيغة جديدة.

حصل هذا في جو من الهياج والاضطراب، وقد امتزجت كلمات الغضب بنظرات التحدي، بالشتائم، الأمر الذي اضطر إدارة الفندق لاستدعاء البوليس والاتصال مع القصر.

قيل ان عدد القوات التي حاصرت الفندق، وهي من القوات الخاصة، يكفي لاحتلال ثكنة عسكرية محصنة؛ كما رافق القوات عدد من سيارات الإطفاء والإسعاف، وأقيم، غير بعيد من الفندق، مركز قيادة، أما الشوارع الثلاثة الموصلة للفندق فقد سدّتها سيارات الشرطة؛ أما سطح البنايات المجاورة فقد احتلها القناصة!

إنه واحد من الأيام القليلة الذي تتذكره بادن بادن، ومع الذكرى تتداخل العواطف والأفكار وتختلط. فمدير الفندق، الذي نقل اليه ما يجري في الطابق الثالث، وشهد، من بعيد، جزءاً من الاجتماع الصاخب في المقهى الخلفي، كان متيقناً أن عملية قتل جرت في الغرفة ٣٣٧. ومدير بوليس المدينة، نتيجة تقارير المخبرين، كان متأكداً من وجود كميات كبيرة من السلاح غير الشرعي، الذي قد يستعمل في أغراض خطرة، وحين أبلغ رؤساءه، واتصلت الخارجية بسفارة السلطنة ببون مستفسرة عن وجود سلاح، كان الجواب ملتبساً، ويحتمل أكثر من معنى، مما أكّد المعلومات السابقة! وقد فوّض مدير شرطة المدينة أن يتخذ الإجراءات المناسبة، «بأقل ما يمكن من الخسائر، وفي الوقت المناسب، مع أحكام المراقبة». والبارمان ورئيس المطعم أكدا، عندما سئلا، أن ثلاثة، على الأقل، من الوفد كانوا في حالة سكر ظاهر، وكان لهؤلاء دور فيما حصل قبل ظهيرة اليوم التالي.

وقصص مقابلة: أن مبارك لم يمتنع عن دفع المخصصات، وإنما أبلغ الذين راجعوه أن أحد المكلفين، مع مترجم، ذهب لإحضار الدراهم من البنك، وحالما يعود سوف يدفع لهم مخصصاتهم. قيل ان المترجم تاه في الازدحام، وضاع المكلف، ولم يستطع العودة للفندق إلا بعد الثالثة، وأثناء إخراج النزلاء بالقوة! وهناك من يؤكد أن المترجم مرتبط بالبوليس، وربما بالسفارة أيضاً. وأكد أحد الذين رووا القصة لزيد والهلالي، أن المترجم كان يسكر في الليلة السابقة مع الذين راجعوا مبارك بطلب المخصصات، فرفض استقبالهم وأغلق على نفسه الغرفة من الداخل.

ولا يعرف لماذا لم يعثر طيلة ذلك اليوم على هانس أورلخت، إذ لم يتصل، كعادته، ولم يمر، كما كان يفعل خلال يومين أو ثلاثة أيام من كل أسبوع، وذهبت كل المحاولات للإتصال به دون جدوى!

أما المترجم الذي حضر مع مفرزة الشرطة للقصر، فقد خلق من الارباك وسوء الفهم أكثر مما سهّل أو ساعد للوصول الى تفاهم أو الى حل، لأن لغته العربية كانت خليطاً من المفردات المالطية والشتائم، الأمر الذي اضطر زيد الى الانسحاب وإغلاق بوابة القصر، وقد تسبّب ذلك، في وقت لاحق، بمضاعفات عديدة.

وغير ذلك من الملابسات كثير. أما عندما وصل خمسة من نزلاء الفندق إلى القصر، وقد وصلوا بسيارتي أجرة، وبناء لاتفاق بين إدارة الفندق والبوليس، فكانوا في حالة من الاضطراب والخوف والفوضى، بحيث لم يستطع زيد أن يفهم عليهم إلا في وقت متأخر. أكثر من ذلك، ظن أن شيئاً حصل في موران، وليس في الفندق، وخلال لحظات كاد يتركهم ويهرع لإبلاغ السلطان، لكن خوفهم واضطرابهم سرى اليه، الأمر الذي اضطره الى الصراخ كالملسوع:

ـ يا عباد الله، اسكتوا. خلوا واحد منكم يتكلم، وخلنا نفهم شنهو اللي صاير بالدنيا.

ورغم أن الصمت ساء، وبدأ شعلان الشبل يروي ما رأى وما سمع، إلا أن تدخلات الآخرين وتصحيحهم لبعض الوقائع، خلق الفوضى من جديد. ومع ذلك، فهم زيد أن الأمر يتعلق بالسكر ومبارك وادارة الفندق. ضرب على فخذه بقوة وخرج صوته كالفحيح:

ـ فوق السكر وقله الدين، هالحين بلشتونا مع أولاد الحرام، اللي الواحد لا يقدر يصل معهم لا لحق ولا لباطل، مع الألمان؟

ونهض، دار في الغرفة، لا يعرف ماذا يفعل، وبعد قليل قال بحقد:

ـ الله يخزيكم كسرتم عرضنا ونكّستم عُقلنا.

قال سلطـان الفهيد، وهو أحد اقرباء عدلة غير البعيدين، وجاء للعلاج:

- إلزم حدك واحفظ لسانك يا زيد . . .

وبعد أن هدأ قليلاً، تغير صوته:

- الكلام اللي قلته تقوله لغيرنا، للمخطين وأصحاب الطلايب!

- يا عباد الله، تركناكم بهواكم. قلنا لأرواحنا: خلهم. لا شفنا ولا سمعنا.

ويعدها هذا اللي يطلع منكم؟

قال شعلان الشبل:

- يـا أبو راشـد حنا مـا علينـا، حنـا واسـطة خيـر، وهـالحين يلزمكم تلحقـوا جماعتكم هناك، لأنا تركنا الدنيا قايمة قاعدة، وما يندري شنهو اللي يصير.

ويدأ الركض ويدأت التلفونات. لكنه ركض العميان، وتلفونات باردة أقرب الى الموت.

قال صالح الهلالي للسلطان:

- . . . وأرى يـا صاحب الجـلالة أن تقـابلوا الحكومـة الالمانيـة، لأن الأمور وصلت الى حد لا يمكن معه السكوت . . .

وكاد يتابع، إلا أن ضحكة السلطان الحزينة، جعلته يتردد، قال زيد وخـرج صوته من بين أسنانه:

- لو ابن الحرام، الحكيم، سمع كلامنا، وظل هنـا، كان عـرف بشلون يـدبر الأمور، لكنه ما يبول على يد مجروح، وما هامّه إلا روحه.

سأل السلطان بطريقة مسكينة:

- وهالحين . . شنهو اللي راح تسوونه؟

- أصل، طال عمرك، المخفر، أنا وصالح، ونسوي اللي الله يقدرنا عليه!

قال السلطان لابنه مجلي:

- وأنت تظل ترقع بالتلفونات على سفير الزق، ابن السحيمان، الى أن تحصّله، وإذا حصلته، ما عليك، عطني، وأنا اتفاهم معه!

ذكر بعض الحرس، وأكد ذلك خادمان من خدم السلطان، أنهم لم يروا السلطان نزقاً مضطرباً مثلما كان ذلك اليوم. فما كاد زيد والهلالي يغادران القصر، وقد توجها، مع عدد من المرافقين، الى حيث ينزل المترجم الجديد، الغجري، حتى بدأ السلطان بالسؤال إن عادا ام لا. كان يفعل ذلك كل بضع دقائق. وقيل انه صرخ على احدى بناته بخشونة حين سألته إن كان يحتاج شيئاً. أما عدلة التي ظلت تدور، دون ان تجرؤ على سؤاله أو محادثته، فقد لجأت، مثل عادتها، الى روفة. قالت لها بهمس:

- إذا لاح سنه وضحك، لك مني رشادية!

وروفة التي تعرف كيف تضحك النسوة، بعيونها، بحركات وجهها، أو بتلك التوريات البذيئة، اقتربت من السلطان، متظاهرة بالإعياء وما يشبه المرض، فما كاد يراها تقترب هكذا حتى توقف. تطلع اليها وظل صامتاً. قالت برجاء:

- أريدك تسامحني يا طويل العمر، وما تخيّب رجاي...

ظل يتطلع دون أن يتكلم، تابعت:

- الله يفّك كربتنا ويرجعنا لديرتنا، وهناك، اذا الله يريد، يأخذ أمانته.

تضايق السلطان، زفر. هجمت عليه تريد تقبيل يده. رفض، قالت بانفعال:

- ما أريد أموت بهالديرة، يا طويل العمر. وأنا هالحين وجعانة، وجاني طيف قال لي: ما تشفين من علتك إلا اذا طويل العمر حط يده على راسك أو باس قصتك فاريد واحد من الاثنين، أو الاثنين جميع.

ضحك السلطان، لكن ضحكته كانت مسكينة، وكانت تثير الشفقة أكثر مما تولد الفرح. اقتربت منه. أمالت اليه رأسها، تاركة له الخيار أن يفعل ما يراه مناسباً. لمح في عينها مكراً، قال وهو يضع يده على رأسها:

- لو كنا بموران هالحين كان لقيت لك تكروني يسنّعك زين ويشفيك من أوجاعك كلها، يا بنت الحرام!

أما كيف تطورت الأمور بعد ذلك، فهناك عشرات الوقائع والتفاصيل المرهقة، والتي تختلط معاً إلى درجة لا يمكن معها معرفة الحقيقة. فالسفارة التي امتنعت عن الاجابة خلال الأيام الثلاثة الأولى، أصبحت المفاوض الوحيد، سواء مع بلدية المدينة أو مع السلطات الاتحادية. والبوليس الذي رفض أية مناقشة مع زيد الهريدي والهلالي، لإطلاق سراح اثنين وعشرين من الموقوفين، بتهمة حمل السلاح والتعدي على رجال الشرطة، إضافة الى المقاومة المسلحة، وحين الحّا، ورفع زيد صوته مهدداً، خُيّر بين الانصراف أو أن ينضم الى الموقوفين! أما كيف تغير موقف البوليس، بعد ذلك، فأصبح أكثر مرونة ووداً، بل وبلغ الأمر، في لحظات معينة، أن يمزح بعض الأفراد منهم مع زيد، فإن المترجم الذي جاء من بون ليس أكثر كفاءة من العنجري، لكن حصل شيء خلال ذلك!

وادارة الفندق التي رفضت استقبال الموقوفين، بأية صورة من الصور، ولو لليلة أو اثنتين، بحجة عدم وجود أماكن، واودعت حاجاتهم في مستودع الأمانات السفلي، خطت خطوة إضافية، إذ اشعرت الأخرين بضرورة البحث عن أماكن جديدة، « لأن الفندق سوف يغلق أبوابه بعد عشرة أيام للترميم! ».

واجراءات التسفير لعدد كبير من المرافقين والمرضى، وقسم من الحرس، بحجة انتهاء الإقامة الممنوحة بالتأشيرة، استطاعت السفارة، بعد جهد وانتظار، أن تجدد لعدد منهم، وان تتولى هي تأمين سفرهم، بدل عمليات الطرد والتسفير التي تهدّد بها السلطات الالمانية.

والى أن تتم عمليات التسفير نقل قسم كبير من هؤلاء الى شتوتغارت، ورغب آخرون أن يسافروا الى اسبانيا وانكلترا، على أن يواصلوا سفرهم بعد ذلك الى موران، عدا عن نقل الباقين الى القصر، ونصب خيمتين في الحديقة لأيوائهم.

وهانس اورلخت الذي غاب اليوم التالي بطوله، اتصل يوم الأربعاء، لكن لا ليساعد في حل المشاكل القائمة، وإنما ليضيف هماً جديداً: القصر. فصاحبه يطلب إخلاءه فوراً. وبعد مشاورات شاقة، تدخلت السفارة في احدى المراحل، تم الاتفاق على شرائه، وبشروط البائع، وبالسعر الذي طلبه. كانت عملية شاقة طويلة، أزعجت السلطان كثيراً، وقد فكر في أن يركب ويسافر فوراً الى موران، أياً كانت النتائج. إلا أن وصول مشعل، الابن الأكبر، وثلاث من نساء السلطان، غيّر في الموقف. إذ كانت معلومات مشعل وتقديراته أن الأمور بدأت تنضج. والانتظار، رغم كونه صعباً، لمدة شهرين أو ثلاثة شهور، سوف يؤدي الى تغييرات جوهرية، «ولمصلحة القضية»، كما قال، وهذا التقدير استناداً الى توصيات مشددة من عدد من الأعمام، أخوة السلطان، وأقرباء آخرين، إضافة الى رجاء، على شكل توسّل، من كبار قادة الجيش، خاصة الطيران وسلاح الحدود، والذين يعملون ليل نهار من أجل عودة السلطان وعودة الشرعية.

ومبارك الذي كان جلاداً وضحية، وقد أطلق سراحه من الغرفة ٣٣٧ خلال الدقائق الأولى لاقتحام الفندق، لم يعرف كيف يتم التعامل معه، أو الى أين يجب أن يرسل. قيل أنه طلب البقاء في الفندق، إلا أن الإدارة اغلقت الطابق الثالث بمجموعه، لإجراء إصلاحات عاجلة، ولم تجد له، بالمقابل، غرفة في أي من الطوابق السبعة الأخرى، رغم تدهور حالته النفسية، وكان بحاجة الى الراحة، وتبديل ملابسه، بعد الشي الذي حصل. وقيل ان البوليس اقترح نقله الى القصر، أو الى فندق آخر، لكن ظل الامر معلقاً أو قيل لا يراد حسمه، انتظاراً لتعليمات لاحقة، الى أن جاء بديوي المطلق في مساء اليوم ذاته وأخذه بسيارته إلى بون، وقيل ان ذلك تم بعد عدة مكالمات هاتفية!

ونساء السلطان اللواتي جئن الى بادن بادن: لقد فعلن ذلك بعد أن أبلغن، وبطرق خاصة، أن صحة السلطان خزعل تدهورت، وأنه طلب مجيئهن، وقيل لهن أشياء كثيرة أخرى! كما قيل لمشعل ان وجود مجلي وحده هناك يمكن أن يقطع الطريق عليه، ولذلك لا بد من سفره، خاصة أثناء إجراء ترتيبات معينة، في نقل الثروة وتقسيمها، وربما أمور تتعلق بالسلطة، أيضاً.

كان وصول الزوجات الثلاث مفاجأة للسلطان، وكذلك وصول مشعل.

وإذا كانت لكل واحدة من الثلاث اللواتي وصلن ميزة وموقع في قلب السلطان، إلا أن المفاجأة كانت أكبر من أن يستوعبها. ومثلما قيل لمشعل حول شؤون الثروة وولاية العهد ومنافسة الآخرين، فإن لدى الزوجات من الحوافز ما يفوق الرجال، في غالب الأحيان، وهذا ما قيل لهن بكل تأكيد.

طبيعي أن يخلق وصولهن، مع عدد من المرافقين والخدم، وعدد من الحرس أيضاً مشاكل لها علاقة بالإقامة، وبالآخرين، لكن السفارة كانت موجودة وجاهزة، فقد رتبت، مبكراً، الإقامة بالنسبة للجميع في فنادق خارج المدينة، أو في فيلات تم استئجارها بشكل عاجل. وقد تم اختيارها على مسافات مناسبة، بحيث تمكّن السلطان، لو أراد، أن ينتقل، دون مشقة، وأن تكون من الإتساع بحيث لا يشعر بصعوبة أو حرج لو أراد أن يقضي فيها يوماً أو اثنين!

كاد السلطان يتخوف ويرتاب من مجيء الجميع، إلا أن المعلومات التي وصلت، والعواطف التي حملت هذه الارهاط على القدوم، جعلته ينسى المصاعب، ويهجس بالاحتمالات، ويغرق في التفكير والحلم.

قال لزيد بعد أن تطامنت العاصفة، وبدأت المشاكل تجد الحلول:

ـ أخطينا يا زيد أنّا تركنا هالقرمبع كله بوجوهنا طول هذي المدة. لو تركناهم يرجعون لديرتهم، لأهلهم وعشيرتهم، كنا استرحنا واستراحوا، لكن البني

آدم أبد ما يتعلم.

رد زيد الذي لم يعد قادراً على استيعاب كل ما يجري حوله:

- ظني، يا طويل العمر، أن الحكيم، أبو غزوان، ما هو بعيد عن الشيء اللي صار.

- هذا رأيك يا زيد؟

- وظني يا طويل العمر أنه مع الالمان، أو وصلته تعليمات موران، وفنر بالخصوص، لأن الخويا اللي جوا من هناك يقولون ابنه، غزوان، يسرح ويمرح!

- بدّل، غيّر، يا ابن الحلال.

- هذا اللي سمعته يا طويل العمر، ويلزم أبلغك به.

أما صالح الهلالي فقد شغله تماماً أمر مبارك. هل يمكن أن يكون خدعه؟ هل يحتمل أن تكون مغادرته لبادن بادن نتيجة اضطرار أم حسب ترتيب مع جهة معينة؟

قال للسلطان حين سأله عنه:

- . . . والجماعة لما كظّوه، يا طويل العمر، أذّوه. وقالوا لي ان اثنين ضربوه ضرب كفار، وتفلوا بوجهه، وقالوا له: هذا المقدّم، أما المتأخر فالأحسن أن تشوفه بعينك، لا أن تسمعه بإذنك. . .

وبعد قليل، وبهمّ:

- والله العليم أنه خاف. قال لزوجه: ديار بعيدة وغريبة، وأخاف ما القى من يحميني ويدافع عني، والأخير اتوقّى، وجاه قريبه لقاه مستوي فجرّه مثل ما تنجّر الشعرة من العجين.

قال السلطان، وخرج صوته من أعماق صدره:

- الغايب عذره معه، خلنا نستخبر، وبعدها الله كريم.

ثلاثة شهور من السكينة والأحلام بعد الطريقة ـ وهذه تسمية السلطان نفسه خيمت على القصر في بادن بادن، وعلى الفيلات التي زارها السلطان خلال تلك الفترة. إذ بالإضافة الى الأخبار التي وصلت مع القادمين الجدد، وقد استقصاها جلالته بكثير من العناية والدقة، وقارنها بما سمع من قبل، وتأكد، فإن اثنين من اخوته وصلا بالتعاقب، مهيد ومزعل، وأكدا وأقسما، كل بطريقته، ندم فنر على ما حصل، وأنه بعد أن راجع نفسه، وراجعه الأخوة الآخرون، اعترف بخطئه، وأعلن أمامهم ندمه وتوبته، لكن يفضّل أن يتم التراجع عن الخطأ في بحر شهرين أو ثلاثة، « لئلا يشمت بنا الناس، ونطمع العدى » وكتعبير عن هذا التوجه، طلب تأمين راحة السلطان في المصيف، وتوفير كل ما يحتاج، كما طلب من الأولاد والأخوة القيام بزيارته والتماس العفو منه.

كان السلطان يسمع ويهز رأسه، وان ظل مع الأخوة، وعدد آخر من الزوار، مغلقاً متحفظاً، أقرب الى التكتم، لكنه لم يخف استعداده لتناسي الماضي، والبدء من جديد.

السفير الذي استغل وصول الأميرين، مهيد ومزعل، ورافقهما في الزيارة، وقع على رجليّ السلطان يريد أن يقبلهما، طالباً السماح والعفو، إلا أن السلطان قال له بحزم أقرب الى الخشونة:

ـ أنت يا ابن سحيمان عبد مأمور، ما لك ذنب وما عليك عتب، إلا كابن

عرب، لأن مهما صار بيني وبين الجماعة هناك فأنت غريب، ومالك لا ناقة ولا جمل، فيلزم تقول: مرحبا، شلونكم يا جماعة الخير؟ محتاجين شي؟

هز رأسه عدة مرات، وأضاف:

- هذا كان واجبك، ومع ذلك ما يخالف.

وتذرع ابن سحيمان بالسفر والانشغال، ثم أشار الى الجهود التي بذلها شخصياً مع الالمان، يوم الفندق، وبعد ذلك...

وختم حديثه بتوسل:

- ورغم كل اللي صار، يا طويل العمر، أعترف اني مقصّر ومحقوق، وعيب أقول أمامكم، يا طويل العمر، أني ما أنام الليل، وتحركت علّي كل الأمراض، وأتمنى اليوم اللي استعفي واخلص، لكن ما هو كل ما يتمناه المرء يدركه.

وكتعبير عن حسن النّية، والتوجه الجديد، استبقى السفير سيارته الرسمية في قصر بادن بادن، وسأل زيد الهريدي، بصوت عالٍ، يريد أن يسمعه السلطان، عن عدد السيارات التي تكفي لاستعمالات القصر وضيوفه، وما إذا يفضلون غير السيارات الالمانية. وسأل عن أية حاجات أو خدمات تستطيع أن تقدمها السفارة. وزيد الذي تطلع الى السلطان، ولم يجب، تولى الاجابة نيابة عن مجلي، لكن بدعابة، قال:

- سبحان مبدّل الأحوال...

قال السلطان ليقطع الطريق على أي احتكاك:

- يظل ابن سحيمان يرده حليبه، ما هو مثل الناس اللي ياكلون وينكرون...

وكاد يغضب، حين تذكّر الكثيرين، لكنّه أحجم، خوف أن يفشي ما انتواه بأن لا يظهر عليه إلاّ التسامح والرضا، الى أن يعود، فإذا وصل الى موران، الى ما كانه في الماضي، فإن الروس اللي راح تطير، والجماعة اللي راح

يجيفون بالحبوس لهم أول وما لهم تـالي: كل ابن حـرام ساعـد فنر؛ كـل من أيده؛ كل من قـال له: العـوافي، وزين ما سـويت، راح يصير أثـر بعد عين».
هكذا كان يقول السلطان لنفسه، في بعض اللحظات. وقالَ شيئاً مشابهاً لعدلة ولمجلي، لكن كـلامه كـان عاماً، لم يحدد اسمـاً ولم يحـدد وقتـاً. الآن في مواجهة ابن سحيمـان لا بد أن يبقى كبيـراً، فالسفيـر، في النهايـة، لا يتجاوز الموظف الذي يبلّغ رؤساءه كـلّ شيء، كجزء من الوظيفة وكتعبير عن الولاء.

مرت هذه الأفكار في رأسه، تابع وكأنه يخاطب نفسه:

- ومع ذلك، لكل حصان كبوة، ولكل سيف نبوة...

وضحك بصوت عالٍ. التفت الى الذين حوله، وقال بفخامة:

- وهذي مورانا صغيّرة يا جماعة الخير، ومهما حاول الـواحد أن يغيّـر أصله، أو يلْبس هدوم غيره، ترى ما يخفى. إذا ما بيّن أول يوم، ينكشف بـالثاني، وبعدها ما يقدر يرفع راسه، ولا يقدر يناظر الناس.

قال ابن سحيمان لينهي الموضوع:

- أهل السماح ملاح، وجل من لا يخطىء.

قال شايع السحيمي الذي ظل ساكتاً، على غير عادته، طوال الوقت:

- الغلط بـالميزان مـوجود، والخـطأ بالحسـاب مردود، بس غلط اللسـان أبـد ماينسى، والقلب إذا زاغ وانحرف ابد ما يعود مثل ما كان.

رد السلطان بمكر:

- يا أبو عـاهد، يلزمـك تعرف: حتى عليـه الصلاة والسـلام قال: «كنت قـد نهيتكم عن زيـارة القبور»، الى أن مـات، أو بالصحيـح الى أن قُتِـل عمـه حمزة، فما حمـل ولا قدر، فقال: «ألا فزوروها».

وتلفت السـلطان في الـوجوه ليـرى وقع كلمـاته، فلمـا وجد مـوافقـة وقبـولاً أضاف:

ـ العصمة ما تكون إلا لنبيّ ، وجلّ من لا يخطىء .

لم يقتصر الأمر على ذلك ، فإن موظفاً من الخارجية زار القصر ، ولم يكن زيد متأكداً ما إذا كان هو الموظف ذاته الذي جاء قبل بضعة شهور أم غيره ، لكن ما قاله في توضيح الاجراءات التي اتخذت ، تعتبر بمثابة اعتذار ، أو هذا ما فسره زيد والهلالي معاً ، وكان العنجري مترجماً . أما العنجري فقد فهم من الزيارة شيئاً آخر : كانت الخارجية الالمانية تريد أن تعرف الى متى سيبقى السلطان ، وعدد المرافقين ، وما إذا جلالته يطلب اللجوء السياسي . وأكد أن كل شيء قابل للبحث والدراسة على ضوء القوانين الالمانية . رد زيد بأن الجميع سيلتزمون بالنظام والقوانين ، « وأن كل شيء سيكون حسب رغبة الالمان » والسفارة مفوضة بالأمر ، واعتبر الزيارة اعتذاراً ، وقد وافقه الهلالي ، الذي قال معلقاً على هذه الزيارة :

ـ لما زرناهم : لا هلا ولا مرحبا ، وكأنهم ما يعرفون الناس . أما هالحين فوصلونا على رجليهم ، وما هو بَسْ كذا : سألوا وعرفوا ، وقالوا : نصلهم قبل ما يأخذون على خاطرهم ، فالله يكثّر خيرهم وعفا الله عما مضى .

حتى هانس أورلخت لم يعد يفارق القصر خلال هذه الفترة ، لم يقتصر الأمر على ذلك ، فقد جاء مرتين بصحبة المحامي . صحيح أنه في إحدى المرتين لم يكن من السهل إجراء أية محادثات ، لأن المترجم ، وكان ابن سلطان الفهيد ، ولم تمض على إقامته في المانيا سوى ثلاث سنين ، لم يكن « يعرف المصطلحات القانونية والاقتصادية » ، كما أوضح في تعليل عدم استمرار الترجمة بخصوص شراء القصر الثاني للسلطان ، في شمال المانيا ، عدا عن الأرقام التي حُددّت ثمناً للقصر ، وقد كتبها هانس بأرقام كبيرة ، بحيث أن الهلالي ، الذي قضى سنة ونصفاً ثمن في الولايات المتحدة ، بدورة تدريبية ، عرفها وهمس لزيد يبلغه عن القصر ! أمّا الزيارات الأخرى ، خاصة بعد أن فرض زيد على العنجري الإقامة في القصر ، «للضرورة» ثم « لأمرٍ سامٍ من السلطان » فقد كانت أسهل ، وتم الوصول الى نتائج بشأن القضايا التي كانت تطرح .

كتب يونس شاهين في يومياته عن تلك الفترة: « . . . ولم ينس عظمة السلطان، رغم كثرة مشاغله، تقصي أدق التفاصيل المتعلقةبأخيه المعزول. كان يتصل بالسفارة ببون يومياً، ويتحدث مطولاً مع السّفير والملحق العسكري؛ وكان أيضاً يتلقى تقارير ضافية من بعض مرافقي السلطان المخلوع، وكانت هذه التقارير تصل عبر قنوات متعددة.

« إن اهتمام السلطان ومتابعته بسبب الدقة، والظروف الخاصة المحيطة بعملية العزل، إذ كان يخشى رد الفعل، خاصة من قبل رجال القبائل والمشايخ، إضافة الى أفراد العائلة السلطانية.

«أما عندما أبلغ جلالته الأمير مجحم أن الدكتور محملجي أصبح ثانوياً فلم يصدق. بدا فرحاً مثل طفل، وقال كلمة لا بد من تسجيلها: يجب أن يغادر، أن لا يبقى الى جانبه، لأن معظم الآخرين لا يستطيعون شيئاً إذا غاب.

«أما بعد أن غادر نهائياً، وبعد أن طلق السلطان ابنته، فقد قال كلمة انتشرت بين رجال الحاشية،قال جلالته: «النصف الصعب انتهى، أما النصف السهل فهذا الزمن كفيل به». ولذلك أوعز إلى عدد من الأخوة، وإلى السفارة في بون، وإلى أصدقاء السلطان المخلوع، أن يجعلوه يعيش على الأمل، على الوعود، فترة بعد أخرى، فإذا انقضت شهور ويصبح خبراً بعد أثر. . .».

أول صدمة وقعت حين صدرت عن السلطات الألمانية إشارة أن « الهلالي شخص غير مرغوب فيه بالمانيا » جاء هذا البلاغ عن طريق هانس أورلخت، وقد نقله لزيد، استناداً الى أقوال المحامي، الذي بُلّغ عن طريق السلطات المحلية، بعد انتهاء التحقيق بموضوع الفندق، والسلاح غير المرخص الذي عثر عليه لدى عدد من الموقوفين، فقد اعترف الكثيرون « أنه سُلّم اليهم من قبل صالح الهلالي ». وزيد الذي فوجىء وارتبك، لم يعرف هل يلجأ الى السفارة لمعالجة الموضوع أو الى السلطان، وظل حائراً ثلاثة أيام، باعتبار أن ابن السحيمان غادر الى فرانكفورت لحضور معرض زراعي. أما حين جاء

مفوض من قبل المحكمة، لإبلاغ صالح الهلالي ضرورة مثوله أمام قاضي التحقيق للرد على التهم المنسوبة اليه، فقد كان رد القصر، ثم الاتفاق على الرد بين زيد والهلالي، « أنه غير موجود حالياً ويجب الانتظار».

لو أن الأمر اقتصر على مجرد استدعاء الهلالي لوجد له حل بالاتفاق مع هانس والمحامي. لكنه تجاوز ذلك الى ضرورة تقديم صور شمسية لجميع النساء المرافقات للسلطان، بدءاً من عدلة وانتهاء بأصغر خادمة.

لقد أثار هذا الأمر قلقاً حقيقياً. فالنساء اللواتي وصلن الى المانيا، وصلن بجوازات لا تحمل أية صور فتوغرافية، إذ كتب مكان الصورة: « سيدة محجبة » ووافقت سلطات المطار والحدود على استقبال هاته النسوة، فما معنى أن تطلب صورهن الآن؟

اتصل زيد عدة مرات بالسفارة لمعالجة الأمر، فكان رد نائب القنصل، بديوي المطلق، « أن الصور ضرورية، وليس هناك بديل عنها: لا صور الأزواج، ولا صور الأخوة، والغريب أن السلطات الالمانية تساهلت في دخول النسوة دون صور فتوغرافية ».

ماذا يستطيع أن يفعل زيد؟ وما هو رد فعل السلطان، خاصة في مثل هذه الظروف؟ وماذا لو امتنع عن التجاوب مع السلطات الالمانية والاستجابة لمثل هذا الطلب؟

قال زيد لهانس، عن طريق المترجم:

- . . . ويلزمهم يعرفون: حريمنا كذا، وحنا راضين.

فأكد له هانس أن أمراً كهذا لا يمكن أن تسمح به المانيا، ولا بد من الإستجابة الى مثل هذا الطلب العادي والمشروع. وحين يؤكد له زيد استحالة الأمر، يسأله، أو يتساءل: كيف يفسر إذن أن بنات السلطات وزوجاته ينزلن الى الأسواق بوجوه سافرة؟ وكيف أن نزلاء الفندق يلتقون بهن في المقهى والمطعم، وفي برك السباحة أيضاً، ولا يشكل ذلك حرجاً بالنسبة لهن،

ويمتنعن في نفس الوقت عن تقديم مجرد صور للوجه؟

والسلطات الالمانية إذا كانت تتساهل فإنها لا تنسى.

قال المحامي الذي جاء الى القصر مع هانس، وكان العنجري يترجم:

- ... ولا بد أن يعرف صاحب الجلالة، وجميع مساعديه، أن المحامي لا يستطيع أي شيء، إذا لم يتعاون معه موكله...

وحين بدا كلامه، رغم بداهته، غير مفهوم، أضاف بحزم:

- الأفضل لصاحب الجلالة، ولجميع المرافقين، أن يتعاونوا مع السلطات، لأن هذه السلطات تعرف كل شيء.

وخفّض المحامي صوته، وكأنه يبوح بسرّ الى المترجم، فأكّد أن السلطات الالمانية تعرف بوجود صالح الهلالي، وبسهرات عدد من نساء القصر، وعلى صلة بموضوعات أخرى...

قال الكلمات الأخيرة وابتسم، وبعد أن هز رأسه عدة مرات أضاف:

- لا حاجة لأن تذهب كل مسألة الى المحاكم، وان يصدر بشأنها حكم، لأنها إذا وصلت الى المحاكم تنتشر، ويمكن أن تضر بسمعة السلطان، وقد تصل الى موران، الى الطرف الآخر، أيضاً!

الأمور التي كان يراد إخفاؤها عن السلطان، كانت تصله قبل غيرها. إذا لم يسأل عنها بنفسه، خاصة بعد أن أصبح يقضي ساعات طويلة في «المنظرة»، وهي عبارة عن غرفة نصف دائرية تشكل بروزاً في القصر، وتشبه برج المراقبة في قلاع القصور الوسطى، كان من هناك يرى الداخلين الى القصر والخارجين منه، فإذا جاء غريب، أو رأى شيئاً غير عادي، فلا بد أن يسأل عنه، اللهم إلا إذا شغله أمر آخر. أما الأشياء التي لا ترى مباشرة فهناك الخدم والنساء، ثم زيد أو حد المرافقين، لا بد أن ينقله اليه، حتى من خلال الصمت، أو تبدل الملامح واختلاف السلوك.

حين يطول صمت زيد، أو تضطرب حركاته، يدرك السلطان أن وراءه شيئاً يريد أن يقوله، فيسأله بسخرية:

ـ لما كان خوينا موجود، ويصم حلقه ويسكت، كنت تقول: سبت. وهالحين أشوفك أنت السابت؛ وراك سبالفة؟

وبعد تردد، وفي محاولة غير جادة للهروب، يعترف زيد. يقول كل ما عنده.

حين طُلبت الصور الشمسية، واحتار زيد بأمرها بعد أن تلقى ذلك الجواب من بديوي المطلق، لم يجد مفراً من مفاتحة السلطان.

صمت السلطان، أطرق مفكراً، حتى ظن زيد أن ليس لديه ما يقوله حول الموضوع، وكاد يبحث موضوعاً آخر، الى أن جاءه الصوت المثقل والمستسلم:

ـ إذا كان هذا طلبهم ما يخالف، وأنت تعرف: الضيف أسير المعزّب!

وبعد مناقشات تفصيلية تم الاتفاق على إحضار مصوّر إلى القصر، لكي يقوم بتصوير النساء.

انه يوم مشهود من أيام قصر بادن بادن، إذ بعد أن تعذر العثور على ذلك المصور الذي ينتقل بكمراته وأدواته الى القصر، جيء بواحد من شتوتغارت. جاء به هانس. كان مسناً، أبيض الشعر، وكأنه أفلت باعجوبة من القرن السابق، ولم يفطن أحد اليه وهو يتسلل خلسة الى هذا القرن. كان قصيراً، وفي رجله اليسرى عرج خفيف يحاول إخفاءه من خلال الحذاء الخاص الذي صنعه لهذه القدم.

لم يبق أحد إلا وانشغل، بشكل ما، بهذا الرجل وأدواته. حتى السلطان الذي راقب جزءاً من المشهد من « المنظرة » وبدا له طريفاً، من خلال حركاته، وتجمّع الصغار والكبار حوله، وقد نصب آلاته في الحديقة، وكان

مثل الساحر يدخل في غرفة الحرس لكي يهيّء أفلامه، ثم يُدخل رأسه في الكيس الأسود، وبعد أن يطمئن، ولكي لا يضطر لإعادة الصورة، بدأ بالكبار، لكن التجارب الأولى كانت فاشلة تماماً، لأن الحركات والأصوات التي تصدر عن الآخرين، تجعل الجالس للتصوير يلتفت، يضحك، يغير في وضعيته، مما اضطر زيد للتدخل عدة مرات.

في مرحلة لاحقة نزل السلطان. كان في ثوب منزلي أبيض بسيط، ورغم أن هانس ملأ رأس المصور، خلال الرحلة من شتوتغارت الى بادن بادن، بأهمية الشخصيات التي سيقوم بتصويرها، واستجاب المصور لانفعالات هانس فذكر أنه قام بتصوير عدد كبير من الأشخاص المهمين، وأنه يحتفظ بهذه الصور ويفخر بها، فقد كان خلال الفترة الأولى لوصوله الى القصر متهيباً، أقرب الى الخوف، لكن حين بدأت أفواج الصغار والكبار تتقاطر، لم يصدق عينيه، تساءل أي نوع من الأسر المالكة هذه؟ ولماذا يبدو أفرادها هكذا؟ وهل هم حقيقة مثلما ذكر هانس؟

وشيئاً فشيئاً بدأ يألف الوجوه والملابس. وحين بدأ بتصوير الصغار، ولكي يثبّت أنظارهم على فتحة الكاميرا، بدأ يشير الى العدسة، الى أن قال العنجري لأحد الصغار: «عصفور. عصفور، ناظر هنا وراح تشوف العصفور» وبعد أن ثبت الصغير عينيه حيث أشار العنجري، اعتبرت هذه الطريقة وحدها الكفيلة بالتقاط صور مناسبة، وهكذا أخذ يلتفت المصور الى العنجري، ويقول له: «آسور. آسور»، مع كل صورة جديدة!

عندما بدأ يلتقط صور النساء، طُلب من الحرس أن يبتعدوا، لكن أفراد الأسرة والمقربين كانوا وحدهم كافين لإفشال عشرات الصور. مجرد أن يضع المصور يده على كتف، أو يعدل خد سيدة من السيدات، حتى يبدأ الضحك والتعليقات، وبعض الأحيان الصفير. أما حين وضع يديه على ساقي روفة لكي يعدل جلستها على الكرسي، فقد بلغت الفوضى ذروتها. وفي تلك الأثناء، وصل السلطان، ورغم أن الكثيرين شديدو التحفظ، وحتى الخوف،

بحضوره، إلا أن تعليقات زوفة البذيئة وشتائمها « على هذا المقرود المفرود » لم تترك أحداً إلا وضحك وقهقه، بمن فيهم السلطان، وكذلك الحرس البعيدون!

ورغم أن عمليات التصوير استغرقت ساعات طويلة، إذ أخذت صور للحرس أيضاً، فقد ظل المصور مشوقاً لرؤية الملك الكبير، وحين أشار هانس، ببعض التحفظ، للرجل الطويل ذي الثوب الأبيض، رد عليه المصور:

ـ يمكن أن تقول هذا الكلام لمصور مبتدىء، وليس لواحد مثلي يمتلىء بيته بصور كبار الشخصيات التاريخية!

أنه يوم حافل ظل الكثيرون، بل الجميع، يتذكرونه، حتى بعد المآسي التي وقعت في وقت لاحق.

وإذا كان التقاط الصور السبب لاجتماع هذا العدد من أفراد الأسرة، الكبار والصغار، إضافة الى الخدم والمرافقين، فإن مجرد اجتماعهم، وقد اعتبره السلطان مناسبة لتصفية القلوب، فإن الابتسامات التي تبادلها الجميع فيما بينهم، أو أمام الكاميرا أو حولها، لم تخف الأحقاد والضغائن. وما لم يقله السادة قاله الخدم، والشيء الذي لم يُقل أثناء اللقاء قيل بعده.

فعدلة التي كانت مضيفة عذبة، وهي تنتقل بين أجنحة القصر وردهاته، توزع ابتساماتها ولطفها على الكثيرين، لأنها في بيتها وواثقة تماماً، بعد أن قضت على آخر المنافسات، ولم تتردد في أن تظهرمكشوفة الوجع، كما لم يعترض السلطان، خاصة بعد أن قالت روفة بصوت عالٍ، ولم يبق أحد إلا وسمع:

ـ إذا الكفار شافونا فارعات دارعات فأهل دينّا أولى!

وفي هذه الزيارة، التي لم تستغرق سوى يوم واحد، قارنت كل زوجة من

زوجات السلطان وضعها بوضع عدلة، هنـا وهناك، وفعلت ذلـك كل خـادمة، وبتدقيق أكبر، لكي تنقل لسيدتهـا، فيما بعـد، ما لـم تـره السيدة، ولكي تسـرّ اليها أيضـاً بـأحاديث كثيرة ومتنوعة سمعتها من الخادمات والماشطات.

تمنت كل واحدة من زوجات السلطان في أن تكون الأجمل والأرق والأقرب الى القلب، وإذا كان لموران قـانونهـا الخفي، حيث تعرف كـل واحدة ليلتهـا ودورها ومتى يشتهي زيارتها السلطان، خلافاً للمواعيـد، « فهذه البـلاد القشرة مقطع، وما يقدر أحد يحصل منها لا خيـر ولا شر » ولـذلك انهـارت الهدنـة، لتبدأ الحرب من جـديد. صحيـح أنها، هنـا، من بعيد، على شكـل غارات، وحين تحين الفرص، لكنها بدأت تؤثر. إذ مـا يكاد السـلطان يصـل واحدة من الثلاث اللواتي وصلن، حتى تطبق عليه كالعنكبوت. كـان السلطان، في أحيان كثيـرة، يستجيب، يستسلم، لأنه يفضـل أن يبقى حيث هو، ويفضـل أكثر من ذلك أن ينسى ويغيب.

ولأن الظرف استثنائي الى أقصى حد، ورغم التكتم، فقد كانت كل واحدة قادرة على استخراجه من مخبئه: الأخبار الجديدة، رسـائل عاجلة، أسـرار لا تقال إلا لطويل العمر.

عـدلة التي كـانت واثقة مـا لبثت أن اهتزت ثقتهـا. أمـا مجلي الـذي كـان يخطط لغزو موران، ويبحث عدة مشاريع مع أبيه لاقتحـام الحدود، فبـدأ يجد أباه أقل استعداداً لأحاديث من هذا النوع. عزا الأمر، في البداية، الى الأخبار الجـديدة التي حملها مشعل والذين جـاءوا، وعزاهـا في وقت لاحق الى وعود مهيد ومزعـل، لكن في وقت متأخـر اكتشف أن نسوة أبيـه الثلاث لا يقلّن عن القوى الأخرى الكثيرة المتربصة!

ولأن مجلي هو آمر الصرف، والثروة، أو القسم الأكبر منها، بين يديه، فقد بدأ يستخدمها كوسيلة ضغط. بدأ يعطي ويمنع، وإذا لم يمنع تماماً، لا يعطي ما هو المطلوب، أو في الوقت المناسب.

والنساء ومن معهن من الأقرباء والخدم، إذا كانوا قادرين على التحمل والصبر هناك، فإنهم هنا طيور مقصوصة الأجنحة، سمك أُخرج من الماء، ولذلك فإن أصغر القضايا، بما في ذلك بنزين السيارة، أصبح يصل الى السلطان، ويفترض فيه أن يعالجه، . ومجلي الذي يلقي اللوم على المساعدين، وعلى عطلة البنوك الطويلة، ولغياب المترجمين، يعطي من جديد، « ومن مصروفه » كما يقول. لكن لا تكاد تنتهي مشكلة حتى تبدأ اخرى. وفي الغربة، ومهما كانت المشكلة صغيرة، فإنها تصبح همّاً ثقيلاً، لا يمكن أن تُنسى أو أن تؤجل!

زيد الذي كان يستطيع أن يفعل أي شيء هناك، وتجرأ وجلد عدداً من نزلاء الفندق في باحة القصر، هنا، ويبدا واثقاً حين أجبر الحكيم على الرحيل، وجد نفسه، فجأة، غير قادر على التصرف أو التقرير. قال لصالح الهلالي:

- صدري ضاق بهالديرة القشرة يا صالح: لا لقمة هنية ولا نومة رضية، وما هو بس كذا، روسنا مطلوبة، إذا ما هو من جماعتنا العربان، فمن أولاد الحرام الالمان، فما تقول لي شلون راح نخلص؟

وصالح الذي كان كالديك خلال الفترة السابقة، أصبح في المرحلة الجديدة ضائعاً خائفاً، فهو لا يريد أن يُسلَّم الى موران، مهما كانت الظروف، لأن فنر إذا نسي أحداً، أو عفا عن أحد، فلن يكون، أبداً، صالح الهلالي واحداً ممن ينساهم أو يعفو عنهم، لأنه نقل لحمّاد المطوع ثلاث مرات ما سمعه من قطمة، خادمة موضي، وكانت تربطه بها علاقة قرابة، وقيل انه كان يريد أن يتزوجها لولا اعتراض الأمير فنر. الآن، وقد أصبح حماد اليد اليمنى لفنر، ويتذكر ما قاله عن محاولة اغتيال السلطان خزعل، وكان ضمن الذين اشتركوا في المحاولة ثلاثة من رجال فنر، فلا بد أن يندفع الثمن، ولا بد أن يتذكره أحد الأطراف الثلاثة: فنر، أو حماد، أولئك الذين قضوا سنوات في السجن بهذه التهمة.

قال صالح الهلالي بيأس:

ـ مهما قلنا عن الجماعة هنا، يا أبو راشد، يظلوا أرحم من جماعتنا.

ـ وإذا كظّوك وسفّروك يا صالح؟

ـ أرمي نفسي من الطيارة، وبيدي لا بيدك يا عمرو، لأن الموتة عن طريقهم ما تنراد، يا أبو راشد.

ـ من رأيي يا صالح أن تقول لطويل العمر: نريد أهلنا أو يلقي لنا بنت حلال من هنا من هنا!

ـ ويا وّل حنا الخوف قطّع ركبنا، وأنت تريد تعرّس؟

ـ ما ينسّي الخوف، يا صالح، إلا العرس. . .

وبعد قليل وهو يضحك:

ـ وما تشوف طويل العمر نسي كل شيء، وما تلقاه هالحين إلا يحوّس من واحدة للثانية؟

ـ يا ابن الحلال خلنا، هالحين، بهمنا، وعسى أن الله ينسّي الالمان، ويخلّصنا.

بعد يوم من هذا الحديث اتصل السكرتير الأول من سفارة السلطنة بصالح الهلالي، وأبلغه أن السفارة تلقت مذكرة تطلب تسليم صالح، للمثول أمام قاضي التحقيق، والإجابة عن التهم الموجهة اليه. كان السكرتير مؤدباً، لكنه دون عواطف، أو هذا ما قدره صالح. وحين بدأ يناقشه فيما إذا كانت هناك حلول اخرى، وماذا يترتب على نتائج التحقيق قال السكرتير ببرودة وحياد:

ـ إذا ثبتت التهمة فالنتيجة أحد أمرين: السجن أو التسفير.

رد صالح بتوسل:

ـ غيّر، بدّل، يا ابن الحلال. . .

وكاد يتابع، إلا أن الرد جاءه سريعاً:

ـ فكّر بالموضوع، وحنا نفكر، ونتصل بك باكر أو اللي عقبه، ونتداانش.

قال شايع السحيمي لصالح الذي جاءه متوسلاً طالباً مساعدته:

ـ بردان طاح على متلحف ردونه.

وضحك بسخرية وتابع:

ـ لو كنا بموران، يا صالح كان حميتك ببطن عيني، لكن هنا مثل ما تشوف: العين بصيرة واليد قصيرة، فخلنا نشوف طويل العمر ونسولفه، وناخذ رأيه، يجوز أنه يدز ورا ابن سحيمان ويكلّفه ويقول له.

في اليوم التالي كانت الفتوى عند العنجري، المترجم. قال لصالح:

ـ ... وحسب القوانين الالمانية، فإن قصر صاحب الجلالة السلطان، جزء من أرض السلطنة، ولا يمكن لأية قوة أن تقتحمه عنوة، أو أن تلقي القبض على أي فرد ما دام في رحاب القصر، لأن هذا مخالف للقوانين الدولية والأعراف الدستورية والحصانة الدبلوماسية...

وكاد يتابع، إلا أن شايع السحيمي رد بسخرية:

ـ يا وليدي على مهلك، فهذا الكلام إذا ينقال بالمدارس، أو ينكتب بالجرايد، أو إذا علموكم كذا، أو قريته بكتاب، فانساه، وخلنا ندور درب ثاني.

وفي نفس اليوم أيضاً اتصل البيكرتير الأول. كان أكثر وداً من الأمس، وبعد ما سأل صالح إذا توصل الى حل، قال له ان لديه صديقاً يريد أن يكلمه. كان في الطرف الآخر مبارك المونع!

من خلال كلمات متباعدة، لكن لا ينقصها الوضوح، أبلغه أن «قضيته رغم صعوبتها ورقتها، فالأخوان قادرون على المساعدة» وابلغه أيضاً أن قريبه، بديوي، يمكن أن يكون بتصرفه ويأتيه الى بادن بادن.

كان صالح الهلالي ممتناً وشاكراً الى أقصى حد. قال كلمات كبيرة، ربما لا يعنيها، لكن أفلتت منه هكذا، تعبيراً عن الفرح. وتم الاتفاق على اتصال لاحق خلال بضعة أيام « والى أن يرتبوا الجماعة كل شيء ويضبطوها زين ».

ومثل أمطار الصيف التي تأتي فجأة وعلى غير توقع، استيقظ القصر على مفاجأة كادت تهد أركانه:

فالسلطان الذي بقي ممسكاً بورقة أساسية، يمكن أن يستعملها في اللحظة الأخيرة، وفي الوقت الذي لا يجد حلاً آخر، اكتشف، فجأة، أنه فقد هذه الورقة.

فالطائرة الخاصة التي أقلته من موران، والتي كانت جاثمة في مطار شتوتغارت ، لم تغادره إلا في جولات قصيرة فوق المطار وحوله، وكان يعتبرها مثل فرسه أو ناقته، يمكن أن يمتطيها عندما تضيق به الأمور ويهبط في موران، أبلغ السلطان أن الطائرة لم تغادر المطار فقط وإنما وصلت الى موران أيضاً. ولقد غادر على متنها، بالإضافة الى ملاحيها، عدد من نزلاء الفندق، وكان ضمنهم مبارك المرينع.

قيل ان الخبر كتم عن السلطان ثلاثة أيام. ورفض كل من مشعل ومجلي أن يقوم أي منهما بإبلاغه، رغم توسلات زيد والهلالي. وقيل أن مجلي أبلغ أمه في اليوم الثالث لتقوم هي بنقل الخبر للسلطان، فكان رد عدلة:

ـ أذا الملك كله طار، وما حكيت ولا شكيت، هالحين تريد مني يا وليدي أقول له: والطيارة طارت بعد؟

وظهرت على وجهها علامات الحزن والاستغراب.

بعد أن تركها مجلي حائراً، قالت لروفة:

ـ روفة، يا مسخّمة، يقولون الطيارة طارت...

ـ الطيارة طارت؟

ـ ووصلت موران.

ـ وبعد؟

ـ ما أدري!

ـ وأنا ما أدري يا عمتي!

وبعد صمت، سألت عدلة من جديد:

ـ نقول له أو ما نقول؟

ـ شبهو يا عمتي؟

ـ الطيارة طارت ووصلت موران.

ـ إذا طارت ووصلت سلامات فهذي بشارة يا عمتي.

ونبشر طويل العمر؟

ـ وليش ما نبشره ونقول له: الطيارة طارت ووصلت موران بالخير والسلامة؟

ـ الله لا يسلّم عظمك يا بنت الحرام!

وبعد أن فهمت روفة، وبصعوبة، أن الطائرة التي كانت تنتظر السلطان، غادرت، قالت وكأنها تكلم نفسها:

ـ أثاري الطيارات مثل الأباعرَ تهجّ إذا عافت، فالله يسترنا بعد هجيجها.

وبعد قليل:

ـ من رأيي، يا عمتي، ما دام أنّا ما شفنا، ما نحكي ولا نقول!

وهكذا قررت عدلة أن لا تقوم بمهمة إبلاغ السلطان.

قيل ان زيد، وهو يبلغ السلطان، كان يرتجف. وأكد الساقي وواحد من الحرس أن السلطان حين سمع بالخبر تهدل فكاه وكاد يقع. وبعد أن استوضح واستوعب ما حصل هاج مثل ثور، وأكد الاثنان أنه لطم زيد وصرخ في وجهه:

ـ أغرب عن وجهي يا غراب البين!

واسرّت عدلة لمجلي في اليوم التالي أن السلطان أغلق على نفسه الجناح، ورفض الأكل، ورفض استقبال أحد، رغم جميع المحاولات التي بذلتها. وقد سمعت، خلال الليل المتأخر، بكاءه أقرب الى النشيج، وأظهرت ندمها لأنها لم تقدّر أن الأمر مهم إلى هذه الدرجة، وإلا لحاولت إبلاغه بنفسها، ولوجدت الطريقة المناسبة.

استمر الأمر هكذا حتى عصر اليوم التالي. وخلال ذلك بُذلت محاولات عديدة، شارك فيها الكثيرون. تناوب على باب الجناح عدلة ومجلي ومشعل، وشارك شايع والهلالي، واشتركت روفة أيضاً، وبالتوسل والرجاء، وبحرق البخور ورش الماء، وبقراءة بعض الأدعية التي تطرد الجن والعفاريت، وافق السلطان أخيراً على فتح الباب.

قالت غزيلة، المتخصصة بتفريك رجلي السلطان، انها أنكرته تماماً حين رأته. كان شاحباً الى درجة المرض، وكان يستند الى حافة الباب لكي لا يقع. وأكدت أنه ظل واقفاً هكذا وقتاً غير قصير، لا يتقدم ولا يفسح المجال لدخول الذين يقفون في وجه الباب. وظل صامتاً أيضاً، لا يجيب عن الأسئلة التي توجّه اليه.

وأيدت زينة، الماشطة، ما قالته غزيلة، وأضافت أن السلطان كان يبكي بصمت، وكان الذين يقفون حوله يبكون. فعلوا ذلك دون ارادة، ولم يستطيعوا منع أنفسهم من النشيج في بعض اللحظات، إلى أن مشوا جميعهم إلى القاعة الكبيرة في الطابق العلوي، وهناك غرقوا في الصمت. وأكدت أنهم ظلوا كذلك حتى بعد أن هبط الظلام، ولم يجد أحدهم لديه الرغبة أو الارادة لإشعال النور.

شايع أسّر لصالح الهلالي في اليوم التالي أن السلطان لم يفتح الباب نتيجة إلحاح الذين يدقون ويتوسلون، وليس بفعل الأدعية والبخور، وإنما « لأن ما

عنده من بول إبليس خلص، ففتحه ولقانا بوجهه. ويجوز، إذا الله ما كذبني، ان الجوع قتله، وراد شي يتبلغ به».

أما كيف سارت الأمور بعد ذلك، فإنها تشبه إلى حد كبير ما حصل بعد أن بلغه نبأ العزل. اعتكف في جناحه الخاص، لا يراه ولا يزوره إلا خاصته، لم يغادر الجناح إلى الحديقة أو المنظرة إلا بعد أسابيع. وكان أغلب الوقت صامتاً مطرقاً.

ومثلما تصرفت السفارة في المرة السابقة، ومثلما تصرف السفير، حصل هذه المرة أيضاً. فالسفارة التي أبدت استغرابها لما حصل، وأسفها، عندما اتصل زيد بالسكرتير الأول، نظراً لوجود السفير في موران، لأنه استدعي للتشاور، ولا يعرف وقت عودته، فإنها التزمت الصمت والتجاهل. أما حين وصلت صحف موران، وفي أحد أعدادها مقابلة طويلة مع قائد الطائرة ومساعديه، فقد انفعل مجلي الى أقصى حد، فشتم وهدد، وأحس «أن المؤامرة مستمرة»، كما قال لمشعل ولزيد والهلالي، واتفقوا ألا يطلع السلطان على هذه المقابلة، وألا يرد ذكر لها أبداً!

وغرق قصر بادن بادن، وغرقت الفيلات الثلاث، بالصمت.

من جملة الامور التي أعقبت الزيارتين اللتين قام بهما الاميران مهيد ومزعل، وكتعبير عن المودة تجاه السلطان خزعل، وربما نتيجة الأحاديث العرضية التي تطرق إليها الأخوة، فقد وصلت الى بادن بادن كوكبة من الخيول العربية الأصيلة: اثنان هدية من فنر، واثنان هدية من مهيد ومزعل، وثلاثة من إسطبل قصر الخالدية، وقد ذكرهم السلطان خزعل بالاسم اثناء الزيارة، وأشاد بمزايا هذه الخيول وشوقه إليها.

وصلت الخيول بعد اسبوعين او ثلاثة أسابيع من زيارة مهيد، لكن الإجراءات الصحية والحجر أخرت وصولها الى القصر، وربما كان هذا التأخير عاملاً إيجابياً، إذ اتاح الفرصة الكافية لأعداد مكان لاستقبالها، والاتفاق مع احد السواس المشهورين في جنوب المانيا للإشراف عليها، خاصة في الفترة الاولى، ريثما تتكيف مع الجو الجديد، والى حين تسمية واحد او اثنين من الحرس للعناية بها.

لم يكن تأخر وصولها إذن الى القصر ليسبب ازعاجاً للسلطان، الامر الذي لا يمكن التسامح فيه أو قبوله، لولا الحالة النفسية المسيطرة، إذ بالإضافة الى الآمال الكبيرة التي أعقبت الزيارة، والأخبار التي جاءت مع القادمين الجدد، فإن السلطان كان بشوق الى زوجاته وأبنائه، وقد شغله هؤلاء خلال الفترة التي تم فيها اعداد الاسطبل. كما لمس أيضاً مقدار المودة والندم معاً في سلوك فنر. صحيح انه لن يغفر له، ولن يتهاون في محاسبة كل من له علاقة، لكن سيأتي يوم، سيأتي بالتأكيد، يتصالح الاخوة، وتعود المياه الى مجاريها، كما يقولون،

بعد أن يتم التراجع والاعتذار، وبعد أن ينزل العقاب بالمستشارين ورفاق السوء الذين أغروا فنر بأن يعمل ما عمل.

كان يوم وصول الخيول إلى القصر مشهوداً وجليلاً: فالسلطان ذاته كان في استقبالها، وكاد بعض الحرس يطلق النار حين امتطى جلالته غصن البان، وهو واحد من الخيول التي يعتز بها السلطان، وكثيراً ما جرّ الحديث نحو الخيل، لكي يتاح له، وللمقربين منه، التحدث عن غصن البان بشكل خاص. كاد الحرس يطلقون النار، لولا الصرخة الزاجرة من زيد، ثم التنبيهات المشددة من صالح الهلالي. قال لهم صالح بحزن وحزم معاً:

- إحرصوا، فالطلايب الموجودة بيننا وبين الالمان تكفي وزود، وما نريد دوشه ووجع راس.

أما حين تفقد جلالته كل واحد من الخيول، وقد فعل ذلك بعناية لافتة للنظر، فلم يبق احد الا وتأكد من معرفته اولاً، ومن تعلقه بها، بعد ذلك.

ومع ان الخيول الاصيلة لا تخفي نفسها ولا تخفى، فقد تأكد السلطان من هيئاتها، وجمالها، وحتى من اعمارها، إذ فتح أفواهها، وتطلع بإمعان، الا انه شعر بأسى بعدم توافر معلومات بالمقدار الكافي عنها. فالرجال الذين جلبوها كانوا مجرد حراس عليها أكثر مما كانوا سواساً، أو ملمين بتواريخ الآباء والامهات، كم عاشت، وكم خلفت، ومن يملك مثيلاتها. وشعر بأسى اكبر انه ليس في موران. لو كان هناك لوجد الكثيرين الذين يمكن أن يقدموا معلومات وافرة ونافعة، ولا تخلو، بالتأكيد، من الطرافة ايضاً، أما هنا، فإن الحديث لن يمتد ولن يطول، وسوف يعود الرجال، بسرعة، الى همومهم، والى ما هم فيه من الرتابة والضجر. حتى السلطان نفسه، ورغم غبطته بهدية الاخوة، فإنه لم يشعر بالتألق كما كان يحصل هناك، وإزاء هدايا اقل اهمية من هذه الهدية.

السلطان، بعد أن روى، ربما للمرة المائة، قصصاً لها علاقة بغصن البان، ورغم ان الرجال حوله استمعوا باهتمام، وأبدوا دهشتهم لذكاء الحصان وقدرته على التحمل وسرعته، إلا أن الاسئلة التي وُجّهت، والتعليقات التي أعقبت كلامه، كانت باهتة، عادية، بحيث قتلت رغبته في مواصلة الحديث، في الوقت

الذي كان مثل هذا الحديث، لو جرى في موران، فإنه يبدأ لكن لا احد ابداً يعرف كيف سينتهي، او كم من المفاجآت سيحمل في ثناياه. قال السلطان لنفسه «أهل الخيل ما هم مثل غيرهم؛ من يوم ما ينفطمون وهم مصبحين مسيين بها، وما ينسون ذكرها إلى أن يموتوا».

ورغم أن الخيول كانت تحمل اسماءها وحججها، فقد راودت السلطان الرغبة في أن يطلق عليها أسماء جديدة، خاصة الخيول التي جاءت من الاخوة، لأن في ذاكرته رنيناً لأسماء بذاتها، وفي قلبه مودة لخيول أحبها او امتلكها من أيام بعيدة، ويريد، هنا، ان يستعيدها، أو ان يستعيد، معها، اياماً ماضية. ومما حرّض السلطان على ان يفكر مثل هذا التفكير أن المسؤول الالماني عن الاسطبل وجد صعوبة في نطق عدد من الاسماء، او تحولت على لسانه إلى شيء مضحك. لكن هذه الفكرة لم تستمر طويلاً، باعتبار ان الحرس، والذين رافقوا الخيول، لم يتصوروا أبداً إمكانية لمثل هذا العبث، رغم أنهم ضحكوا وتندروا، فيما بينهم، على طريقة الالماني في المناداة على الخيول او ترديد اسمائها، وبذلوا، بالمقابل جهداً مضاعفاً معه من أجل نطقٍ أسلم، وهذا ما تم الوصول إليه بعد عدة اسابيع!

ليس هذا كل شيء، فإن المضمار الذي تجري فيه الخيول من الضيق إلى درجة لا يمكن أن تحافظ على لياقتها ونشاطها ان بقيت فيه. قال ذلك المشرف، وذكره زيد لابن سحيمان، الامر الذي دعا للبحث عن قصر آخر للسلطان في شمال المانيا، مع مساحة تابعة له تكفي لإقامة مضمار اطول وميدان اوسع.

تشاءم شايع السحيمي لوصول الخيل، رغم الأحاديث التي طالما رددها حين كان في موران. لقد بات متأكداً أن الإقامة ستطول هنا، وربما تصبح نهائية. لم يشأ أن يقول ذلك لأحد، أو ان يعبر عن رأيه أمام الآخرين. أما حين سأله السلطان ماذا يقول بخيله والخيول الاخرى التي وصلت، فقد رد بتورية:

ـ الخيل الأصيلة ما ينراد لها شهادة يا طويل العمر، مثل البنت المزيونة، تبرق وتضوي، وما تخفى، وإذا حكت وقالت، تقول: هذا أنا!

ضحك السلطان، بانت أسنانه الكبيرة، كانت تشبه أسنان غصن البان تماماً. تابع السحيمي:

- بس لها عيب واحد يا طويل العمر!

- شنهو عيبها يا السحيمي؟

- عيبها، طال عمرك، إنها ما تحمل غير راعيها، وما تحمل برد هذي الديرة.

هز السلطان رأسه موافقة وحزناً، وجعل الحديث، بعد ذلك، يأخذ نسقاً آخر.

ربما رجّح الاحتمال الذي أشار إليه السحيمي، ان الخيول، رغم العناية والاهتمام، بدت مستوحشة، قليلة الاكل، ثم اصبحت زيارات الطبيب لها متقاربة، والادوية التي تعطى اليها تزيد يوماً بعد آخر.

قال زيد للسلطان ذات يوم:

- الله العليم أن هوا هذا البلاد، يا طويل العمر، ما والم خيلنا. اشوفها مدنقرة وعايفة الأول والتالي؛ ويلزم تعرف، طال عمرك: الابر فختت جنابها.

- ما تقول لي وألم من هوا هذي الديرة يا زيد؟

هكذا تساءل بمرارة السلطان، وبعد ان زفر:

- خلنا نلحق العيار لباب الدار. قالوا شهر شهرين وتنفرج، نرجع لاهلنا وديرتنا، فراح الكثير ظل القليل، خلنا نصبر...

وتغيرت لهجته، اصبحت آمرة:

- وقبل أي آدمي يركب ويمشي، يا زيد، تمشي الخيل. وهناك، بديرتها، وبين الناس اللي يفهمون بها ويقدرونها، تلقانا وعليها فرسانها...

وابتسم إبتسامة كبيرة وهو يضيف:

- ولولا العيب، يا زيد، غصن البان ما يركب الا طيارتي، وما يأكل الا من راحة

يدي. وإذا هنا انظام وما لقي الدلال اللي يستاهله، عسى أن الله يمكّنا ونعوض القصور هناك.

أما بعد الاحداث التي وقعت، واعتكاف السلطان، وبعد أن سافر المشرف الالماني لاستراليا، إذ كان يخطط لانشاء مزرعة كبيرة للخيول، ويطمح الى تهجين يعطي خصائص جديدة، فقد أصبح شايع السحيمي المشرف الحقيقي على الخيل، صحيح أن اثنين من الحرس فُرزا لهذه المهمة، ويقع عليهما العبء اليومي، الا ان معرفتهما بمتطلبات الخيل، وامراضها، كان اقل من السحيمي.

وإنقضى الصيف كله وانقضى الخريف، وبدأ الشتاء.

الشمس بعد ان كانت تملأ جنبات القصر، وتلاعب الاشجار والخيول، في محاولة للنفاذ إلى أعماقها، ولا تمل أبداً من هذه اللعبة، وتتفنن فيها، إلا أنها بدأت تتأخر، ثم اخذت تختفي، فلما دخل الشتاء، اصبحت تظهر وتتلاشى قبل أن يستعيد الجسد تكيفه مع يوم جديد، وقبل ان تزول آثار الليلة السابقة.

رجال السلطان الذين كانوا يشغلون أنفسهم بالتجوال، ويقضون ساعات كل يوم في دفء النهار، وجدوا انفسهم، فجأة، اسرى الغرف الباردة المعتمة، وأصبح الوقت طويلاً مثل حبل لا نهاية له، لا يعرفون متى يبدأ النهار ومتى يأتي الليل، لكي يتكيفوا مع الاول ويحتالوا على الثاني.

وإذا كانت خضرة الاشجار انهارت دفعة واحدة، وغادرت تماماً، فقد تكشّف المحيط عن خواء اقرب الى الفوضى. تأمل الرجال، من وراء نوافذ مغلقة، هذا الذي حدث فجأة، فتبدت لهم الأشجار المنتصبة بلونها الإسمنتي القاسي، وكأنها لم تكن خضراء في يوم من الأيام؛ او أشبه ما تكون بالأنابيب المقشورة، والتي يتراوح لونها بين الازرق المقتول والرمادي الكامد، مع مقدار كبير من البني المغبّر او المتسخ. ومع انهم حزنوا، فقد قالوا لأنفسهم: «تبقى أشجاراً، وتبقى اشجارهم». وتذكروا الأشجار في الأماكن الأخرى، وفي موران بالذات. صحيح إنها لم تكن بهذه الخضرة، ولا بكثافة الاوراق، لكنها لا تستسلم

هكذا. أما حين تذكروا النور هناك فقد أحسوا انهم تحولوا الى شموع سوداء، أو إلى أعمدة من رماد.

وحين هزوا أجسادهم وتوجهوا الى الخارج صفعتهم الريح الباردة، وحملت إليهم من الزوايا وحافات النوافذ الاوراق الميتة؛ كانت الأوراق تتطاير مثل عصافير خائفة. وفجأة تذكر عدد منهم الخيل فاتجهوا نحوها.

كانت الخيول، في هذا الشتاء، ضعيفة وحزينة، رغم العناية الفائقة التي خصها بها شايع السحيمي واللذان يساعدانه. فالمدافىء التي وضعت في الزوايا بدل ان تشيع الدفء ولّدت رائحة خانقة هي مزيج من الروث المتخمر والرطوبة الثقيلة والهواء الراكد، الامر الذي جعل الخيل إقرب الى الدوخة والخدر، فحركتها بطيئة، غير متوازنة، وعيونها كامدة مليئة بالحزن والعذاب، أما إستجابتها للأكل والصفير، او للمداعبة، فكانت في حدها الادنى، أو اقل من ذلك.

قال شايع لزيد الهريدي:

- إذا جتّ المصايب يا زيد تجي مثل مزن الربيع...

وزيد الذي هزّ رأسه موافقاً لم يتكلم ولم يعلق، إذ يعرف ان للحديث تتمة، تابع السحيمي:

- وها لحين ما عدنا نحكي على مصايب البشر، لأن البشر يستاهلون، واللي ما يستاهل يدبر اموره، بس هذي الامانة اللي توكلنا عليها شلون ندبرها؟.

وأشار بيده كلها نحو مكان الخيول. رد زيد بحزن:

- يا ابو عاهد نسوي اللي الله يقدّرنا عليه.

ولم يتأخر الرجلان، ولم يتأخر الرجال الآخرون، في تنظيف الاسطبل وتهويته. ومن عباءت الوبر واغطية الاسرة صنعوا للخيول اغطية ودثروها بها، واتفقوا الا توقد المدافىء قبل منتصف الليل، في الوقت الذي تستلم مجموعة الحراسة الليلية الأخيرة نوبتها.

اعطى هذا الحل بعض النتائج المرضية، لكن عندما دخل الشتاء الكبير، وأصبح الكون كله مثل عمودٍ من جليد، وتداخل الليل بالنهار، وسيطرت العتمة على كل شيء، فقد تحول خوف شايع السحيمي الى رعب حقيقي. فهو لا يستطيع ان يفارق الخيل، ولا يستطيع، في نفس الوقت، أن يفعل شيئاً من أجلها. كان يقضي معظم لياليه في الاسطبل، كان يسمّك الاغطية ليلة بعد ليلة، وكان يوقد المدافىء لكسر حدة البرد، ثم يطفئها لئلا تفسد الهواء. وكان لا يتردد في أن يستعين بأنفاسه وبيديه الاثنتين في أجل ان يولّد الدفء في أجسادها، ويحرك الدم في عروقها. كان يفعل ذلك دون شعور بالتعب او الملل. لكن حزن الخيل يزداد يوماً بعد آخر، ومقاومتها تضعف يوماً بعد آخر.

قال لزيد في احد الايام التي ملأ فيها الثلج الكون كله:

- ما بقي، يا زيد، قدامنا الا واحد من اثنين: إمّا نوجهها نحو القبلة، وكل واحد منها طلقة بقصته، وينتهي كل شيء في امان الله، او نسفّرها، نردها لديرتها.

وانفعل فجأة، تملكه غضب حزين:

- عيونها، يا زيد، وأنت تناظرها، كأنها عيون الغزلان ساعة الذبح، ونظرتها نظرة المظلوم، ونفسها نَفَس الملهوف اللي يترجى. أما دقات قلوبها فمثل دقات قلب الام. وإذا التفتت برقابها، يا زيد، فكأنها التفاتة العاشق، تقول كل اللي بقلبها، وبعد هذا شلون تريدني اصبر واحمل؟

وتغيرت لهجته، فارقها الغضب، اصبحت حزناً كلها:

- انذبحت يا زيد، ما اقدر أشوفها واحمل؛ وهي، هالمسكينة، ما لها لا صوج ولا ذنب، شيّلوها من آخر تلفات الدنيا لأنجس مكان، لهذا الزمهرير، وقالوا لها هنا تموتين. فما تقول لي شنهو ذنبها؟ وليش يسوون بها كذا؟

- الذنب ذنب اللي دزها، يا ابو عاهد.

- لا بالله، يا زيد، الذنب ذنب اللي رادها وطلبها!

- والحل يا شيخنا؟

- مثل ما قلت لك من قبل: نذبحها او نسفّرها!

- خلنا نشوف طويل العمر، ونأخذه شوره.

- شفه أنت، لأني ما أحمل كلمة زايدة أو كلمة ناقصة، وأضاف اغلط عليه او يغلط علّي.

- وكّل الله يا ابو عاهد!

جرى هذا الحديث بعد ايام قليلة من الحركة المفاجئة التي دبت في القصر، فقد جاء هانس اورلخت خلال يوم واحد مرتين، وكان معه في المرة الثانية احد موظفي السفارة، اضافة الى المحامي ومترجم جديد. وقيل إن الجميع التقوا بالسلطان اثناء الزيارة الثانية.

ورغم ان الحركة بدأت في القصر قبل هذه الزيارة، او على التحديد حين غادر السلطان جناحه، إلا أنه لم يلتق سوى زيد، ولمرتين فقط، ولم يدم كل لقاء اكثر من عشرين دقيقة. ومع ذلك شوهد السلطان مرتين في «المنظرة»، وقد ميزه الحرس حين اقترب كثيراً من النافذة، فملأها كلها، وكانت عدلة معه في المرة الثانية.

ترافق ذلك مع همس سري وتزايد يوماً بعد آخر ان اموراً كثيرة متوقعة، لكن لم يستطع احد ان يقرر هذه الامور، او عما ستسفر، كما لم يشر إليها زيد حين سئل.

صالح الهلالي الذي بدأ بياته الشتوي قبل ان يدخل الشتاء الكبير، إذ لم يعد يُشاهد إلا قليلاً ونادراً، وجاء اعتكاف السلطان ليجعله يغلق أبواب القصر، فلا يفتحها الا لإحضار التموين والحاجات الضرورية، وصدف عدة مرات ان امتنع الحرس عن فتح البوابة، بأمر من صالح، «لانا ما نفتح لاحد بدون موعد»، وكأنه بهذه الطريقة يوفر لنفسه اقصى درجات الحيطة والأمن...

الآن، وقد قطع السلطان اعتكافه، وبدأت الزيارات، ودبت في القصر حركة غير عادية، اصيب صالح الهلالي بحالة من الفزع أقرب الى التطير، وقد سيطرت

عليه هذه الحالة قبل أن يسأل وقبل أن يعرف. اكثر من ذلك لم تكن لديه الرغبة لأن يسأل زيداً، إذا كان يخشى من الإجابة، وكان يفترض أن أي شيء يحصل سيكون على حسابه.

قال الذين كانوا بإمرته، منذ سنوات طويلة، إنهم لم يروه هكذا ابداً. فالارض التي كانت تهتز لاوامره، والعقوبات التي توقع لا بسط الاخطاء، وذلك الصوت الجهوري، وكان لا يتفوه إلا بالأوامر والشتائم، أصبح خلال اقل من شهرين إنساناً آخر: نقص وزنه الى النصف، غارت عيناه وبدت اكثر صفرة، أما يداه فإنهما ترتجفان مثل سعفة حين يرفع بواحدة فنجان القهوة، ويحاول بالثانية أن يسندها ويسنده!

خلال المرات القليلة التي تحدث، ولم يُسأل عن ذلك ابداً، قال إن الأكل لم يواته، والطقس آذاه، أما المياه «فتنزل بقلبي، يا جماعة الخير، مثل الرصاص». وأشار في مرحلة اخرى إلى ان رجفة اليد حالة ورثها عن ابيه «وإن الطب عجز، وما تركنا شي الا وسويناه، لكن ما فاد».

فسر اثنان من الحرس القدامى للسلطان «ان صالح الهلالي برقبته بين العشرين والثلاثين، ذبحهم بمسدسه البراو، فإذا فلت من أهل واحد ما يفلت من غيرهم، خاصة بعد ما طاح السلطان»، وهذا ما يفسّر خوفه من ان يُسَلَّم الى موران، وخوفه أيضاً من كل زائر غريب. صحيح أنه لم يشر إلى ذلك أبداً، كما لا يحب الأحاديث التي تتناول موضوعات لها صلة، لكن هذا ما يُرَجَّح.

عندما أبلغه زيد، بعد الزيارة التي قامت بها هذه المجموعة للسلطان، انه تم سقط على الأرض. كان في وضع أقرب إلى الذهول، لا يسمع ما يقال له، ولا التحقيق، من اجل إنهاء القضية، كما قال المحامي، وكما اكد مندوب السفارة، فقد اصيب بحالة من الانهيار. لدقائق ظل يرتجف، ولم ينطق بكلمة واحدة، ثم سقط على الأرض. كان في وضع اقرب الى الذهول، لا يسمع ما يقال له، ولا يجيب عن أي سؤال. وبالرغم من كل الكلمات المطمئنة التي قالها زيد والابتسامات، والتأكيد المتزايد «إن المسألة شكلية، ولا تتعدى سؤالاً او إثنين وترجع بالسلامة والقضية خالصة»، إلا أن وضع صالح يتراجع ويسوء بين لحظة

واخرى ، مما اضطر زيداً واثنين من الحرس الى حمله ووضعه في سريره، وقد استولت الحيرة والمفاجأة على الجميع.

الأيام الثلاثة اللاحقة شديدة الغموض. ففي الوقت الذي يؤكد الكثيرون أن صالح لم يغادر غرفته، او بالاحرى سريره، ورفض الأكل او تناول أي نوع من الأدوية، يؤكد عناصر نوبة الحراسة الصباحية إنهم شاهدوه يحمل بندقية ومسدساً وخنجراً، ويتوجه نحو إسطبل الخيل. لقد ارتابوا كثيراً بوضعه، لكنهم لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً، حتى إنهم لم يبلغوا احداً. ومما جعلهم يصمتون هكذا إن صالح عاد الى غرفته بسرعة. وقد فسروا الامر، فيما بعد، إنه إضطر الى ذلك نتيجة وجود شايع السحيمي، إذ ربما كانت لديه نوايا عدوانية وخطرة تجاه الخيل، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لما رأى شايع.

ويؤكد غير هؤلاء أن صالحاً، على غير عادته، استيقظ مبكراً، ولبس أحسن ثيابه، وقضى فترة الصباح كلها في قيادة الحرس، وحين استغرب الذين دخلوا المحرس ورأوه، فقد أجاب في احدى المرات «ورانا أشغال واجد هذا اليوم» ولم يعرف ما إذا كان يستعد لمقابلة السلطان، او للمثول امام قاضي التحقيق، وقيل ايضاً إنه كان ينوي الذهاب الى شتوتغارت مع الذين سيذهبون.

اما لماذا أُجل موعد قاضي التحقيق من يوم الجمعة الى يوم الاثنين اللاحق، فإن الامر يحتمل تأويلات كثيرة. قال صالح، او ربما زيد «مثل ما هو الأحد للنصارى، فنحنا مسلمين، عطلتنا الجمعة، وفيها ما نسوي شيء ابد». وجاء من أكد ان القاضي المنوط به الامر تعرّض لحادث سيارة، اضطر معه لتأجيل الموعد. وقيل إن انشغالات القصر خلال تلك الفترة هي السب في التماس تأجيل الموعد لبضعة أيام لاحقة.

وتوجُّه الكثيرين الى القصر صباح يوم السبت، وما رافق ذلك من هرج ووصايا، إضافة الى الحركة السريعة، لم تسمح بالجزم ما إذا كان صالح الهلالي واحداً من الذين زاروا القصر والتقوا السلطان، وإن كان واحد من نوبة الحراسة ذاتها قال إن صالحاً ظل يحاول الوصول إلى الحديقة الخلفية للقصر، وربما كان يضمر شرا بالسلطان، لكن نتيجة الحراسة المشددة هناك، او ربما

نتيجة التردد، فقد عاد أدراجه، ولم يغادر غرفته، وقيل سريره، طوال ذلك اليوم، رغم الهرج والصراخ، ورغم السيارات التي وصلت.

ما كان احد ليهتم بهذه التفاصيل، او ليقف عندها، خاصة وأنه اليوم الذي كان مقرراً لسفر عدد كبير من ساكني القصر، لولا ما حصل بعدها.

فالسلطان الذي احتجب فترة طويلة، اتخذ فجأة مجموعة من القرارات، وطلب تنفيذها دون تأخير.

أمر بتسفير زوجاته الأربع، ومعظم الذين جاءوا معهن. وطلب من مشعل أن يسافر، كما سافر عدد من المرافقين.

أما لماذا فعل ذلك، فإن جميع التفسيرات مجرد تقدير وتوقع. فالمكالمات التي جرت مع موران، جرت منّ جناح السلطان، ولم تجر، كما هي العادة، من الصالة الكبيرة، في الطابق العلوي، او من غرفة التشريفات في الطابق الاول. واقتصرت هذه المكالمات على السلطان أول الأمر، ثم شاركه مشعل ومجلي، وقيل مجلي وحده، وحتى عدلة التي أرادت أن تكلّم عدداً من أولادها أو أقاربها، لم تفعل في جو الاضطراب والارتباك والسرعة. أما ما جرى وما دار خلال هذه المكالمات، ومن كان الطرف، أو الأطراف الأخرى، فإن أحداً لم يدر. حتى الذين كانوا قريبين، وسمعوا، أو تنصتوا، فقد حملوا معهم معلوماتهم وأسرارهم وارتحلوا بها.

وقبل ذلك لماذا انهى السلطان اعتكافه وما حقيقة ما دار بينه وبين السفير، ثم ما دار بينه وبين عنان بسيوني الذي وصل إلى القصر في بادن بادن برفقة السكرتير الأول للسفارة، وقد قضي هذا الأخير فترة المحادثات كلها في المحرس، ولم يدخل مع عنان، ويبدو أن الأمر متفق عليه سلفاً؟

إن أية إجابة عن مثل هذه الأسئلة تفتقد البرهان، أو حتى مجرد القرينة، لأن أياً من الذين شاركوا لم يتكلم.

وعكس مرات سابقة، إذ كانت تتسرب الاخبار، او تشي بها التصرفات، وتفضحها، بعض الاحيان، العيون او زلات اللسان، أو تغير السلوك، ففي هذه

المرة، ونتيجة اتفاق جازم، أن لا يتسرب خبر، فإن كل شيء ظل طي الكتمان، وزاده غموضاً المبالغة في السرية، والحرص أيضاً على الصمت والغياب.

حتى زيد الهريدي، الذي راقب الحركة بعناية، فقد أجاب شايع حين سأله أن الأمور تبدو له غير مفهومة، ولا يستطيع أن يفسر ما يجري.

وحين الحّ عليه شايع السحيمي، وكان صوته حزيناً، رد بانفعال:

- تاهت علّي يا ابو عاهد، وما أدري شي ابد...

وبعد قليل ولم يغادر الاسى صوته:

- من يوم ما وصل ابو العظم الازرق، مجلي، وبعده عدلة، الله لا يعدلها، ما هو بس ابعدوني عن كل شي، صرت بنظرهم المسؤول عن كل المصايب اللي وقعت. يناظروني، يا ابو عاهد، ويدردمون، يتكلمون بين بعضهم ويريدوني أسمع. والسلطان، الله يسلمه، مثل العجي، كلمة تأخذه والثانية ترده. يصدق كل شي ينقال له، فلما شفته كذا، قلت لروحي: خلك بعيد يا ولد احسن لك وآمن...

وتغيرت النبرة تماماً:

- ومن يومها، يا أبو عاهد، ما عرفت، ولا سألت.

- وهذا الخبل، المسكين، صالح، شلون قضي؟

- والله علمي علمك، يا أبو عاهد، وسوالف الناس كثيرة، وكل واحد يسولف شي يختلف عن الثاني...

تنحنح وتلفت، ثم تابع:

- يقولون أن جماعة السفارة، وهو بالمطار يودع الجماعة، رادوا يحمّلونه بالطيارة اللي رايحة، شربه شي وداخ، لكن ما قدروا عليه، انكشف أمرهم، فخافوا. ويقولون إن الألمان رادوا يقبضون عليه، لكنه قاوم وصاح، فقالوا مريض ويلزم يتعالج. ويقولون إنه هو نازل من الطيارة، بعد ما تأكد من راحة

المسافرين، داخ وطاح. رشوه بالماء صاحوا طبيب المطار، قال الطبيب، يلزمه أجزخانه، ورأساً حمّلوه وراحوا به...

هز رأسه، تنفس بعمق، وبعد قليل:

- وسرّ لي عجرم، حارسه وقريبه، إن صالح نبه على جماعته، قال لهم وحرصهم: إذا شفتم شي غير طبيعي تصرفوا، لأني بخطر، وكل شي بهذي الدنيا بصير. فلما طاح، وهو نازل من الطيارة، وجت سيارة الإسعاف وجا الطبيب، رفض إبراهيم الشرابي، ومسفر دخل الله إن احد يتقرب منه، لكن وهم يشوفونه يلبط، يريد يموت، وافقوا إنهم يشيلونه، بس شرطهم أن يرافقوه.

أكد إبراهيم الشرابي أن الوفاة حصلت أثناء نقله، وقبل وصوله إلى المستشفى، «لإني، بعيني، شفت روحه تطلع، طلعت مثل غيمة زرقة وملت السيارة كلها، ولما جسيته لقيته بارد، وما به حركة». أما مسفر دخل الله، فقد أجاب، بعد أيام، حين سأله السلطان، «ان الرجال، وهم يشيلونه، صاحي ويسولف، وقال لنا: لا تخافوا، بس يلزم تحرصوا وتفتحوا عيونكم زين، ويشلوا به: ابر ودوايات، ووين الجنب اللي يوجعك، وتحمل. وبعد أن وصل المستشفى منعونا من الدخول إلى غرفته، وهناك ذبحوه».

ومما عزز رواية مسفر دخل الله التحقيق الذي طلبت السفارة اجراءه، بناء لطلب السلطان، الأمر الذي أدى إلى تشريح الجثة، وبالتالي تأخير تسلمها، خاصة بعد أن تقرر دفنها في المانيا وفق الإجراءات الاسلامية.

وأمام مسجد ميونيخ، الذي استدعي إلى القصر، للاتفاق معه على تسلم الجثة ودفنها حسب المراسيم الإسلامية، طلب مبلغاً كبيراً، وكانت حجته: مرور فترة طويلة على الوفاة، ولأنه مضطر إلى الاتصال بمسلمي المدينة، واستدعائهم في غير يوم الجمعة، من أجل المشاركة في الصلاة على المتوفى ودفنه. كان ثملاً وهو يتحدث، وزيد الذي وافق على جميع الشروط، أعطاه مبلغاً إضافياً، بناء لطلب السلطان من أجل اقامة عشاء على روح صالح الهلالي.

العلقاوي الذي كان يترجم ويفسر بين الإمام وزيد، قام بمراجعة إدارة المستشفى للحصول على شهادة وفاة، بعد عدة أسابيع، بناء لطلب من موران، فتبين له أن جثة صالح الهلالي بيعت لمستشفى كلية الطب. وقد باعها أمام مسجد ميونيخ، اعتماداً على تفويض من عائلة المتوفى!

لما عرف شايع السحيمي، ارتجف، خاف، قال كأنه يخاطب نفسه:

- يلزمنا نلحق أهلنا وديرتنا يا جماعة الخير، لأن الغريب يظل غريب دنيا وآخرا، وخاف باكر ما نلقى قبر يحوشنا ويصير بنا مثل ما صار بهذا المسكين!

خلال اكثر من شهر لم تهدأ الحركة ولم تتوقف بين قصر بادن بادن وموران ، أوبين القصر والسفارة في بون، اذ بالإضافة الى التلفونات خلال النهار، وبعض الأحيان في ساعات متأخرة من الليل، وقيل ان السلطان تحادث مع عدد من أخوته، بينهم فنر، وقد جاءت المبادرة من فنر، فإن الزوار الذين وصلوا خلال تلك الفترة أكثر من أية فترة سابقة. أما حين وصلت ياسمين، عروساً جديدة للسلطان، ومعها امها وعدد من المرافقين، فقد فُهم، بشكل أفضل، السبب وراء سفر الزوجات السابقات! وحين تبين الشبه، على الأقل من حيث العمر، وبياض البشرة، بين العروس الجديدة وسلمى، فقد تأكد الجميع ان عدلة، التي رتبت هذا الزواج، تريد أن تثبت للسلطان قدرتها على الاختيار!

الهدايا التي رافقت العروس اكدّت، مرة اخرى، المكانة التي يحتلها السلطان لدى الاخوة، خاصة فنر. فبالإضافة الى هداياه الثمينة والمتنوعة للعروس، فقد أرسل مسدسه المذهب، والذي تلقاه من أبيه في احتفالات البلوغ، هدية لأخيه، مع كلمة قصيرة: «أغلى هدية من أعز إنسان لاكبر اخ، فنر».

ورغم أن الاحتفال كان محدوداً، إذ اقتصر على أفراد الحاشية والمرافقين، إضافة الى السفير، فقد قال زيد، نيابة عن السلطان، وربما بإيعاز منه:

ـ اليوم قراءة الفاتحة، أما العرس فما يكون إلا بموران، لأن الأعراس انخلقت لموران!

فهم كلام زيد بأكثر من معنى، خاصة حين علق السلطان:

ـ الحق اللي تقوله يا زيد، وهذا اللي راح يصير!

أما المسدس الذي عرض بهذه المناسبة، مع الكلمة المرفقة، فقد أثار الإعجاب والتقدير، واعتبر بمثابة اعتذار علني من فنر. هكذا فهم وهكذا فسر من الجميع عدا شايع السحيمي، الذي قال لزيد في نهاية الاحتفال:

ـ الله يسترنا من التوالي يا زيد...

ظل زيد صامتاً. ضحك شايع بحزن، وخرج صوته مضطرباً:

ـ قال له: إذا ما كفتّك الخيل وربطتك، خذ معها، هالحين، الليل، وإذا لا هذا ولا ذاك، دوك هذا المسدس، رصاصة واحدة منه تكفي وتوفي، وكفى الله المؤمنين شر القتال!

وضحك بسخرية وهو يتابع:

ـ بس هات من يفهم!

وبعد قليل:

ـ ألف رحمة عليك يا أبا العلاء!

مجلي بعد أن حضر إحتفال الزواج غادر في اليوم التالي الى شمال المانيا، برفقة هانس والمحامي، وصحبه مترجم، للتأكد من ملاءمة القصور المعروضة للبيع، ولاختيار واحد منها. وبناء لاتفاق سابق مع هانس لم يبلغ السفارة، ولم يصطحب احداً معه. «لأنه بمجرد أن يُعرف وجود علاقة للسفارة يتضاعف الثمن مرات، وقد لا يبيعون!»

الخيول التي احتملت برد اول الشتاء، وكادت تنجو، لم تستطع ان تحتمل برد شباط القاسي. كان البرد، في هذه السنة، أو هكذا افترض السحيمي،

مخصصاً للقتل، ولقتل الخيول بشكل خاص، إذ رغم العناية الفائقة، بما في ذلك إستعمال الاغطية المخصصة للحزس، فقد فرض السحيمي على عناصر نوبة الليل، قبل أن يتبادلوا السلاح وكلمة السر، ان يدثروا الخيول بالاغطية التي كانوا يتدثرون بها! ولجأ في فترة لاحقة إلى إبقاء المدافىء مشتعلة، «لأن اللي يخاف من الموت يرضى بالحمى». ومع ذلك فإن الخيل بدأت تتساقط. ولم يأت أول الأيام المعتدلة، وليس الدافئة، إلا وكان قد سقط منها ثلاثة رؤوس.

أخفي الامر، في البداية، عن السلطان، لكن مسألة إخراج الخيول النافقة، في هذا الجو، ومن هذا المكان، بالإضافة الى ما كان يسببه من الإرهاق والهموم، غالباً ما تترافق مع حركة غير عادية، وأصوات لا يمكن التحكم بها، مما اضطر السحيمي، بعد أن مات الحصان الثالث، إلى مقابلة السلطان:

ـ الخيل، يا طويل العمر، طلبت أهلها، وإذا قدرنا عليها طول المدة الماضية، وحمينا اللي قدرنا نحميه، تراها مصبحة مسيّة، وأولها غصن البان.

والسلطان الذي عرف بما حصل، أو ببعضه على الأقل، خاف، علق بصوت مرتجف:

ـ لو كان بيدي، يا ابو عاهد، بروحي أفديها، بس مثل ما تشوف عينك: عايشين بالامل، اليوم وباكر، فاصبر. شوي، عسى أن الله يفرجها.

ـ أنا سلّمت امري للواحد القهار، يا طويل العمر، بس أمر هذي الارواح المسكينة بيدك، فاعتقها أو أقتلها، لأن روحي شاغت وما اقدر أحمل، وكل يوم أموت الف موتة.

ـ وشنهو اللي نقدر نسويه؟

ـ نرجعها لموران.

ـ يلزم يطرّشون لنا طيارة من هناك، لأن السفير يقول طيارات الالمان ما تشيلها...

وبعد قليل وبحزن:

- إذا فاتت المربعانية، يا أبو عاهد، نخلص، ويكون الله كاتب لها ولنا عمر جديد، فخلنا نتحمل ونصبر، وكلها كم يوم.

- لكن مربعانيتهم، يا طويل العمر، حسابها غير عن ديرتنا، والخويا اللي قبلنا يقولون: البرد بعده بأوله، وراح يجي برد ازرق وريح تقطع المسمار، فخاف نتغدر ونخسر الأول والتالي.

- وكل الله، وخلنا نشوف!

جزى هذا الحديث قبل وصول العروس ببضعة أيام، وكان السلطان مشغولاً بهذا الامر اكثر من أي امر آخر! أما بعد ان وصلت، ولم تكد تنقضي فترة قصيرة، حتى بدا السلطان لكل من يعرفه أو رآه، إنساناً آخر: عصبياً، نزقاً، سريع الغضب لأية كلمة، ولا يتردد في أن يشتم او حتى أن يضرب.

رجال حرسه الخاص، وبعض مرافقيه، الذين حضروا عدداً من زيجاته السابقة، لاحظوا، ومنذ الأيام الاولى للزواج، انه لا يبدو مرحاً او منتعشاً، ليس لأنه لم يوزع عليهم العطايا، كما كان يفعل من قبل، ولا لأنه لم يتبسط معهم او يمازحهم، وإنما لأنه تجاوز كل حد، وأصبح يخرج عن طوره لأبسط الاسباب وأقلها اهمية.

قال تركي الصهيب الذي يقف وراء السلطان مثل ظله «الثلاثاء خنثى، لا ذكر لا أنثى، وظني، لأنه تزوج بهذا اليوم، ارتكس وانتكس، والله يستر».

أما صويلح الجريان، كاتب السلطان، فقد تلقى نظرة حارقة وبعض الشتائم، في اليوم الثالث للزواج، لأنه اقترح توجيه دعوة للجالية العربية في المانيا بهذه المناسبة. ولم يفهم أبداً لماذا غضب السلطان أو سبب رد فعله الحاد.

ترافق ذلك مع تراجع واضح في الحالة الصحية لجلالته، إذ قلّ اكله، وبدأ يشكو من آلام المعدة والخصيتين، ورغم أنه احتمل الآلام، فقد رفض بإصرار ان يزوره الطبيب، كان يرد بحدة حين يُقترح عليه دعوة الطبيب:

- البني آدم طبيب روحه، ويعرف سالفته اكثر من أي واحد آخر.

وبدل أن يستجيب لرأي طباخه الخاص، فيما يجب أن يأكل او يمتنع عنه، بدأت يستهلك في القصر كميات كبيرة من التوابل والمكسرات والعسل، إضافة الى أنواع عديدة من الحشائش، تمّت التوصية عليها من موران، وأرسلت بالطائرة. كما أصبح السلطان يشرف بنفسه على الطعام الذي يجب ان يعدّ له، ولا يتردد في أن يضيف إليه، في اللحظة الأخيرة، مقادير من ادوية كان يحتفظ بها!

زيد الهريدي، رغم مسافة البعد التي فُرضت عليه منذ ان وصل مجلي، والتي فرضها على نفسه أيضاً، نتيجة الكلمات التي سمعها، والاتهامات التي وصلت إليه، كان اول الناس يكتشف أن عطباً كبيراً، اقرب الى الخطر، المّ بالسلطان. ظنه، خلال الأيام الأولى، بسبب الخدعة الجديدة، مثل الكثير من الوعود التي اعطيت وتم التراجع عنها، لكن حين تأكد أن العلاقة مع موران، والعلاقة مع السفارة، لم تتعرضا الى التغير، فقد أصبح على يقين أن الأمر لا يتجاوز قصر بادن بادن. قال لنفسه بسخرية: «الملدوغ من الحبل يخاف، والبني آدم إذا سمع الصوت ينـاظر بعيد، وما يريد يشوف القريب منه؛ ويـامـا مصـايب طلعت من حدر الرجلين، أو كانت من صنع الايدين». وبعد تحريات جادة، استمرت عدة أيام، توصل زيد إلى معرفة السبب: جاويد.

فهذا الفتى الاشقر، الاحول، ابن الثامنة، والذي يشبه القرادة، وجاء في موكب أخته، عروس السلطان، ولّد هذا الجو المشحون، أو بسببه خُلق هذا الجو.

ان زيداً على يقين. فالسلطان الذي كان يتطير الى اقصى حد من العوران، ومن المصابين بالحول، وكان يرفض استقبالهم، ويشيح بعينه إذا التقى بهم، وجد نفسه فجأة امام هذا الصغير، الذي رفض الجميع وتعلق بالسلطان! كانت علاقته بياسمين علاقة قوية، وكانت هي تحبه وتعطف عليه، وربما وُجد من قال إنه يمكن معالجته في المانيا، فجاء، ولذلك تشاءم السلطان، وأصبح عصبياً هكذا.

الذين كانوا ينقلون المواد التموينية الى القصر لهم رأي آخر: «البلاد الباردة

ينـراد لها اكل حار، والشمس إذا غابت لازم يتعوض عنها بقرفة وزنجبيل وعسل، إذا ما انوجد حليب النوق، والله العليم إن هذه الفريخة ما تكفي، لهذا السبب ضاق صدره!».

أم العروس كادت في ليلتين، تفصل بين الواحدة والأخرى ثلاثة أيام، أن تتعرض الى مشاكل بما فيها إطلاق النار، إذ بعد أن نقّبت في القصر، كما يفعل الشحاذ، عثرت على ما تعتبره السحر الذي يربط السلطان، عثرت على حزمة من شعر ملفوفة بورقة مشمّعة، معها سفوف، مربوطة بخرقة صفراء، موضوعة بزجاجة، والزجاجة مخزومة بخيط، والخيط متدلي من اعلى السرير ومارّ تحت الجانب الايسر حيث ينام السلطان!

«إنه السحر ولا شي غيره. تركته عدلة، او واحدة غيرها، حتى تربط السلطان».

اخذته ميّسر، ام العـروس، ليلة الجمعة، بعد أن نام الجميع، إلى الحديقة الخلفية للقصر، وكانت قد حفرت له في النهار حفرة، وما كادت تضعه فيها، وتغطيه، حتى وجدت حارساً فوق رأسها. خافت، صرخت، خرج صوتها كمواء القطة. حين عرفها الحارس، سألها، وكان صوته يرتجف:

- الله العليم: وحشة الديار، واختلاط الليل بالنهار، وكأنك تنشدين موران، يا عمتي، ما هو كذا؟

- موران بعيدة يا ابن الحلال، والاقرب منها ما حنا واصلينـه!

لم تنم أم جاويد براحة تلك الليلة؛ ولأن اليوم التالي هو السبت، لم تستطع ان تفعل شيئاً، ولذلك مر السبت بطيئاً ثقيلاً، وجاء الأحد، كان أكثر بطأً وأثقل، وقد لفت اضطراب ميسر، ام جاويد، نظر الكثيرين، خاصة وانها لم تقرب الطعام؛ أما بعد ان تقدم الليل، وتأكدت من نوم الجميع، فقد اتجهت الى الحديقة، الى نفس المكان الذي دفنت فيه السحر، لكي تستخرجه، من اجل مكان أفضل ووقت انسب. ما كادت تبدأ، حتى وقف الحارس نفسه وقال:

- فلا شدة الا ويرجي لها فرج   ولا كربة الا ولها الف حلال

بقي لي عوض ما فات تذكار ما مضى   وحزني عليهم وين ما رحت يبرى لي

بدت ام جاويد اقل خوفاً هذه الليلة، ردت، وخرج صوتها متحدياً:

ـ خلنا يا ابن الحلال نصلي ركعة او ثنتين تحت السماء عسى ان الله يستجيب ونخلص.

ـ صلاة مقبولة يا عمتي!

وبدل ان يستجيب الله زدادت الامور سوءاً:

الفترة التي حُددّت انقضت دون أن تنفّذ الوعود. زيارات الموفدين من موران تراخت ثم انقطعت. الاتصالات التلفونية اخذت تتأخر ثم اضطربت، لتصبح في الأخير هماً ثقيلاً. ومثلما فعل السفير في مرات سابقة فعل هذه المرة ايضاً: «سافر الى موران للتشاور» كما قيل لزيد الذي اتصل بالسفارة من أجل طلب بعض المواد التموينية.

وصحة السلطان تتراجع ايضاً، اما رفضه لزيارة الطبيب فقد اصبح اقل من السابق، وحين وافق أخيراً، كان مصمماً أن لا يستجيب لما قد يطلب منه، أما بعد وضع الطبيب قائمة طويلة للممنوعات والادوية، فقد قال السلطان لزيد:

ـ ثلاثة يعرفون داي زين: أنا وموران وأبو غزوان...

زفر. خرج الهواء من صدره ثقيلاً حارقاً، واضطرب صوته:

ـ وأنا، يا زيد، مربّط، مثل ما تشوف عينك؛ وموران كلها لئامة وقلة دين، ما تعرف الا اللي فوقها وبه حيل؛ أما أبو غزوان فيعرف الداء والدواء، لكنه بعيد، وظلمناه. وتعال، هالحين، وافق على اللي ما يعرفون شي، وسفّ ادويتهم، ونام على الجنب اللي يريدون!

ضحك بسخرية وأضاف:

ـ لكن ظني ما يفرحون!

ويزداد القصر توتراً وخوفاً. يظهر السلطان يوماً، ويختفي أياماً. ويزور القصر

بين فترة واخرى موفد من السفارة، حاملاً الجرائد والرسائل وبعض الكلمات التي ينشغل بها الجميع، ويحارون في تفسيرها.

مجلي لم يعد يظهر في القصر إلا لفترات قصيرة، يغيب بعدها في أسفار لا يعرف احد الى اين يصل او ماذا فعل، فإذا عاد من جديد اختلى بأبيه وقتاً طويلاً، يعقبه إتصالات مع موران، وتوقعات وانتظار، لا يقطعهما الا سفر جديد.

هانس الذي تردد في اختيار القصر الجديد للسلطان، توصل في اول الربيع إلى القصر المناسب، لكن العقبة التي شغلته، وأخرت تسجيل ملكية القصر، الاجراءات، كما قال، خاصة وإن الملكية لاجانب. ولئلا تضيع الفرصة سجّل القصر، مؤقتاً، باسمه، على أن تُنقل الملكية لاسم السلطان في وقت لاحق!

السحيمي الذي قلق لمرض الخيول، وتحسب، ثم اخذ يغرق في الحزن والجفاف مع كل رأس يميل ويسقط، ما لبث ان وقع مريضاً حين التوت رقبة «مرزوق» وانتهى. كان يحب مرزوقا ويفضله على باقي الخيل، وكان يعتبره أفضل خيول السلطان، قد لا يكون أسرعها أو أغلاها ثمناً لكنه أكثرها حناناً ووفاء. صحيح انه لا يعترف بميزة الآخرين على مرزوق، من حيث النشاط والسرعة، ففارق العمر بينه وبينها كبير، وحين كان لا يجاريه أحد، لم تكن هذه موجودة، أو حتى لو وجدت لما استطاعت معه شيئاً، «لكنه العمر» هكذا يقول، وهو لا يخفي اعتزازه.

قال زيد: إذا عاش ابو عاهد بعد مرزوق تكون انكتبت له حياة جديدة.

مرت أيام، تعافى شايع وبدأ الربيع. ومع بداية الربيع وصلت، فجأة، عدلة.

كان وصولها مفاجئاً غير متوقع، وخلال فترة قصيرة دب النشاط في القصر كله، وشوهد السلطان في «المنظرة» عند الظهر، بعد ان غاب، لم يشاهده احد، اسبوعين كاملين، حتى إنه سرت اشاعات قوية تؤكد سفره إلى جهة مجهولة، وقيل إنه سافر إلى بون لكي يلتقي بأخيه فنر هناك. وفي عصر اليوم

نفسه شوهد في الشرفة، وكانت عدلة إلى جانبه، تحدثه حول أمور بدت مهمة من خلال هزات رأسه التي كانت تتوالى بانتظام. ولم تكد تمر نصف ساعة حتى دخلت عدلة، وحين عادت كانت تحمل عباءة سميكة القتها على كتفيه. وأكد من راقبهما بعناية انهما ظلا كذلك حتى بعد أن هبط الظلام.

زيد الذي كان خائفاً وحائراً، باعتباره الوحيد الذي يلتقي بالسلطان، وكان يرى ضعفه وتراجع قواه، لكن لا يقوى على إقناعه بتناول الدواء او بإجراء فحوص طبية جديدة، وبالتالي لا يعرف كيف يتصرف او ماذا يفعل، اعتبر مجيء عدلة حلاً مناسباً، او حلاً بعث به الله.

قال لشايع السحيمي الذي هرم خلال شهور:

ـ ابشر يا ابو عاهد. . .

وشايع الذي رفع اليه عينين متعبتين، ولا تحملان فضولاً او تساؤلاً، قال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ راح وقت البشاير يا زيد. . .

وانخفض صوته، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ اللهم حسن الختام.

قال زيد بحماس، لعله ينعش السحيمي وينعش نفسه:

ـ جماعة السفارة قالوا وام مشعل تقول. . .

ـ شنهو اللي يقولونه؟

ـ صارت الرجعة قريبة، وكل شي انتهى!

ـ ثنينا ايام وسنين، يا زيد، والشي الزين راح وانقضى، وهالحين ما حنا بخسرانين شي إذا إنتظرنا يوم وثنين، لكن. . .

ـ هذي النوبة غير عن كل اللي قبلها يا ابو عاهد!

ـ ما عاد يلزمني من هذي الدنيا، يا زيد، الا ما يلزم العجين من الملح، بس حتى اوصّل هالخيل لأهلها وديرتها، وبعدها، ما بنفسي شي.

ـ الله كريم، يا ابو عاهد.

ويوماً بعد يوم، ومثلما تنفجر الضحكة المفاجئة، او الصرخة في الظلمة، بدأت تتفجر الطبيعة، وتفاجىء نفسها وتذهل الكثيرين.

السلطان، بعد الغياب الطويل، اخذ يطيل جلوسه في الشرفة الامامية صباحاً، وفي الشرفة الغربية بعد الظهر، وقد رآه اكثر من واحد يضحك. أما حين نزل الى الحديقة، فقد اثار فرح الجميع. صحيح انه بدا متعباً، اقرب الى الاعياء، وكان يستند الى عصاه والى كتف زيد، لكنه وقف مع الرجال وتحدث. سألهم عن أحوالهم، وقال، بمداعبة، ان الأيام الدافئة اقبلت، «لكن الله العليم إنّا نرحل قبل الصيف»، وتوجه بعد ذلك الى الاسطبل.

داعب غصن البان طويلاً، ويبدو انه استعد لذلك، إذ وضع في جيبه قطعاً من السكر، وكان بين فترة واخرى يعطيه واحدة منها ولم ينسّ عقابا، وغالب حصاني فنر، وكذلك الوضحة، فرس مهيد. وفي لحظة من اللحظات همس بكلمات، لكنها لم تسمع، وقيل إنه كاد يمتطي حصانه، لكنه عدل، مرجئاً الأمر الى وقت آخر.

هذا اليوم كان مشهوداً في قصر بادن بادن. فبعد الحزن والعتمة والبرودة والخوف، يشيع جو جديد. حتى السحيمي الذي جاء من يقول له ان السلطان يتمشى في حديقة القصر، ثم ابلغ وهو يتوجه الى الاسطبل، لم يجد في نفسه الرغبة او الهمة لكي يلحق به أو ليطلب منه شيئاً خاصاً بالخيل، لكنه لم يتردد في أن يستوضح الذين رافقوا السلطان عن كل صغيرة وكبيرة.

اليوم التالي غامت السماء وامطرت، فالتزم الكثيرون الغرف، لكن راقبوا الغيوم والشرفات، وبدا لكل واحد منهم انه اكثر قوة وأكثر تفاؤلاً.

وفي اليوم الثالث، ومنذ الصباح الباكر، سُجلت حركة غير عادية في القصر، اتضح بمرور الساعات أن مرضاً مفاجئاً ألم بأحد النزلاء، ولقد تأكد ذلك من

وصول الطبيب في الصباح الباكر، ثم قبل العاشرة. أما عند الظهر، فقد وصل السفير نفسه ومعه سيارتان، وتبين من الحركة المحاذرة والنظرات ان الامر اكثر جدية مما قدر الكثيرون. ومع ذلك لم يعرف من المريض، وما هو المرض. وإن بدأت تتسرب اخبار، غير واضحة، وغير مؤكدة، ان السلطان هو المريض.

عناصر النوبة الليلة لاحظوا نشاطاً وحركة، وسمعوا اصواتاً في القصر لم يتبينوها بوضوح، لكن وصول الطبيب مرة أخرى أكد ان الحالة بلغت حد الخطورة، خاصة وان السفير واثنين من مرافقيه بقوا في القصر لم يغادروه. وقبل أن يطلع الفجر، ومن الركض المفاجىء والمناداة، وخروج النسوة من غرفهن نحو غرفة السلطان، ومجيء اثنين من الاطباء، ثم مغادرتهما السريعة، والحركة المضطربة المهتاجة، ثم ما أعقبها من السكون الذي يشبه السقوط، دل بوضوح ان السلطان أسلم الروح.

قال تركي الصهيب، وكان يبكي:

- كان صاحي، ناظرنا وابتسم، وتحسنت احواله بعدما اخذ الدوا. قلنا لأرواحنا باكر يكون احسن من اليوم، وما ان نام وغفا، وإن حدّ رجليه، اناظره، وعيني ما فارقته، الا واشوفه يختض ويرجف. تقربت منه، سألته إن كان يحتاج شي او شي يوجعه، لكنه لما فتح عينه شفته ما هو ولا بد، يناظر، لكن عيونه شاخصة. جت عمتي عدلة، وجا كل من بالقصر. ناديناه. هزيناه. جا الطبيب، فحصه، ضربه ابرة، لكن ما مرت ساعة الا وخلص.

هكذا قضى السلطان.

في اليوم التالي بدأت الاتصالات لنقل الجثمان.

موظفو السفارة يتراكضون. نزلاء القصر، وافراد الحاشية والحرس، في حالة من الحزن والذهول. زيد يذرع الحديقة من أولها إلى نهايتها وكأنه يقيسها. شايع السحيمي، لما سمع بالخبر طب على وجهه وغرق في النوم، حتى ان الكثيرين خافوا عليه.

لم تهدأ الحركة ولمْ تتوقف.

عند الظهر رأى عدد من الحرس غصن البان يغادر الاسطبل، كان يمشي

هادئا نحو القصر، توقف عند الادراج، تطلع الى فوق. دار حول القصر، كان يمشي بهدوء ورأسه يتشمّم الهواء . دار مرة ثم أخرى، تطلع الى فوق، ثم عاد، بهدوء، ايضاً، الى الاسطبل. وقبل الغروب مات غصن البان!

في اليوم التالي وصلت طائرة من موران لنقل جثمان السلطان. كانت نفس الطائرة التي حملته الى هنا، وكان قائد الطائرة هو الذي اوصل السلطان الى بادن بادن.

نقل الجثمان بسرعة، وسافر على نفس الطائرة معظم نزلاء القصر وافراد الحرس والحاشية. أما شايع السحيمي فقد تأخر. قال له زيد، وخرج صوته مرتجفاً:

- ومن وصلتنا، يا ابو عاهد، من كل بد ندز لك طيارة تحملك وتحمل الخيل والغراض وكل ما بقي ومن بقي.

قال شايع السحيمي:

- احرص يا زيد، ولا تنسّ، وما هو من اجلي، من اجل الخيل، لأن ما لها احد غيرنا، وخاف تموت مثل اللي مات قبلها.

- لا تخف يا ابو عاهد ووكل الله.

- ما أنا بخايف يا زيد لكن المصيبة أن البعيد ينسى، وهذي أرواحها برقبتنا، وباكر نتحاسب عليها!

وأغلقت بوابة القصر، واتجه شايع السحيمي إلى الاسطبل، وما إن وصل حتى بدأ يحدّث الخيل، ويبكي.

صيف ١٩٨٨

مدن الملح

المُنْبَتّ

«كل شيء في القصر ثقيل خانق. الأمر الذي دفع الكثيرين إلى الصمت. ودفعهم لأن يأووا إلى فراشهم مبكرين. وفي وقت لاحق دفعهم إلى العزلة، لأن كل كلمة تسبب اختلافا. وأية نظرة تولد شقاقا.

«وليالي بادن بادن ليست مثل أية ليال غيرها. فهنا الصمت قوي فضاح. والظلمة لها بريق يغشي البصر. فإذا امتلأت بالرعود والأمطار، فعندئذٍ يحس الانسان أنه محاصر بالاف الاعداء. وعندها يغادره النوم، وتستيقظ فيه المخاوف. فلا يعرف هل يبقى حيث هو أم يهرب إلى أي مكان لعل فيه تكون النجاة».

«إنه المنفى...

المكان البارد، الموحش، الذي يشعرك دائما أنك غريب. زائد، وغير مرغوب فيه. المكان الذي تفترضه محطة، أو مؤقتا. فيصبح لاصقا بك كالعلامة الفارقة. وربما لأنه مؤقت يصبح وحده الابدي. كالقبر، لا يمكن الهروب منه أو مغادرته.».

لوحة الغلاف للفنا
تصميم الغلاف: ا

المؤسسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير -
ت ١/٨٠٧٩٠٠ برقياً: موكيالي،
بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت
تلكس: LE/DIRKAY - ٤٠٠٦٧.